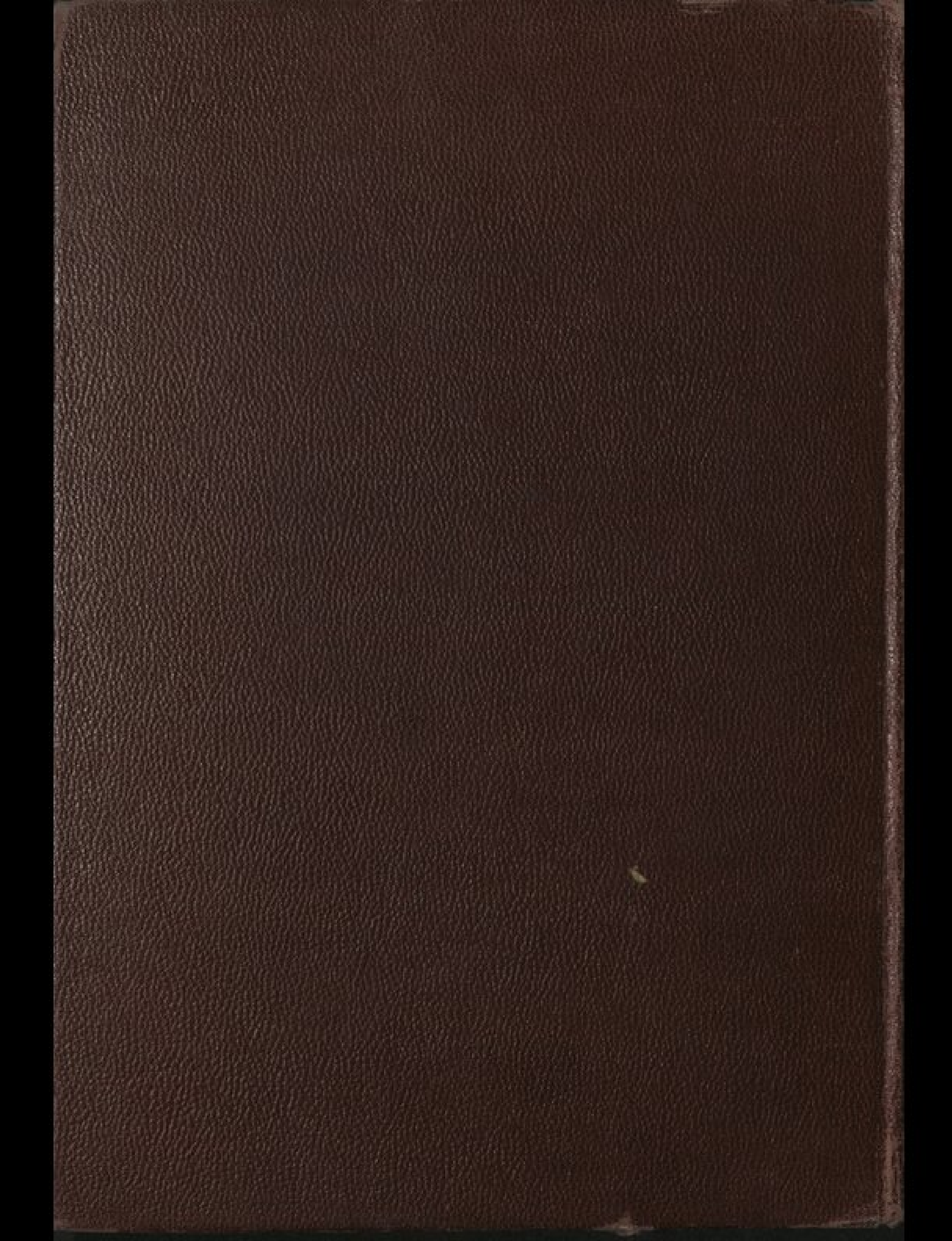
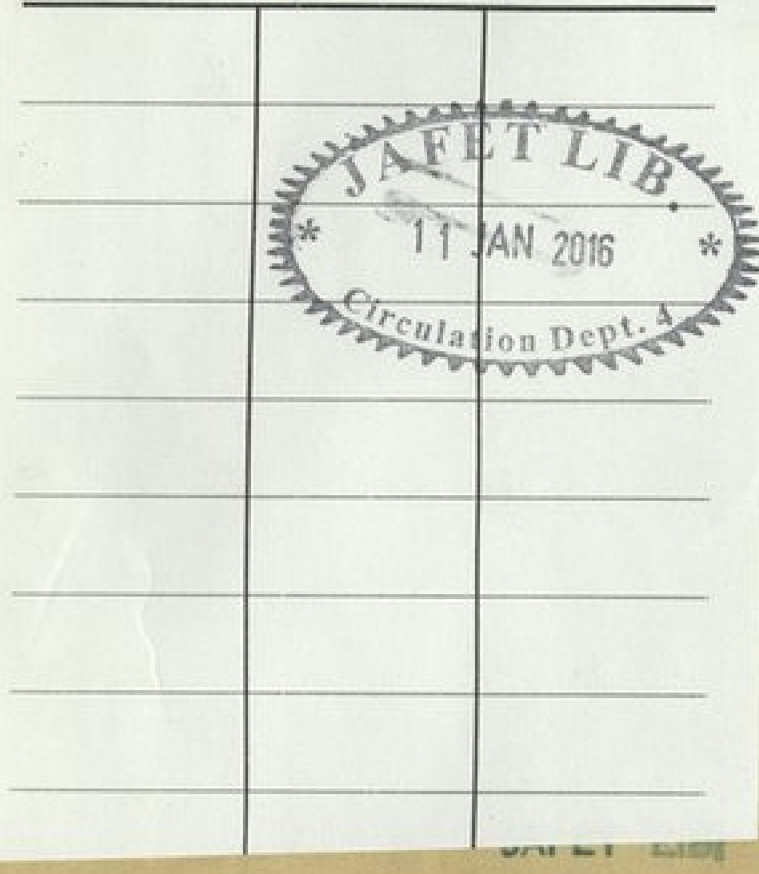
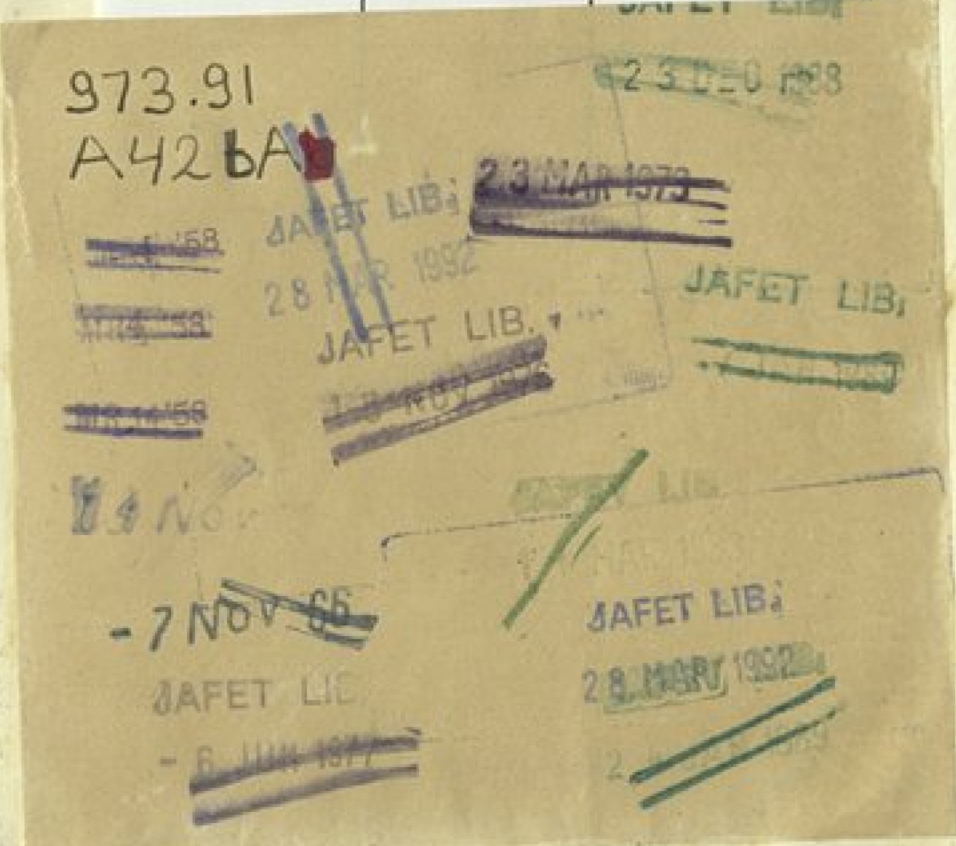
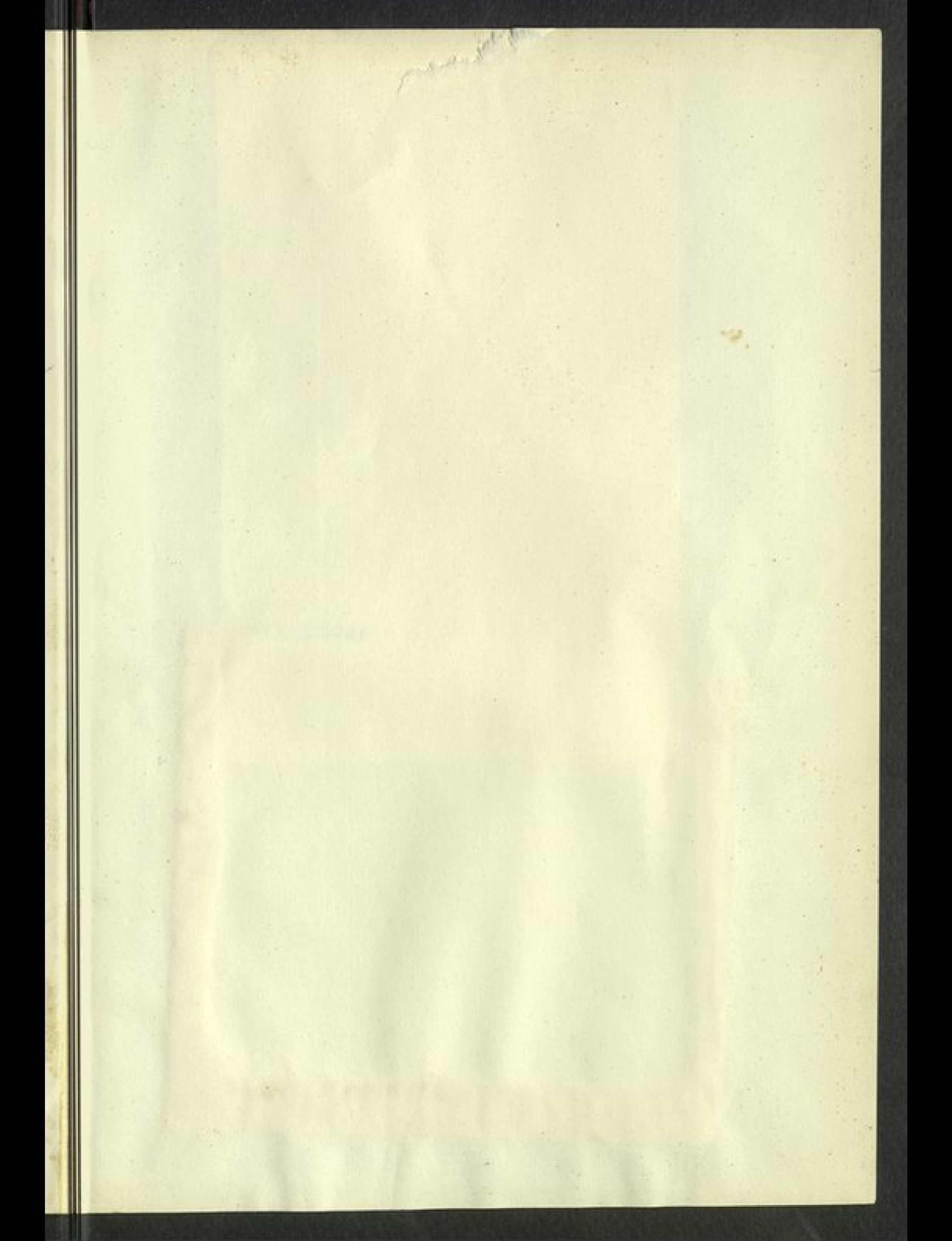



DATE DUE
JAFET LIB.
11 JAN 2016
Circulation Dept. 4


973.91
A42bA
JAFET LIB.
28 MAR 1992
JAFET LIB.
JAFET LIB.
-7 NOV 65
JAFET LIB.
28 MAR 1992



التطور الكبير

نشر هذا الكتاب بالاشـتراك
مع
مؤسـسة فرانكلين للطبـاعة والنشر

التطور الكبير

نصف قرن من الحياة الأمريكية

تأليف

فردريك لويس آلن

ترجمة

الدكتور عبد المنعم البيه

مراجعة وإشراف وتقديم

الأستاذ حسين كامل سليم

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الانجلو المصرية



المشتركون فى هذا الكتاب

فردريك لويس آلن — مؤلف الكتاب :

رئيس تحرير مجلة « هاربر » منذ سنة ١٩٤١ وهو معروف فى الأوساط الصحفية ومشهور بكتاباته الشيقة عن الحياة الأمريكية .

وكان أول كتاب أصدره هو « بالأمس فقط » عن الحياة الأمريكية حوالى سنة ١٩٢٠ ، فلاقى هذا الكتاب رواجا كبيرا ووزع منه أكثر من نصف مليون نسخة . ثم تبعه بكتاب « أسياد العالم فى تاريخ أمريكا المالى » ثم بكتاب آخر « منذ الأمس » عن الحياة الأمريكية حوالى سنة ١٩٣٠ ثم أصدر كتابا بعنوان « بيير بونت مورجان العظيم » واشترك مع زوجته فى ثلاثة كتب مصورة أشهرها « أذكر جيدا » كما اشترك فى تأليف شريط سينمائى « العهد الذهبى سنة ١٩٣٠ » .

ولد فى بوسطن ولكنه يعيش الآن فى نيويورك منذ اتصاله بمجلة هاربر فى سنة ١٩٢٣ ، ولا يزال يتردد على بوسطن اذ اختير مراقبا فى جامعة هارفارد التى تخرج فيها .

الأستاذ حسين كامل سليم — مراجع الكتاب ومقدمه :

أتم بعثته الدراسية بانجلترا سنة ١٩٢٠ وبدأ حياته العملية بالتدريس بمدرسة المعلمين العليا ومدرسة التجارة العليا ثم شغل كرسى أستاذ التاريخ الاقتصادى بكلية التجارة بجامعة القاهرة حتى أصبح عميدا للكلية ، وبعد فترة وجيزة شغل فيها منصب وكيل وزارة الارشاد القومى عاد وكيلا لجامعة القاهرة الى أن اعتزل منصبه فى أواخر سنة ١٩٥٤ . وله عدة كتب وأبحاث قيمة باللغتين العربية والانجليزية . وقد أوفد على رأس ثلاث بعثات الى أمريكا للدعاية للقضية المصرية .

جورج بريت — قام باختصار هذا الكتاب واعداده للترجمة العربية وقد عاش مدة طويلة فى بيروت مشتغلا بالصحافة . وعرف بأنه من أكبر الدعاة للقضية العربية والمتحمسين لها . وهو الآن وكيل جمعية الصداقة الأمريكية للشرق الأوسط .

الدكتور عبد المنعم البيه — مترجم الكتاب :

حصل على **بكالوريوس** العلوم السياسية والاقتصادية من كلية التجارة بجامعة القاهرة ثم أرسل فى بعثة الى انجلترا حيث نال بكالوريوس فى العلوم التجارية من جامعة برمنجهام ثم درجة الدكتوراه فى العلوم المالية والاقتصادية من جامعة لندن . وهو الآن أستاذ مساعد الاقتصاد السياسى بكلية التجارة بجامعة الاسكندرية . وقد ألف عدة كتب وأبحاث فى النظريات المالية والاقتصادية .

الأستاذ الفنان سعيد خطاب — مصمم الغلاف :

تلقى دروسه فى كلية الفنون التطبيقية ثم أرسل فى بعثة الى انجلترا . وهو الآن أستاذ بالكلية التى تخرج فيها . وقد نال عدة جوائز فى المسابقة التى أقامتها مؤسسة فرانكلين لتشجيع الفنانين على العناية بتصميم أغلفة الكتب .

تقديم الكتاب

بقلم الأستاذ حسين كامل سليم

عندما طلبت الى مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر الاشراف على ترجمة كتاب « التطور الكبير» وافقت دون تردد طويل ، اذ تبينت ما فى نقله الى العربية من متعة كبيرة ، ذلك لأن الكتاب يعالج فترة خطيرة من تاريخ الولايات المتحدة المعاصر ، فترة مرت فيها تلك البلاد بتجارب كثيرة وتغلبت على مشاكل عديدة ، حتى أصبحت تتربع فى مركز الزعامة بين دول الكتلة الغربية ، وتنعم بدرجة من القوة والثراء لاينازعها فيهما منازع . ولا مراء فى أن العالم العربى يمر فى الوقت الحاضر ببعض المراحل التى مرّت بها الولايات المتحدة فى النصف الأول من هذا القرن ، ولذا كانت دراسة الوسائل التى اتبعتها تلك البلاد فى معالجة مشاكلها ، وحل ماتعقد من أمورها ، وفق ما هو مبين فى هذا الكتاب — مما يساعد على تنوير الرأى العام العربى ، وقادته ومفكريه على وجه الخصوص .

ومما تجدر ملاحظته فى بداية الأمر أن هذا الكتاب وضع أول ما وضع للقارىء الأمريكى ، لكى يعرف الأمريكيون حقيقةتطور الحالةالاجتماعية والاقتصادية فى بلادهم ، وليس أدل على ذلك من أن ما بيع منه فىالشهور الأولى عقب نشره فى سنة ١٩٥٢ زاد على ٢٠٠٫٠٠٠ نسخة فى الولايات المتحدة وحدها . ولعل هذا يفسر لنا ما يلاحظ من أن المؤلف لم يحاول اخفاء الكثير من الحقائق والمعلومات المريرة التى لايمكن اعتبارها دعاية طيبة للولايات المتحدة ، ومثال ذلك مشكلة الزنوج ، وسوء حالة المهاجرين عنـد أول قدومهم الى أمريكا ، وما نعمت به أقلية مختـارة من الثراء الفاحش على حساب الأغلبية الساحقة التى ذاقت من أنواع الفقر والمهانة الشىء الكثير ، الى غير ذلك من المآسى التى استطاعت الولايات المتحدة

أن تتخلص من بعضها ، وما زالت تسعى فى سبيل الخلاص من البعض الآخــر .

ولذا كان هذا الكتاب لايصور الولايات المتحدة كدولة بلغت حدّ الكمال والرخاء وانما يظهرها كدولة مجاهدة فى سبيل الوصول الى تلك الحالة السعيدة .

ويشير الكتاب بين الآونة والأخرى الى الدعاية الشيوعية المعادية للولايات المتحدة ، ويعنى بدحضها وتفنيدها ، لأنه يهــدف الى افهام القارىء حقيقة الحالة الاجتماعية والاقتصادية فى تلك البلاد اليوم ، وكيف تطورت حتى وصلت اليها . فاذا كانت الدعاية الشــيوعية تتهم الولايات المتحدة بالوقوع تحت سيطرة رجال المال فى « وول ستريت »، أو تقرر أن صانعى الذخائروالأسلحة الفتاكة يوجهون سياسةالكونجرس وسياسة الحكومة الأمريكية ، واذا كانت تستنتج من سوء حالة الزنوج الأمريكيين ، أو من بؤس طبقة العمال الزراعيين والصناعيين ، أن النظم الديمقراطية القائمة على الحرية والمساواة ليست مستقرة فى الولايات المتحدة ، أو هى مقصــورة على طبقة معينة دون أخرى ، فان الكتاب لاينكر هــذه الادعاءات ، وانما يبين بالأدلة الواضحة أنها لاتنطبق على الحالة القائمة فى الوقت الحاضر ، بل على ماكانت عليه منذ أربعين أو خمسين سنة .

وقد ولد مؤلف الكتاب « فردريك لويس آلن » فى مدينة بوسطن سنة ١٨٩٠ ، وتخرج فى جامعة هارفارد سنة ١٩١٢ ، ثم اشتغل عامين بتدريس أدب اللغة الانجليزية فى تلك الجامعة ، وبعد ذلك انتقل الىمجلة « اتلانتيك » الشهرية ليشغل وظيفة مساعد لرئيس التحرير ، ثم عينمديرا ورئيسا لتحرير مجلة « سنشرى » . وفى خلال الحرب العالمية الأولى ، التحق بمجلس الدفاع القومى فى واشنطن ، وفى سنة١٩١٩ عينسكرتيرا لجامعة هارفارد ، ولكنه ما لبث أن عاد الى الصحافة مرة أخرى اذ التحق فى سنة ١٩٢٣ بمجلة « هارپار » واستمر بها حتى وصل الى منصبرئيس

تحريرها فى سنة ١٩٤١ . وأصبح كذلك مديرا لشركة « هارپار » للنشر ووكيلا لمجلس ادارتها .

ويلاحظ أن المجلات الثلاث التى اشتغل بها المؤلف ، هى من المجلات الشهرية فى الولايات المتحدة وتعنى بشئون الأدب والسياسة . فتنشر التعليقات عن الحوادث السياسية وكذلك المقالات الأدبية والقصائد الشعرية والقصص القصيرة ، الى غير ذلك من مختلف ألوان النشاط الأدبى . وقد اشتهر المؤلف كمحاضر قدير وكاتب أدبى كبير ، كما اشترك مع زوجته فى اخراج عدد غير قليل من الكتب التاريخية الحية ، التى تصور الحوادث تصويرا يقربها الى فهم القارىء ويحببها اليه . هذا فضلا عن المؤلفات التى قام بوضعها بمفرده ، ومن أهمها : «بالأمس فقط» وهو عرض تاريخى للولايات المتحدة فيما بين ١٩٢٠ و١٩٣٠ ، و «أسياد العالم » وهو دراسة لتاريخ الولايات المتحدة المالى فى الأزمنة الحديثة ، و « منذ الأمس » وهو كتاب يعالج تاريخ الولايات المتحدة فيما بين ١٩٣٠و١٩٤٠ . ومن أهم مؤلفاته كتاب «حياة بيربونت مورجان الكبير» وفيه يوضح حياة ذلك الرجل الخطير ، الذى سيطر سيطرة مطلقة على الشئون المالية فى الولايات المتحدة مدى حقبة كبيرة من الزمن .

ومن كل ذلك يتبين أن المؤلف خير من يقوم بوضع هذا الكتاب الذى تقدمه لقراء العربية اليوم . فهو رجل جامعى وأديب وصحفى ، وقد عنى منذ نشأته بتتبع الحياة الأدبية والسياسية فى بلاده ، ووضع المؤلفات التى تمس بعض نواحى الموضوع الذى عالجه فى كتابه الحالى ، فكأنه كان يعد نفسه منذ عهد طويل لوضع كتاب « التطور الكبير » الذى يوضح فيه بطريقة شاملة مختلف العوامل والمشاكل والتغيرات التى شهدتها الولايات المتحدة فى نصف القرن العشرين .

هذا وقد رأت مؤسسة فرانكلين أن هذا الكتاب فى بعض أقسامه ملىء بالاحصاءات والتفصيلات التى تهم الأمريكيين وحدهم ولاتهم أبناء الشرق العربى كثيرا ،فعهدت الى رجل عرف الشرق طويلا وعاشر أبناءه

ليقوم باستبعاد هذه التفصيلات واعادة صياغةبعض أجزاء الكتاب،وهذا الرجل هو مستر جورج بريت الذى عاش مدة طويلة فى بيروت مشتغلا بالصحافة وعرف بأنه من أكبر الدعاة للقضية العربية والمتحمسين لها،وهو الآن وكيل جمعية الصداقة الأمريكية للشرق الأوسط .

ولعل أهم ما يسترعى نظر القارىء لهذا الكتاب لأول وهلة كثرة ما يحتوى عليه من الحقائق المدعمة بالأرقام ، ولكنه رغم ذلك كتاب شائق فى أسلوبه سهل فى استيعابه ، بفضل الأسلوب القصصى الذى جرى عليه المؤلف فى تصنيفه ، ولذا يبدو كأنه قصة محبوكة الأطـراف ، لايكاد القارىء ينتهى من أحد فصولها حتى يتشوق الى قراءة ما بعده من فصول. ومن المميزات الأخرى لهذا الكتاب ، أن القـارىء مهما بلغت معرفته بالولايات المتحدة والمامه بتاريخها واقتصادياتها ومختلف أمورها ، فانه سوف يجد فيه الكثير من المعلومات الطريفة والجديدة ، حتى ولو كان من الأمريكيين أنفسهم . ويعزى ذلك الى البحث العميق الذى قام به المؤلف ، والمراجع العديدة التى استند اليها ، والى مقدرته الفريدة على ربط بعض الحقائق ببعضها واعادة الأمور الى مسبباتها الصحيحة .

والكتاب ينقسم الى ثلاثة أبواب كبرى ، يعالج أولها حالة الولايات المتحدة كما كانت فى بداية القرن العشرين ، ويبحث ثانيها فيما حـدث من تغير كبير شامل فى مختلف نواحى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فى تلك البلاد . أما ثالثها فانه يستعرض الوضع الراهن ، وما آلت اليه الحالة فى الوقت الحاضر ، ثم يتجه المؤلف ببصره الى المستقبل فيشير الى بعض المشاكل التى ما زالت تنتظر الحل فى داخل الولايات المتحدة وخارجها ، وما ينبغى القيام به لتذليلها والتغلب عليها .

ولا يسع القارىء عند تصفح فصول الباب الأول الا أن يعجب كيف كانت الحيـاة فى الولايات المتحـدة على مثل تلك الدرجة من التأخر بالنسبة الى ما هى عليـه فى الوقت الحـاضر ، فقـد كانت سبل المواصلات فى حالة شبه بدائية ، حيث قلّ وجود الطرق الممهدة وانحصر

نشاط المجتمع فى أضيق الحدود ، وكان نصيب المرأة من الاشتغال بالأعمال الحرة ضئيلا جدا ومقصورا على الطبقات الفقيرة التى يلزمها العوز بأن تقبل النزول بنسائها فى معترك الحياة ، بينما بقيت المرأة فى الأسر الغنية والمحترمة بمنأى عن كل عمل ، وكان لايسمح لها الا بنشاط محدود ، على اعتبار أن الزواج هو المستقبل الوحيد الذى يجب أن تتطلع اليه.هذا فضلا عن قسوة النظام الرأسمالى فى ذلك العهد، وما أدى اليه من تركيز الثروة الطائلة فى أيد قليلة ، وترك الغالبية العظمى من الشعب تتردى فى أعماق الفقر والذل ، الى درجة لايسمح بها المجتمع فى الوقت الحاضر .

وقد أفرد المؤلف فصلا خاصا لتوضيح الحالة التعسة المزرية التى كانت تنتظر المهاجرين عند أول وصولهم الى الولايات المتحدة ، اذ كانوا تحت رحمة أصحاب الأعمال يستغلون جهلهم وشدة تهافتهم على العمل، فيرهقونهم بالأعمال المضنية فى ساعات طويلة وبأجور زهيدة ، وبذا بدأ القرن الحالى والولايات المتحدة تخضع للنظام الرأسمالى فى أبشع صوره، مما حدا بالكثير من المفكرين الى التشاؤم بالمستقبل والتخوف من حدوث انقلاب خطير ، عندما تستيقظ الطبقات المغلوبة على أمرها وتطالب بنصيبها من الحياة الكريمة .

وقد انتهى هذا الباب الأول بتصوير حالة الفساد المستشرى فى الحكومة الأمريكية فى ذلك العهد ، اذ كانت واقعة تحت سيطرة رجال المال وأصحاب الأعمال ، مما جعل الحكومة الفدرائية وحكومات الولايات أيضا عاجزة كل العجز عن التدخل لاصلاح الحالة ، ذلك لأن كبار الموظفين والقضاة وأعضاء الكونجرس كانوا يدينون بمراكزهم لما يلقونه من مساعدة رجال المال،ولذا كانوا لا يجرؤون على معارضتهم أو الوقوف فى وجههم ،وقد أدى كل ذلك الى أن التقدم العظيم الذى شهدته الولايات المتحدة خلال القرن التاسع عشر أوجد عددا من المشاكل الكبيرة التى كانت تنذر بالخطر العظيم فى بداية القرن العشرين .

أما الباب الثانى فقد أوضح الوسائل التى تغلبت بها الولايات المتحدة على أغلب هذه المشاكل ، وتخلصت من المخاطر التى كانت محدقة بها حتى نجت من الانقلابات والثورات التى شهدتها كثير من الدول الأخرى وبخاصة بعد الحرب العالمية الأولى ، ويعزو المؤلف كل ذلك الى سببين رئيسيين :—

أولا — النتائج المباشرة وغير المباشرة للنهضة الصناعية الكبرى التى صاحبت انتاج السيارات والتوسع فى استخدامها ، ونظام الانتاج الكبير لمختلف السلع والمعدات ، فقد نجم عن كل ذلك أن اتسعت أبواب الرزق لدى الأمريكيين وانفسحت آفاق العيش والحياة أمامهم فانطلقوا يقطنون أنحاء بلادهم الفسيحة ، ويستثمرون خيراتها الطبيعية الوفيرة ، حتى أصبح الشعب الأمريكى بفضل كل ذلك ينعم بمستوى من المعيشة لا يعرفه شعب آخر فى العالم أجمع ، بل يصح أن يقال ان الشعب نفسه قد تحول الى نظام الرأسمالية ، اذ صار العمال والمزارعون يمتلكون السيارات والثلاجات الكهربائية ومختلف المعدات التى لا ينعم بها الا الأغنياء فى الدول الأخرى . وبهذه الوسائل استطاعت الولايات المتحدة أن تواجه مشكلة سوء توزيع الثروة بين الشعب ، بالاستزادة الكبيرة من مجموع الثروة ، فارتفع مستوى معيشة الفقراء دون أن ينخفض مستوى معيشة الأغنياء ، وانقشع خطر الانقلاب الذى كان يهدد البلاد فى بداية القرن ، بسبب ما كان هناك من بون شاسع بين الغنى والفقير ، ومن ظلم فادح فى توزيع الثروة القومية .

ثانيا — الطريقة التى اتبعتها الولايات المتحدة فى معالجة مشاكلها ، وذلك بالتغلب على كل عقبة على حدة ، من غير أن يكون لديها خطة مرسومة تستهدف تنفيذ اصلاح شامل فى جميع النواحى . وقد تم كل ذلك عن طريق التشريع العادى ، الذى كان يرمى الى حل كل مشكلة عند استفحال أمرها ، مع عدم المساس بالنظم الديمقراطية المعروفة ، أو سلب الأفراد حرية تصرفهم فى أموالهم وأعمالهم . ومن أمثلة ذلك ما صدر

من تشريع لحظر قيام الشركات الاحتكارية وحل ما كان قائما منها ، ولذا قضى قضاء مبرما على السلطة المطلقة التى كان ينعم بها رجال المال ، وكذلك تعديل نظام الضرائب بفرض ضريبة الدخل العام ، مما حدّ من ثروة كبار الأغنياء وزاد من مقدرة الحكومة على تحقيق الكثير من الخدمات العامة للشعب . وعندما ظهرت الأزمة الاقتصادية الكبرى زاد تدخل الحكومة فى تنظيم البنوك والبورصات وتقييد المضاربات ، الى غير ذلك من الوسائل التى استخدمتها للتغلب على هذه الأزمة الطاحنة . هذا الى جانب ما قام به العمال أنفسهم من تنظيم نقاباتهم وتدعيمها ، حتى أصبحت قوة كبيرة تعمل دواما على رفع مستوى معيشة العمال وزيادة أجورهم وتقليل ساعات عملهم . ونتج عن ذلك أن زعماء العمال صاروا لا يقلون نفوذا عن كبار رجال المال أو كبار رجال الحكومة أنفسهم .

ومما تجب ملاحظته أيضا أن هذا التوسع المتزايد فى سلطة الحكومة الفدرالية ، وهذا التدخل الذى لاحد له من جانبها فى حياة البلاد الاقتصادية ، بغرض الحد من مساوىء الرأسمالية المطلقة ، قد تحقق كله فى ظل النظام الديمقراطى السليم ، فكأن العقلية الأمريكية التى تفهم الأساليب الميكانيكية وتتقنها ، اتبعت فى سبيل الاصلاح ما يتبعه المهندس الميكانيكى الماهر اذا ووجه بخطر تعطل جزء من أجزاء الآلة التى يشرف عليها ، فانه لا يعمد الى استبدالها بغيرها أو الى تعطيلها عن العمل ولو لفترة وجيزة ، وانما يستخدم مهارته فى معالجة الآلة أثناء سيرها واصلاح ما فسد من أجزائها دون أن تتعطل الآلة عن العمل يوما واحدا .

أما الباب الثالث فانه يدرس الحالة الراهنة فى الولايات المتحدة وهى الحالة التى جاءت نتيجة للتطورات الكثيرة التى سبق بيانها ، فيوضح أثر ارتفاع مستوى المعيشة بين أفراد الشعب فى تقريب شقة الخلف بين حياة الناس ، لأن التوسع فى الانتاج ، والعناية بكثرة الاعلان عن مختلف السلع ، وارتفاع مستوى الأجور ، قد خلقت فيما بينها ما يصح التعبير

عنه بالمستوى الأمريكى للحياة ، من حيث الغذاء والكساء ووسائل الانتقال والترفيه والثقافة العامة . هذا فضلا عن التغير الكبير الذى حدث فى نظام الصناعة والتجارة الأمريكية بحيث أصبح مديرو الشركات الكبرى من بين الفنيين من رجال الجامعات ، ولا يشترط فيهم أن يكونوا من كبار حملة أسهم الشركات التى يشرفون عليها . ولهذا تعدل النظام الرأسمالى الأمريكى من أساسه وأصبح كبار الأغنياء لايتحكمون فى أية شركة من الشركات كما كانوا فى بداية القرن الحالى ، عندما استطاعوا توجيه شركاتهم وفق ما يشاءون دون أن يكون لأحد حق التدخل فى شئونهم.

وقد اختص المؤلف مشكلة الزنوج فى أمريكا بفصل خاص فى هذا الباب ، لما لها من أثر كبير فى الاساءة الى سمعة الولايات المتحدة فى الخارج . فبيَّن أن مركز الزنوج يسير فى تحسن مطرد ، وان كان المؤلف يعترف بأنهم لم يبلغوا بعد المركز اللائق بهم فى دولة ديمقراطية ، ولم ينعموا حتى الآن بالمساواة الكاملة مع سائر السكان .

وانى لأذكر بهذه المناسبة حديثا جرى بينى وبين أحد كبار العلماء الزنوج الأمريكيين فى مارس سنة ١٩٥٢ ، وذلك أثناء زيارتى للجامعة الجنوبية ، وهى أكبر جامعة فى مدينة باتون روج عاصمة ولاية لويزيانا. فقد سألته — وهو مدير تلك الجامعة — عن شعوره نحو مركز الزنوج فى بلاده ، وما يراه من وسائل لحل هذه المشكلة ، فأدهشنى باجابته اذ قال انه متفائل بالمستقبل ، لأن الزمن كفيل باصلاح الحالة بعد أن أخذت فى التحسن الكبير فى السنوات الأخيرة . كما قرر أن من أهم أسباب تفاؤله أن القانون يقف على الدوام الى جانب الزنوج ، فما رفعت قضية لانصاف زنجى وقع عليه حيف الا صدر الحكم فى مصلحته ، وقد أثبتت الحوادث فيما بعد صدق نظرته وحسن تقديره ، اذ أصدرت المحكمة العليا فى واشنطن فى ربيع ١٩٥٤ حكمها بحظر التفرقة بين الزنوج والبيض فى مختلف معاهد التعليم ، فأحدث هذا الحكم دويا كبيرا لأنه سوف يقوض التعصب العنصرى من أساسه ، ويعود الشباب من البيض

والسودعلى أنيعيشوا سوياوأنيتعاملواعلى قدم المساواة التامة.وكذلك جاءت الأنباء أخيرا (٢٣ أغسطس سنة ١٩٥٤) بنبأ حضور أول زنجى فى التاريخ احدى جلسات مجلس الوزراء الأمريكى ، وهو جيمس ارنست ويلكينز ، الذى يشغل منصب مساعد وزير العمل ، وهذا حدث له من غير شك دلالته ومغزاه .

وينتهى هذا الباب بفصلين ممتعين يلخص فيهما المؤلف أهم مااكتسبته الولايات المتحدة من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ، ويستعرض المشاكل التى ما زالت تواجهها والعقبات التى لابد لها من التغلب عليها . وفى رأى المؤلف أن أمريكا قد ابتدعت نظاما اقتصاديا جديدا ، لا هو بالرأسمالية كما كانت معروفة فى القرن الماضى ، ولا هو بالاشتراكية أو الشيوعية ، ذلك لأن الحكومة أصبحت تتمتع بالهيمنة العامة على جميع وسائل الانتاج ، ولكنها تركت تلك الوسائل نفسها تحت اشراف الأفراد دون تدخل من جانبها ، الا اذا كان هذا التدخل ضروريا لمنع التدهور الاقتصادى أو لانقاذ طبقة أو مؤسسة معينة يصيبها الحيف وتتعرض للانهيار . وبهذه الطريقة حدّت الحكومة من فعل بعض القوانين الاقتصادية مثل قانون العرض والطلب ، وجعلت نفسها مسئولة عن استمرار الرخاء وتدرج مستوى المعيشة نحو الارتفاع ، دون أن تتدخل فى شئون الأفراد الاقتصادية الا اذا اقتضت الحال .

ويعتبر المؤلف أن أكبر كشف اقتصادى قامت به الولايات المتحدة فى نصف القرن الحالى هو معرفة الفائدة الكبرى التى تعود على المجتمع من زيادة دخل الطبقات الدنيا لكى ترتفع مقدرتها الشرائية . وبهـذه الوسيلة يتسع الرخاء وتروج الأسواق ويزيد الانتاج ، كما يرتفع فى الوقت نفسه شعور الأفراد جميعا بالكرامة والمسؤولية . وهذا يفسر لنا كيف استطاعت أمريكا — دون أن تحدث تغييرا جوهريا فى نظامها الاقتصادى — أن تصبح أغنى دول العالم وأكثرها انتاجا وأرفعها فى مستوى معيشة الأفـراد .

أما المشاكل التى تواجهها الولايات المتحدة فى الوقت الحاضر والتى لم تتمكن من التغلب عليها بعد ، فتتلخص — فى رأى المؤلف — فى روح القلق التى تسود البلاد بسبب قيام الحرب الباردة والتخوف من انتشار الشيوعية . فقد أدى ذلك الى اضطهاد الكثيرين من أفاضل الأمريكيين بزعم أن لهم آراء متطرفة ، أو أنهم يمتون بصلة قريبة أو بعيدة الى الحزب الشيوعى ، وقد نجم عن ذلك أن أصبح الأمريكيون يخافون من التجديد ويهابون الآراء المتطرفة، مع أن تطورهم فى نصف القرن الماضى كان قائما على التجديد وعلى الآراء التى كانت تعتبر فى وقتها انها متطرفة . ويعتقد المؤلف أن هذه مأساة داخلية ، وانه يجب على الولايات المتحدة ألا تتنكر لنفسها وتتناسى ماضيها ، وأن تعالج هذه المأساة بالكثير من الثقة بنفسها وبالمستقبل ، وان تفسح صدرها للآراء الجديدة وهى التى كانت فيما مضى سر تقدمها ونهضتها .

أما فيما يتعلق بموقف الولايات المتحدة من العالم الخارجى فان الخوف المتزايد من الشيوعية ، بالاضافة الى قلة خبرة الأمريكيين بمسائل السياسة الدولية ، قد حمل الولايات المتحدة على أن تقف الى جانب الدول المحافظة، وأن تقاوم التغيير والتجديد فى العلاقات الدولية. ويرى المؤلف أن هذا خطأ كبير لأن أمريكا بحكم تاريخها وتطورها يجب أن تتزعم حركة التغيير والتجديد فى العالم كله ، وبهذا تحول دون أن تظهر روسيا السوفيتية أمام الملأ كصديقة للحرية وزعيمة للحركات الوطنية ، مع انها لاتؤمن بالحرية فى بلادها ، ولا تسمح بأى تغيير فى أنظمتها الدكتاتورية .

ولعلى بهذه الكلمة أكون قد وفقت الى بيان ما فى هذا الكتاب القيم من معلومات هامة تتعلق بتطور الولايات المتحدة فى النصف الأول من القرن العشرين ، وأرجو مخلصا أن يجد القارىء العربى فى هذا الكتاب ما ينشده من متعة وعلم وفائدة . والله ولى التوفيق .

مقدمة المؤلف

يحاول هذا الكتاب أن يرسم صورة عامة للتغيرات الرئيسية التى شهدتها الولايات المتحدة خلال النصف الأول من القرن العشرين .

ولا شك أن من يقوم بمثل هذه المحاولة ، يجد الميدان فسيحا أمامه ويستطيع أن يصور الحوادث بصور متعددة ، فقد يركز اهتمامه — وفقا لأسلوب كتب التاريخ القديمة — على تطور السياسة الأمريكية من عصر الرئيس ماكينلى الى عصر الرئيس ترومان ، فيوضح البون الشاسع بين مركز أمريكا الدولى فى سنة ١٩٠٠ والمركز العظيم والمحفوف بالمتاعب الذى أصبحت تشغله بعد نصف قرن من الزمان . وقد يوجه اهتمامه الى تتبع الفن الأمريكى والموسيقى والأدب والثقافة ، أو يدرس التحسن العظيم الذى سجله علم الطب والصحة العامة ، أو تقدم العلوم والفنون على اختلاف أنواعها . وقد يعنى الباحث أيضا بتتبع ما أصاب المجتمع الأمريكى من تغير كبير ، كالتحرر من القيود الدينية الضيقة ، وتفكك روابط الأسرة ، وتناقص نفوذ الآباء والأمهات ، وتزايد نسبة الطلاق وما صحب كل ذلك من تحرر المرأة فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . وقد يتجه باهتمامه الى تتبع تطور الفكر الأمريكى بالنسبة الى طبيعة الانسان والخالق سبحانه وتعالى ، وما أصاب نفوذ الكنيسة ومكانتها من هبوط على مرّ السنين ، وكذلك تزايد الشعور بالخوف من قيام الحرب والمحاولات اليائسة لكسب الهدوء الروحى فى عالم ملىء بالاحتمالات الخطيرة .

ولقد يسعى الكاتب أيضا الى توجيه أكبر اهتمامه الى تتبع التغيرات التى حلت بالحياة الأمريكية ، نتيجة لما يصح تسميته بتغلغل الديمقراطية

فى نظامها الاقتصادى ، أو تحول الرأسمالية نحـو تحقيق الأهـداف الديمقراطية ، بدليل أن التوسع الهائل فى النشاط الصناعى والتجارى، وما صحبه من دوافع عديدة متشابكة ، شملت كل نواحى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، قد غير مستوى المعيشة الأمريكية فنجم عنه تغير عظيم وتعديل كبير فى أسلوب التفكير الأمريكى وفى مكانة الأفراد كمواطنين .

وقد اخترت أن يكون هذا المنهج الأخير هو المنهج الرئيسى لهذا الكتاب ، لأنه فى رأيى على أعظم جانب من الأهمية ، فما من شك فى أنه لبُّ ما حدث من تغير فى الحياة الأمريكية فى النصف الأول من القرن العشرين . وهناك اعتبار آخر حملنى على هذا الاختيار ، وهو اعتقادى أن التغيرات التى سوف أحاول شرحها ليست معروفة أو مفهومة للكثير من الناس .

والأدلة على ذلك عديدة متلاحقة ، فعندما يهاجم الولايات المتحدة فيشنسكى وجروميكو ومالك ، ويتحدثون مثلا عمن يسمونهم « خدام وول ستريت Wall Street » فانهم فى الواقع يهاجمون الولايات المتحدة كما كانت فى سنة ١٩٠٠ ، لا كما هى فى الوقت الحاضر . واذا كان مايقولونه يترك أثرا فى نفوس الكثيرين من الأوربيين ولو كانوا ممن لا يؤمنون بالشيوعية ، فان ذلك يعزى الى حد ما الى أن عددا كبيرا من هؤلاء مازال يتصور الولايات المتحدة بصورة عفّى عليها الزمن منذ عهد غير قصير ، اذ يعلمون ما للصناعة ولرجال الأعمال من أهمية بالغة فى الحياة الأمريكية. ولذلك يعتقدون أنهما يشغلان اليوم المكانة الرفيعة التى كانا يشغلانها منذ جيل أو جيلين ، وهى المكانة التى ما زالت تشغلها الصناعة فى أوربا فى الوقت الحاضر . ولهذا أصبحت الصورة التى تعلق بذهن الأوربى العادى عن الولايات المتحدة تختلف كل الاختلاف عن حقيقة الأمر فى تلك البلاد فى الوقت الحاضر .

والحق أن المسألة لا تقف عند هذا الحد ، لأن التغيرات التى حلت

بالحياة الأمريكية ونظامها الاقتصادى ليست مفهومة على وجهها الصحيح حتى لغالبية الأمريكيين أنفسهم ، فان آراءهم فيما يتعلق ببلادهم تتركز فى ناحية أو فترة معينة وبخاصة اذا احتدم النقاش بينهم . فعندما يتحدث الأمريكى مثلا عن « الأسلوب الأمريكى فى الحياة » فانه فى الغالب يشير الى ناحية طيبة من الحياة كما كان يعرفها فى عهد الطفولة ، وكلما تقدمت به السن ، كانت الصورة العالقة بذهنه أبعد ما تكون عن الواقع ، ولهذا كان من المصلحة أن نوضح أهم التغيرات التى أدخلت على هذه الصورة العالقة بأذهان الأمريكيين حتى تصبح أقرب الى الحقيقة الواقعة .

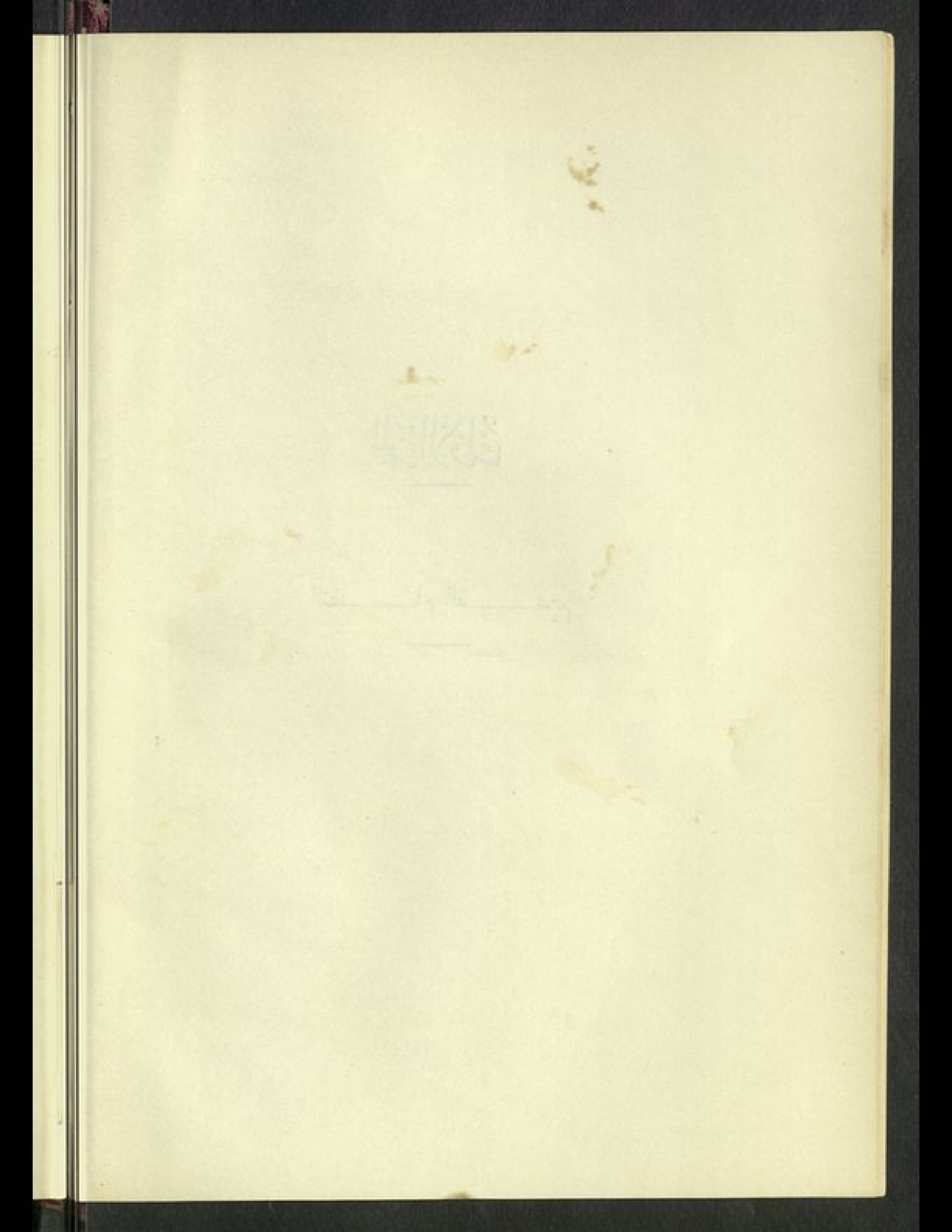
ولا شك أن ما سوف أذكره فى هذا الكتاب ليس كله مما يسرّ ، فما زالت هناك مآس ومتاعب كثيرة ، قائمة حتى اليوم ، ولا يمكن بحال أن يقال ان أمريكا قد بلغت حد الكمال ، فانها لاتزال تتعثر فى البحث عن الوسائل التى تتقى بها الانهيار الاقتصادى ، أو ما هو أدهى منه ، ألا وهو الانهيار الحربى . ومع ذلك فان هذا الكتاب فى رأيى يسرد رواية مشجعة . ففى هذه الأزمنة المليئة بالقلق والمتاعب ، نستطيع أن نتلمس الثقة والشجاعة ، اذا تذكرنا أن الأيام السعيدة الماضية التى يحنّ اليها الكثير من الناس ، لم تكن سعيدة فى الحقيقة ، وأننا نعيش رغم عويل المتشائمين ، فى عصر تقدم ونهضة ، وأن هذا العصر — رغم تلبد الغيوم فى جو السياسة الدولية — عصر تفاؤل وأمل .

٢٤ فبراير ١٩٥١ .

فردريك لويس ألن

الجزء الأول

النظام القديم



الفصل الأول

مطلع قرن جديد

— ١ —

فى صبيحة أول يناير سنة ١٩٠٠ ، كان أهل نيويورك يمارسون رياضة الانزلاق فى حديقة فان كورتلاند ، وبعد قليل بدأ الثلج يتساقط ، ولكن تزايد برودة الطقس لم يخفف من حماسة الجماهير التى احتفلت فى الليلة السابقة فى طريق برودواى ، باستقبال مستهل السنة الأخيرة من القرن التاسع عشر ، أو مطلع القرن العشرين .

وقد سادت روح التفاؤل فى المقال الافتتاحى لصحيفة نيويورك تايمز ، فى عددها الصادر فى أول يناير اذ جاء فيه « ان عام ١٨٩٩ كان عام المدهشات والأعاجيب .. عام الاعجاز الحقيقى فى الأعمال والانتاج .. وقد يكون من السهل أن نتحدث عن الأثنى عشر شهرا المنصرمة كحقبة من الزمن حملت لواء التقدم ، لولا ما نشعر به من يقين أن عام ١٩٠٠ سوف يضرب الرقم القياسى فى التقدم . والواقع أن مطلع العام الجديد ، يبشر بالاشراق العظيم والتفاؤل الذى لا حد له » .

أما فى حى الأثرياء فى نيويورك ، فقد كان جون بيربونت مورجان John Pierpont Morgan يجلس وحيداً فى مكتبته الفخمة ، يلعب الورق ويستقبل العام الجديد ، وهو الرجل الذى كان يدير أكبر مؤسسة مصرفية فى العالم ، ويتمتع بأعظم نفوذ فى شئون المال والتجارة بأمريكا ، وكان منزله الضخم القائم على ناصية طريق ماديسون وشارع ٣٦ ، مثلا أعلى للفخامة والترف .

ولم يكن مورجان يدرى أنه خلال الاثنى عشر شهرا التالية ، سوف

يشترى الكثير من الصور الجميلة والكتب النادرة والمخطوطات القيمة ، أثناء رحلته القادمة الى أوربا ، وأنه سوف يشـيد بجوار منزله قاعة للرقص ، تتسع لألفين وأربعمائة مدعو لحفل قران كريمته . ولم يكن يعرف أيضاً أنه سوف يبدأ المفاوضة مع أندرو كارنجى Andrew Carnegie لتكوين شركة الولايات المتحدة للصلب United States Steel Corporation كى تصبح أكبر مؤسسة صناعية عرفها العالم حتى ذلك الوقت . وقد كان أندرو كارنجى هذا رجلا ضئيل البنية ، لامع الشهرة ، ومسيطرا على صناعة الصلب ، وأربى دخله عام ١٩٠٠ على ثلاثة وعشرين مليونا من الدولارات كانت غير خاضعة لضريبة الدخل .

ولم يكن مورجان قادرا على أن يتنبأ بشىء من ذلك ، بينما كان يصنف أوراق اللعب بين يديه ، ولكنه على أى حال كان راضى النفس ، قرير العين وقد وصف مترجم حياته وزوج ابنته فيما بعد ، حالته فى ذلك المسـاء بالذات ، يوم ٣١ ديسمبر سنة ١٨٩٩ ، بما يأتى :

« كان منزل المستر مورجان حيث أراده أن يكون ، منسجما مع مشربه وأسلوبه فى الحياة ، وكان هو وزوجته يتمتعان بصحة جيدة ، وكريمتاه الآنستان لويزا وآن يعيشان معهما فى المنزل ، وكان جميع أبنائه المتزوجين ، وكذلك أحفاده ، ينعمون بصحة طيبة وسعادة موفورة ، وكان أصدقاؤه يقيمون على مقربة منه ، والأفراد الذى يختلط بهم فى حياته الاجتماعية من طرازه ، كما كان رجال المصارف والأعمال الذين كان يتصل بهم ، يعتنقون نفس المبادىء ووجهات النظر التى كان يعتنقها ، وكانت الحياة فى مدينة نيويورك تغرى بالاقامة فيها ، حيث تربط أهليها وشائج الصداقة والمودة واحترام الجوار » .

غير أن مئات الآلاف من سكان نيويورك كانوا لايرونها مدينـة « تغرى بالاقامة فيها » ، فقد كانت الأحياء الشرقية القريبة من الميناء ، مرتعا للبؤس والفقر والقذارة الى حد يصعب تصوره الآن . وفى كثير من المدن الصناعية الأخرى ، كانت عائلات المهاجرين تعيش فى مثل هـذه

الحالة أو مادون ذلك ، كما شهد بذلك الكاتب أبتون سنكلر Apton Sinclair وهو يصف فى دقـة وأمانة ، حالة البولنـديين واللتوانيين والسلوفاكيين الذين كانوا يعيشـون فى منطقة الحظائر بشيكاغو ، فى أوائل القرن العشرين ، اذ قال :

« ان هؤلاء المهاجرين الذين دفعهم الظلم والجهل فى أوربا الى ترك بلادهم ، تعرضوا للقضاء المبرم فى أمريكا ، بسبب ما لحقهم من اهمال وعدم اكتراث ، فقد كانوا ضحية المحتالين من رجال السياسة والأعمال ، وفشلوا فى الحصول على حقوقهم حتى على أيدى القضاء الذى كان لا يعترف لهم بحق . ولم يكن أحد يعنى بأمر أطفالهم ، عنـدما كانوا يموتون غرقا فى مياه البرك الآسنة الكريهة الرائحة التى كانت تحيط بأكواخهم الحقيرة ، أو يكترث ببناتهم عندما كانت الضرورة تدفعهن الى احتراف الدعارة ، ولم يكن أحد يحرك ساكناعندما كان أبناؤهم يسقطون فى المراجل المليئة بالسوائل فى درجة الغليان ، رغم أن سقوطهم كان يرجع الى اهمال أصحاب المصانع وعدم توفير وسائل الوقاية الكافية لهم » .

وخلاصة القول « أن أحدا لم يكن يكترث أو يبالى » ، فما هو تعليل ذلك ؟ الواقع أن ذلك العصر كان عصر تسامح وعدم اكتراث ، فمنذ انتهاء فترة الكساد الذى ساد فى أواخر القرن التاسع عشر ، هفتت أصوات الاحتجاج على شدة الفوارق بين الطبقات فى الولايات المتحدة وأصبح الأغنياء والمترفون يشعرون بالرضا والتفاؤل بالمستقبل ، كما يستدل على ذلك من العبارة التى سبق أن أوردناها عن ترجمة حيـاة بيربونت مورجان ، والتى تنطق بماكان ينعم بهالمترفون ورجال المصارف من دعة وراحة بال .

ولقد كان مورجان يتطلع فى ثقة الى عصر يسوده الاستقرار وحسن الادراك ، وكان المقصود بذلك أن يستخدم القادةالسياسيون نفوذهم لمنع انتشار المساواة فى كل ما يتصل بأعمال الحكومة،وكذلك منع السياسيين من الاشراف على الأعمال التجارية والصناعية ، حتى تظل تلك الأعمال

خاضعة لرجال المصارف من أمثاله ، وهم رجال المبادىء والشرف والثراء، ممن يختلط بهم على الدوام فى أنديته المفضلة .

ولو عرف مورجان ما سوف يشهده النصف الأول من القرن العشرين من تغيرات هائلة ، لامتلأت نفسه دهشة وحسرة ، فقد كان مقضيا أن تكون أمريكا فى سنة ١٩٥٠ مختلفة كل الاختلاف عنها فى سنة ١٩٠٠ ، ومخالفة أيضا لكل ما كان يدور بخلده من آراء ونبوءات ، ولكنها مع ذلك أصبحت دولة تجمع بين الانتاج فى أوسع نطاقه ، وبين توزيع الثروة والرخاء على أبعد مدى عرفه العالم حتى اليوم .

ولكى نفهم طبيعة ما حدث من تغير كبير ، وما وصل اليه من مدى بعيد ، يجمل بنا ان نعود الى عام ١٩٠٠ ، لننظر حولنا وندرس الحالة على طبيعتها ، وظروف معيشة الأفراد فى ذلك العهد .

— ٢ —

لو استطاع الانسان أن ينظر بعين الوقت الحاضر ، الى أية مدينة أمريكية فى سنة ١٩٠٠ ، لكان أول ما يلفت نظره كثرة الخيول الموجودة فى الطرقات ، ذلك لأن عدد السيارات المرخص لها فى الولايات المتحدة بأكملها فى سنة ١٩٠٠ ، كان لا يزيد على ١٣٫٨٢٤ سيارة (بالمقارنة الى ٤٤ مليون سيارة فى سنة ١٩٥٠) . وكانت السيارات نادرة الا فى المدن الكبيرة ، وبخاصة فى الأحياء الغنية منها . ولقد كان الناس يعتقدون فى ذلك الوقت أن السيارة هى احدى وسائل اللهو للأغنياء ، ولم تكن للأغنياء فحسب ، بل للخاصة منهم وهى المغرمة بالمخاطرة والتجديد ،والتى تجد لذة فى استخدام آلة قد تعرضهم الى التهلكة فى أى وقت ، لأن الطرق الممهدة كان لاوجود لها فى خارج المدن ، كما كانت « الجراجات » ومحطات البنزين غير موجودة بطبيعة الحال ، مما كان يستلزم من سائق السيارة أن يكون قادرا على اصلاحها أيضا اذ اقتضت الحال .

ومن الصعب علينا اليوم أن نتصور كيف كان بعض الجماعات متباعدا

عن بعضها ، عندما كانت كل وسائل الانتقال لاتعدو السكك الحديدية والخيول والعربات ، وعندما كانت التليفونات نادرة جدا ، والاذاعة غير معروفة . ومن ثم كانت المدينة التى لاتقع على خط حديدى بعيدة حقا عن العمران ، فلا عجب اذا أن كل منطقة وكل مدينة وكل مزرعة ، كانت أكثر اعتمادا على امكانياتها الخاصة من حيث الانتاج والشئون الاجتماعية ووسائل التسلية منها فيما بعد . والواقع أن الولايات المتحدة فى ذلك الوقت كانت — بسبب تأخر وسائل المواصلات — بلادا مترامية الأطراف متباعدة الآفاق .

ولا عجب أيضا أن الغالبية العظمى من الأمريكيين ، كانت أقل من خلفائهم شعورا بالقلق وعدم الاستقرار ، ذلك الشعور الذى ينشأ من تدافع العوامل السياسية والاقتصادية والدولية بدرجة لا يستطيع الشخص العادى أن يسبر غورها أو يصمد أمامها . ولقد كانت الآفاق ضيقة ومحدودة فى ذلك الوقت ، اذ كان الناس يعيشون كأفراد وأسر وجماعات ، بين من يعرفونهم من الأفراد الذين كانوا على شاكلتهم . وكان نجاح الفرد أو اخفاقه أكثر اعتمادا على الظروف والملابسات المحيطة به ، مما كان فيما بعد . وكان شعوره أقل كثيرا من شعور أبنائه وأحفاده ، بأن مصيره بل وحياته متوقفان على ما يصدر من قرارات فى واشنطن أو برلين أو موسكو ، وهى القرارات التى لا تدخل فى نطاق ادراكه أو تأثيره بأى حال . والخلاصة أن العالم من حوله كان غير خاضع لمشيئته ورغباته ، ولكنه كان مفهوما لديه على الأقل .

— ٣ —

واذا عدنا الى ما يلحظه المشاهد للحياة فى أية مدينة أمريكية سنة ١٩٠٠ — لو نظرنا اليها بعين الوقت الحاضر — لوجدنا أن الملاحظة الثانية التى تسترعى انتباهه هى ملابس النساء . فقد كانت جميع السيدات فى المدن ، يرتدين الملابس الطويلة التى تصل فعلا الى سطح الطريق وتكنسه

من وقت لآخر ، مما يدعو الى تمزق أذيالها وتلوثها ، اذا لم تعمد صاحبتها الى رفعها عن الأرض . والواقع أن السيدة فى سنة ١٩٠٠ ، كانت ترتدى قدرا كبيرا من الثياب يمتد من « الياقة » الملتفة حول عنقها الى أخمص القدم، وحتى الملابس الريفية ، بل والملابس المستخدمة فى الرياضـــة للجولف والتنس ، كان يشترط فيها أن تصل الى مايقرب من سطح الأرض . أما القبعة الصلبة الواسعة ، فكان لامفر من ارتدائها على الدوام .

وفى جميع فصول السنة ، كان على المرأة أن ترتدى طبقات تلو طبقات من الثياب ، وكان مشد الخصر « الكورسيه » فى ذلك الوقت سجنا مخيفا للجسد ، أدى الى تشويه شكل الجسم واخراجه عن طبيعته .

أما فيما يتعلق بالرجال ، فكانت ملابسهم بدورها أكثر تمسكا بالتقاليد وأبعد عن التحرر مما هى عليه فى الوقت الحاضر ، فقد كانت الياقة عالية وصلبة ، وكان رجل الأعمال مكلفا بأن يرتدى حلة تشتمل على سترة ذات ثلاثة أزرار ، وصديريا ، ولا يجوز أن يتخلى الانسان عنه فى أى وقت ، وبنطلونا ضيقا ، وتحت كل ذلك قميص منشى . أما اذا كان الرجل من رجال البنوك أو من مديرى الأعمال ، فكان عليه أن يرتدى سترة سوداء طويلة «فراك» وقبعة حريرية مرتفعة، الا فيما بين ١٥ مايو و ١٥ سبتمبر، اذ سمحت التقاليد بارتداء قبعة صلبة من الخوص ، أو قبعة بنما للأثرياء. وكان من غير المعقول للرجل الذى يهتم بحسن هندامه ، أن يسمح لنفسه بالخروج من غير قبعة ، الا أثناء النزهات الريفية .

ولقد كانت هذه الثياب التى لا ترحم — للرجال أو النســاء على السواء — تنم عن العلاقات التى تربط بين الجنسين ، فالمرأة المثالية اذ ذاك ، كانت هى المرأة المحافظة ، التى التفت لا بالحرير والدمقس فحسب، بل بالبراءة والحشمة أيضا . أما الرجل — سواء أكان آية فى الاستقامة أم مبالغا فى الاستهتار — فقد كان شديد الحرص فى المحافظة على سمعة فتياته ، وصيانة حرمتهن وكرامتهن . واذا خاطرت الفتاة غير المتزوجة بالخروج ليلا ، فقد قضت التقاليد ألا تخرج بمفردها . وفى هذا الصدد ،

سجل جيمس و . جيرارد James W. Gerard شهادته عن صرامة تلك القاعدة التى خضع لها المجتمع فى نيويورك فى ذلك الحين ، فقال بعد أن أدركته الشيخوخة : « اذا خيل الىَّ عندما كنت فى سن الثلاثين أن أدعو فتاة لتناول العشاء معى بمفردها ، فقد كان نصيبى ولا شك أن أركل بالأقدام من منزلها ، واذا تجرأت على أن أعرض عليها مشروبا روحيا « كوكتيل » ، فقد كنت أطرد بلا ريب من المجتمع الأمريكى ، بسبب ما ارتكبته من حماقة ووقاحة » .

وطبيعى أن فكرة الفتاة المصونة كانت مما يصعب الاستمساك به فى بلد كان ٢٠٫٤٪ من نسائه يعملن لكسب قوتهن ، وكانت هذه الحقيقة المؤلمة سببا فى ازعاج الكثيرين من المهتمين بشئون الآداب والأخلاق . ذلك لأنه اذا كان هناك عدد متزايد من النساء المشتغلات بكسب العيش، فقد كان مفهوما أنهن ضحايا الظروف المالية التعيسة ، وأن آباءهن المساكين كانوا عاجزين عن اعالتهن ، وكان الأمل معقودا بألا يؤدى الاختلاط بينهن وبين من لاخلاق له من رجال الأعمال ، الى تلويث شرفهن وطهارتهن . أما فى حالة النساء اللائى قضت ظروفهن بأن يشتغل الملايين منهن فى المتاجر والمصانع ، بمرتبات وصلت من القلة الى ٦ أو ٨ دولارات فى الأسبوع — وهذا ما يعادل من ١٨ الى ٢٥ دولارا فى الأسبوع فى سنة ١٩٥٠ — فقد كان مفهوما أنهن معرضات الى مغريات شديدة تدفع بهن الى مواطن الزلل .

وفضلا عن ذلك فقد كان هناك عدد لا يحصى من الخادمات بالمنازل ، وكن فى الغالب من المهاجرات أو الزنجيات ، مما كان يحمل على الظن أنه ليس لهن أمل فى مصير أسعد من ذلك . وعلى أية حال ، فقد كن معرضات لاغراء محدود ، نظرا لقلة ساعات الفراغ التى كن يستمتعن بها .

واذا قضت الظروف السيئة على فتاة من أسرة كريمة بأن تعمل لكسب العيش ، فقد كان العمل بالتدريس أو بتعليم الموسيقى أو بالتمريض ، يعتبر عملا مناسبا لها ، واذا كانت لديها المواهب المواتية ، فقد تلقى نجاحا

ككاتبة أو فنانة أو مغنية ، بل قد تصبح من مغنيات الأوبرا . وقد كان البعض منهن يعملن فى المسارح ، ولذا يتعرضن لخطر كبير يقضى بهبوطهن فى نظر المجتمع ، لما كان معروفا عن الممثلات بالمسارح من قلة التمسك بالفضيلة . وكان هناك قليلات من اللائى طرقن أبواب مهن أخرى كالطب مثلا ، تدفعهن حماسة ملتهبة تتغلب على كل مقاومة ، ولكن المجتمع كان ينظر اليهن فى الغالب ، على أنهن بعملهن هذا أثبتن أن بهن شذوذا خلقيا لخروجهن عن زمرة النساء . وكان من أهم الحجج التى تعارض اختيار أمثال هؤلاء الفتيات لمهنة كسب العيش ، أنهن كن يسببن بذلك حرجا لا مبرر له لآبائهن ، فقد يتوهم البعض أن آباءهن عجزوا عن القيام بأودهن . وكان الرأى العام يعتقد أن خير وسيلة وأسلمها للفتاة فى مثل هذه الحالة ، هى أن تقبع فى دارها وأن تعاون والدتها فى الأعمال المنزلية وأن تنتظر مجىء « العريس » الملائم .

ومن المسلم به أن معدل الطلاق كان آخذا فى الارتفاع ، ففى سنة ١٩٠٠ كان هناك طلاق واحد لكل ١٢٫٧ زيجة ، وهذا أمر محتمل بالنسبة لما وصلت اليه الحال فى سنة غير عادية كسنة ١٩٤٦ حينما بلغ معدل الطلاق عقب الحرب مباشرة نسبة ١ الى كل ٢٫٦ من الزيجات . وكذلك بالنسبة الى سنة أخرى أكثر اعتدالا وهى سنة ١٩٤٩ ، حينما بلغ المعدل ١ الى ٤٫١ من الزيجات ، ولكن هذه الأرقام لاتعطى فكرة صحيحة عن حقيقة الحالة ، ففى سنة ١٩٠٠ كان المجتمع الأمريكى ينظر شذرا الى الطلاق ، ويعتقد أن الزواج قد يكون جحيما للزوجين ، ولكنه مع ذلك يجب أن يستمر وأن يدوم ، دون بحث عن وسيلة لانهائه أو الخلاص منه. هذا ما كان يقرره الرأى العام الأمريكى ويؤمن به .

وانك عندما تعود بناظرك الى الولايات المتحدة كما كانت فى سنة ١٩٠٠ ، فلا شك أنك سوف تلاحظ أن جميع المدن كانت أصغر حجما مما هى الآن ، وليس ذلك بالأمر المستغرب ، فقد كان مجموع سكان البلاد لا يزيد اذ ذاك عن نصف مجموعهم عام ١٩٥٠ . ولابد أنك

سوف تلحظ أيضا أن حقولا كثيرة كانت توجد حيث تقوم القرى فى الوقت الحاضر ، وأن قرى عديدة قد نمت فيما بعد الى حجم المــدن الكبيرة ، ولكن الأمر الذى سوف يلفت نظرك الى أبعد حد ، هو ماأصاب المدن وضواحيها من تضخم كبير فى هذه الحقبة القصيرة من الزمن .

ولا مشاحة فى أن قلة كثافة السكان فى غرب البلاد سوف تذكرك بأن مركز الثقل للصـــناعة والثقافة الأمريكية ، كان فى تلك الأيام أقــرب الى الشرق مما هو فى الوقت الحاضر . وحتى فى المدن الشرقية ، كنت تفتقد الكثير من المعالم المألوفة فى المدن الحديثة . ولنأخذ مثلا ناطحات السحاب ، فلقد كان أعلى مبنى فى البلاد كلها هو مبنى ايفنز سينديكات Ivins Syndicate Building الذى كان قائما فى شـــارع بارك رو Park Row بمدينة نيويورك ، اذ كان يتألف من ٢٩ طابقا تعلوها أبراج، وكان ارتفاع المبنى بأكمله ٣٨٢ قدما ، ولهذا كان الزائر لمدينة نيويورك لا يلاحظ أمرا غريبا على ارتفاع المبانى فيها . أما فى المدن الأخرى فقد كان المبنى الذى يبلغ عشرة أو اثنى عشر طابقا ، يعتبر مما يدعــو الى الدهشة والاعجاب .

ولم تكن الكهرباء فى ذلك الوقت تستخدم فى اضاءة طرقات المدن ، بل كان المنظر العادى الذى يراه الانسان وقت الغروب فى أية مدينة أمريكية ، هو ظهور العامل المنوط به اضاءة المصابيح ، حاملا سلما على كتفه ، ثم يسنده الى قائمة كل مصباح ، ويتسلقه ليشعل المصباح الغازى. وكذلك لم تكن الاعلانات المضيئة معروفة فى ذلك الوقت ، ولم يكن شارع برودواى فى نيويورك يستحق أن يلقب باسم الطــريق الأبيض العظيم Great White way كما هو فى الوقت الحاضر .

أما فيما يتعلق بوسائل النقل فى المدن ، فانه لم يكن قد تم انشاء غير طريق واحد من المواصلات الحديدية تحت الأرض ، وهو خط قصير فى مدينة بوسطن ، وان كان قد بدىء فى نيويورك سنة ١٩٠٠ بأعمال الحفر اللازمة لانشاء طريق مماثل له ، وكانت الوسيلة العادية لانتقال غالبية

سكان المدن الأمريكية ، هى عربات الترام ، التى كان صرير عجلاتها وهى تسير فى المنحنيات يعتبر فى نظر الرجل الريفى ، النغمة الحقيقية التى تنم عن المدنية الحديثة .

ولقد كان لكل مدينة ضواحيها السكنية ، وكانت هذه محدودة فى مساحتها بحسب مقدرة الرجل العادى على المشى من محطات السكك الحديدية أو الترام التى تربط المدينة بالضواحى . وكانت الضواحى مكونة فى الغالب من صفوف طويلة من المساكن التى تقطن كلا منها أسرة واحدة، أو أسرتان على الأكثر ، ويفصل بعض المساكن عن بعضها مساحات من الأراضى الزراعية أو الأراضى المقفرة المعدة للبناء . كما وجدت أحيانا بعض المنازل المنسقة التى تحيط بها الحدائق والتى تخصص لسكنى الأثرياء. وكان أغلب سكان تلك الضواحى من المشتغلين فى المدن المجاورة ، الذين يحملون تذاكر الاشتراك فى الخط الحديدى الذى يربطهم بالمدينة ، لأنه كان وسيلتهم الوحيدة للذهاب الى عملهم والعودة منه فى كل يوم . غير أن هذه الضواحى كانت تختلف اختلافا كبيرا عما آلت اليه حالتها فى عصر السيارة . فلم يكن من المستطاع فى ذلك الوقت أن يقيم المرء على مسافة تبعد أكثر من نحو ميل من الخط الحديدى أو خط الترام ، الا اذا كان ممن يتقنون السير على أقدامهم مسافات طويلة ، أو كان من الثراء بحيث يمتلك عربة وحصانا ، ويستخدم حوذيا يستطيع أن يستقبله كل مساء عند المحطة ويعيده اليها كل صباح . ولكل هذا كانت الضواحى صغيرة المساحة ، ومحاطة بالحقول الفسيحة . ولا شك أن المتنقل يوميا من الضاحية الى المدينة فى سنة ١٩٠٠ ، لم يكن يستطيع أن يتصور أن الحقول والغابات التى كان يتنزه فيها خلف مسكنه فى أيام الآحاد ، سوف تتحول خلال جيل واحد الى مئات من المساكن التى يسهل الوصول اليها كلها فى عصر السيارات .

ولقد كانت أمريكا تحتوى فى ذلك الوقت على مساحات فسيحة للرياضة والتسلية ، فهناك آلاف الأميال من السواحل ، ومئات من

البحيرات والأنهار ، وعدد كبير من الجبال التى يستطيع الانسان أن يتسلقها ويجوب أرجاءها كيفما أراد . وكانت هناك الفرص غير المحدودة لاقامة المخيمات والمعسكرات والاستحمام وصيد الحيوانات البرية والأسماك ، دون حاجة الى استئذان أحد ، طالما توافرت لدى الانسان الوسائل اللازمة لذلك . وقد ظهر فى ذلك الوقت عدد من الأفراد البعيدى النظر والمهتمين بالمحافظة على جمال الطبيعة ، وكان همهم لفت نظر الرأى العام الأمريكى الى أنه منذ أجيال عديدة كان الشعب يتلف جمال الطبيعة فى الوقت الذى يستغل فيه خيراتها ، اذ كانت الغابات تقطع بغير حساب ، والأراضى الزراعية يساء استخدامها وتجهد فى فلاحتها ، والثروة الطبيعية تنهب يمينا وشمالا ، وكان هؤلاء يطالبون بالابقاء على مساحات شاسعة بحالتها الطبيعية ، لكى تكون متنزهات شعبية دون المساس بما تحتويه من ثروة طبيعية ، ولكن أغلب الناس لم يقيموا لتلك النداءات والتحذيرات وزنا ، اذ كانوا يرون أن القضاء على غابة واحدة لن يحول دون الانتفاع بغابات كثيرة أخرى ، واذا استولى أهل قرية على جزء من الساحل،فقدكانت هناكسواحل أخرىيمكن أن يستمتع بها السباحون ، ويعلل ذلك بأن خيرات الطبيعة بدت للناس كأنها كنز لاينفد . وقد وصف الكاتب ستيوارت تشيس Stuart Chase بعد ذلك بسنوات ما كانت عليه عقلية الشعب فى ذلك الوقت ، وشبهها بحالة الرجل فى احدى الخرافات المشهورة (Mad Hatter) الذى كان اذا تلوث منه قدح من الشاى انتقل الى استخدام غيره دون الاهتمام بتنظيف ما لديه من أقداح.

وكان سكان الريف فى ذلك الوقت يبدون لأبناء المدنكشعب غريب عنهم ، ويخالفهم فى كل شىء الا فى اللغة ، ولم لا ؟ ففى الوقت الذى لم توجد فيه السيارات ولا آلات استقبال الاذاعة ولا نظام تسليم البضائع لسكان الريف بدون مقابل ، ولا المجلات الشعبية الواسعة الانتشار ، وفى الوقت الذى كان من المتعذر فيه للكثير من سكان الريف الوصول الى المدارس على اختلاف أنواعها ، والانتقال الى المدينة الا فى فرص

نادرة ، كان أهل الريف أشبه بالمسجونين المنعزلين عن العالم . ومع هذا فقد كان العالم الذى يعيشون فيه أقرب الى ادراكهم وأكثر هدوءا واستقرارا من ذلك العالم الذى عرفه أحفادهم فيما بعد ، ولكنه مع ذلك كان عالما ضيقا محدودا الى درجة يصعب تصورها فى الوقت الحاضر .

— ٤ —

واذا تابعت أبحاثك عن الولايات المتحدة كما كانت فى سنة ١٩٠٠ ، فسوف تعتريك الدهشة العظيمة لما تلمسه من ندرة كثير من السلع والخدمات التى تعتبر عادية بل وضرورية فى الوقت الحاضر ، أو من عدم وجودها على الاطلاق .

ولنأخذ مثلا المعدات الكهربائية وما تؤديه الكهرباء من خدمات كثيرة ، فقد كانت أغلب مساكن الأغنياء فى ذلك الوقت لاتستخدم الكهرباء على الاطلاق ، غير أنه بدىء بادخال النور الكهربائى فى المساكن التى كانت تبنى وقتذاك ، كما بدأ الاستغناء عن غاز الاستصباح الذى كان يوجد فى العادة خوفا من انقطاع التيار الكهربائى . أما مساكن الغالبية العظمى من الشعب ، فقد كانت تضاء بالغاز فى المدن وبمصابيح البترول « الكيروسين » فى الريف .

ولم يكن هناك بطبيعة الحال آلات كهربائية لغسل الملابس أو ثلاجات أو غيرها من المعدات الكهربائية التى تستخدم فى حفظ المأكولات فى درجة برودة شديدة . أما الفلاحون والمصيفون فى الريف من سكان المدن فقد كان لهم أسلوبهم الخاص فى التبريد ، اذ كانوا يحتفظون بقطع ضخمة من الثلج فى أماكن خاصة ، ويغطونها بطبقة سميكة من خشب النشارة ، وكانت هذه القطع نفسها تؤخذ فى فصل الشتاء من البحيرات أو الأنهار المتجمدة فى المناطق المجاورة ، أو تستورد بوساطة السفن التى تنقل البضائع من الشمال الى الجنوب . واذا احتاج الانسان الى قطعة من الثلج ، كان عليه أن يصعد الى مخزن الثلج ويزيل الطبقات

من خشب النشارة ، حتى يصل الى قطعة مناسبة فى الحجم ، ثم يحملها بكماشة خاصة الى الثلاجة الموجودة بمطبخ المنزل . أما فى المدن ، فكان لشركات الثلج عربات خاصة تمر يوميا على المساكن حيث يضع بائع الثلج قطعة ضخمة فى ثلاجة المشترى . ولقد كانت عربات التبريد تستخدم على الخطوط الحديدية اذ ذاك فى حدود ضيقة ، لأن التجارة الواسعة النطاق فى الخضر والفواكه ، والتى تستلزم النقل بالسكك الحديدية مسافات بعيدة ، كانت حينذاك فى مهدها . وعلى هذا كان نظام التغذية فى أمريكا مما يثير الفزع اذا قيس بما طرأ عليه من تقدم فى الوقت الحاضر . ففى أغلب أنحاء الولايات المتحدة ، كان الناس محرومين من الخضراوات والفواكه الطازجة فترة طويلة من السنة ، تمتد من نهاية الخريف الى نهاية الربيع ، وكانوا فى هذه الفترة يستهلكون مقادير كبيرة من النشويات كالبطاطس والخبز والفطائر ، بكميات لا يجرؤ أحد على استخدامها الآن.

وفى بداية القرن الحالى ، كانت أغلب مساكن الأغنياء فى المدن مجهزة بأنابيب المياه وما يتبعها من أحواض الاستحمام ودورات المياه ، الا أن عددا قليلا من مساكن الأثرياء القائمة فى الأحياء الارستقراطية من المدينة ، كانت لاتشمل سوى دورة مياه واحدة . أما سائر الشعب من العمال والمزارعين ، فما كان يدور بخلدهم أن يتمتعوا بمثل هذه النعم ، بل ان منازل الأغنياء القائمة بعيدا عن مجارى المدن وأنابيب مياهها ، كانت كذلك خلوا من دورات المياه ، وكان القوم يغتسلون بحجرات النوم فى أوعية تستخدم خصيصا لذلك ، ولقد كان فى مقدور الزائر اذا دفع أجرا اضافيا ، أن يستأجر حجرة ملحقا بها حمام خاص فى بعض الفنادق الفاخرة . واستمرت هذه الحال الى أن جاء الزويرث م. ستاتلر Ellsworth M. Statler فأقام سنة ١٩٠٧ أول فندق فى مدينة بفلو يستطيع كل نزيل فيه أن يحصل بأجر معتدل على غرفة ذات حمام خاص .

ولا شك أن المرء الذى تعود على مستوى المعيشة فى القرن العشرين يكون معذورا اذا اعتقد أن النظافة البدنية لم تكن تلقى عناية كافية فى

ذلك العهد ، الذى لم يكن يعرف سوى حوض الاستحمام المصنوع من الحديد الزهر . والواقع أن الأمريكيين كانوا لا يستحمون بالماء الدافىء الا مرة واحدة فى الأسبوع فى مساء كل سبت ، وذلك بسبب عدم توافر أماكن الاستحمام .

وكانت عادة مضغ التبغ منتشرة انتشارا كبيرا بين أفراد الشعب ، وهى من غير شك عادة تلفت النظر فى قذارتها وقبحها ، وكان الناس فى المدن الشرقية لا يستسيغون البصق على مرأى من السيدات ، ولكن المبصقة كانت جزءا لا غنى عنه من أثاث حجرة كبار الموظفين والاداريين، وعلى مقربة دائما من مكاتبهم . أما فى الغرب وفى الجنوب ، وبخاصة فى المدن الصغيرة ، فقد كان البصق حقا معترفا به للرجل ، وكانت المباصق متوافرة فى كل مكان .

ولعل تناقص هذه العادة الأمريكية القديمة منذ سنة ١٩٠٠ يرجع قبل كل شىء الى ما أدخل على استخدام التبغ من تعديل كبير ، ففى تلك السنة، عندما كان سكان الولايات المتحدة يبلغون أقل من نصف عددهم فى الوقت الحاضر ، كان استهلاكهم للفائف التبغ الكبيرة «السيجار» وتبغ الغليون والتبغ المخصص للمضغ أكثر منه الآن. أما لفائف التبغ الصغيرة «السجاير» فكان ما يستهلك منها يقل مائة مرة عنه فى الوقت الحاضر (فى سنة ١٩٠٠ صنعت الولايات المتحدة ٤ بليون سيجارة أما فى سنة ١٩٤٩ فقد أنتجت ٣٨٤ بليونا منها) .

وكانت المسرات « التليفونات » فى سنة ١٩٠٠ نادرة ومتعبة ، اذ لم توجد الا فى المكاتب ومساكن الأغنياء ، وهم الذين أغرموا باستخدام كل جديد من الآلات المستحدثة ، ولم يزد عدد المسرات فى الولايات المتحدة كلها عن ١٫٣٣٥٫٩١١ بينما بلغ عددها فى سنة ١٩٥٠ ٤٣٫٠٠٠٫٠٠٠ .

أما فيما يتعلق بمعدات الاتصال بالجماهير ، وهى المعدات التى أعطت الأمريكيين فيما بعد ، على اختلاف طبقاتهم وأحوالهم ، معلومات وآراء

وهوايات متشابهة ، فانها كانت فى الغالب غير معروفة فى سنة ١٩٠٠ ، اذ لم يظهر الراديو الا بعد ذلك بعشرين عاما ، واستغرق ظهور التليفزيون خمسة وأربعين عاما ، الا لأقلية ضئيلة من المحظوظين . أما فيما يتعلق بالسينما ، فقد عرضت بعد الأفلام البدائية فى قليل من صالات العرض الخاصة أو فى المسارح الهزلية ، غير أن أول قصة سينمائية واسمها «السرقةالكبرى بالقطار»لم تظهر الا سنة ١٩٠٣ . وبالنسبة الى المجلات لم تكن هناك اذ ذاك مجلة واحدة يزيد عدد ما يباع منها على المليون .

ولكل هذا ، كانت المعلومات والآراء التى اعتنقها النـاس فى كل الأقاليم ، وفى مختلف طبقات المجتمع محدودة الى درجة كبيرة . وقد يكون صحيحا أن صائد الأسماك فى ولاية مين Maine والمزارع فى ولاية أهايو ورجل الأعمال فى مدينة شيكاغو Chicago كانوا يستطيعون الى حد ما أن يتبادلوا الرأى فيما بينهم فى المسائل السياسية ، ولكن نظرا الى عدم وجود المقالات المسجلة التى ينشرها مشهورو الكتاب فى كثيرمن الصحف وفى مختلف أنحاء البلاد فى نفس الوقت ، فان المعلومات التى يدلى بها المتحدثون فى المسائل السياسية ، كانت بطبيعتها مقصورة على ما اطلعوا عليه فى صحفهم المحلية . ونظرا الى عـدم وجود الراديو والجـرائد السينمائية الناطقة ، فمما لاشك فيه أن أحدا من المحدثين الذين سبقت الاشارة اليهم — مع جواز استثناء رجل الأعمال من شيكاغو — لم يسمع قط بأذنيه صوت أحـد من مشهورى السياسيين مثـل وليم جننجـز بريـان William Jennings Bryan الذى عرف بفصاحته وعذوبة صوته . ولم يكن هناك ذلك الرباط من المعرفة المشتركة بين الناس كما هو موجود فى الوقت الحاضر ، وهو الذى يجعلهم يتعرفون فورا على هارى ترومان Harry Truman كما يتعرفون على بوب هوب Bob Hope وفان جونسون Van Johnson وبتى هاتون Betty Hutton ، ويشتركون فى الضحك على محادثات جاك بنى Jack Benny مع زميله روتشستر Rochester ، ويعرفون صوت بنج كروزبى Bing Crosby فى اللحظة

الأولى التي يسمعونه فيها على موجات الأثير .

واذا كانت أدوات الاتصال بالجماهير غير موجودة فى ذلك الوقت ، فان هذا يقال أيضا عن كثير من المنظمات الاجتماعية التى يعتبرها الأمريكيون اليوم مما لا يمكن الاستغناء عنه . ذلك لأن أمريكا دولة قامت على الايمان بالفردية ، والاعتقاد بأن من حق كل شخص أن يعمل لنفسه مستقلا عن غيره ، ولذا لقيت صعوبة فى الاعتراف بما طرأ على المجتمع من تغير ، وبما حدث من الانتقال الى عصر يعتمد فيه بعض الأفراد على بعضهم الآخر ، وقد نتج عن ذلك أن تباطأت أمريكا فى انشاء المنظمات التى يستلزمها ذلك العصر . ولنأخذ مثلا لذلك الفرص الرياضية والتعليمية التى أتاحتها مدن الغرب لفتيانها ، فقد قضت التقاليد أن يبحث الصبية عن وسائلهم الرياضية الخاصة ، كأن يسبحوا فى البركة الصغيرة التى أحاطتها الخرافات الشعبية بميزات معينة ، وأن يلعبوا كرة القاعدة « البسبول Base Ball » فى الحقول ، ويصطادوا الطيور والأسماك وما شاكلها فى الغابات ومجارى الأنهار المجاورة . غير أن الصناعة الحديثة أخذت فى تلويث مياه الأنهار وبدأت الأراضى الفسيحة تتحول الى مناطق سكنية أو حقول زراعية ، ولذا أخذت الملاعب التى وهبتها الطبيعة والتقاليد للشعب فى التلاشى ، دون أن يظهر لها بديل .

وكذلك لم يكن هناك مكتبات عامة (الا اذا اعتبرت مكتبة المدرسة الثانوية الصغيرة من المكتبات العامة) ولم يكن هناك جمعية للشبان المسيحيين ، ولا منظمات للجوالة والكشافة ، ولا فرق موسيقية أو تمثيلية بالمدارس ... الخ ..

ويظهر أن من الخواص المميزة للحياة الأمريكية أن المجتمعات تتلكأ على الدوام فى أن تنشىء المؤسسات اللازمة لتطورها ونموها ، اذ من الجلى الواضح أن المدينة الأمريكية سنة ١٩٠٠ عجزت عن أن تعد نفسها لمواجهة مطالب الحياة فى ذلك العصر الصناعى الذى كان آخذا فى التقدم السريع .

— ٥ —

واذا انتقلنا الى بحث وسائل تنظيم الألعاب الرياضية فى ذلك الوقت، تبينت لنا قوة الظاهرة التى أشرنا اليها ، وهى التلكؤ فى مواجهة الموقف بما يقتضيه من درس واعداد . فقد كان من العسير على الشعب أن يتخلص من عقلية الحياة الماضية المليئة بالمفاجآت ، تلك العقلية التى حملته على ألا يستعد للأزمة الا بعد وقوعها ، وبعد أن تتبين معالمها ، كما تعذر عليه التخلص من العقيدة الراسخة بأن الفردية مذهب مقدس لا يجوز التعرض له ، ولهذا كان الشعب ينتظر من شباب أمريكا أن يسعى الى رياضته فى الفضاء حيثما وجد الى ذلك سبيلا ، وأن يمارس الصيد والقنص والسباحة وركوب الخيل واقامة المخيمات فى الهواء الطلق ، وأن يساهم فى أنواع الرياضة التى تستلزم المنافسة كالرماية وهى من ألوان الرياضة الرفيعة المحببة . ولقد كانت كرة القاعدة أقرب الألعاب الى قلوب الجماهير ، فكان يمارسها ملايين من الصبية فى ملاعب رملية صغيرة ، حتى اذا أتقنوها اشتركوا فى فريق المدينة لمنازلة فريق المدينة المجاورة . أما فيما يتعلق بالفتيات ، فقد قضت التقاليد بأنهن من ضعف البنية ومن الاحتشام بحيث لا يمكنهن الاشتراك فى أمثال تلك الألعاب الخشنة .

وقد أخذت الألعاب المنظمة فى الظهور سريعا بالمدارس والكليات ، ومثال ذلك كرة القدم الأمريكية وكرة القاعدة (وكان لهذه الأخيرة فى ذلك الوقت مكانة أعلى من مكانتها فيما بعد) والتجديف والسباق ، كما أخذت لعبة كرة القدم الانجليزية ولعبة لاكروس فى الظهور تدريجيا وبدرجة محدودة (كانت لعبة الباسكت بول غير معروفة الا لأقلية ضئيلة من الناس ، لأنها لم تظهر الا سنة ١٨٩٢) وكان الجولف والتنس فى طليعة أنواع الرياضة التى كان يمكن لغير الشبان أيضا المساهمة فيها ، وقد أخذ الكثيرون فى ممارسة لعبة البسبول وبدأ مئات الآلاف من الرجال والنساء فى التريض بالدراجات . ولا شك أن أهم ما كان يميز الرياضة فى تلك الأيام هو شدة تركزها فى المنطقة الشرقية ، واعتبار كونها

من المميزات التى يصعب الاستمتاع بها لغير الأغنياء .

فقد كان التنس مثلا لعبة تقوم فى الشرق دون غيره من الأقاليم ، ولذا كانت المباريات السنوية فى هذه اللعبة تعقد بطبيعة الحال فى مدينة نيـوبورت Newport التى كانت مصيفا للطبقات الأرستقراطية . وكذلك عرف الجولف فى شيكاغو وقت المعرض العالمى سنة ١٨٩٣ ، واشتملت كاليفورنيا على ما لا يقل عن عشرين ناديا من أندية الجولف ، ولكن أحسن اللاعبين من الهواة كانوا من الأغنياء القاطنين بالجـانب الشرقى من البلاد ، وكان أحسن المحترفين من الاسكتلنديين . غير أن الأمريكيين الذين لم يتأثروا بأذواق المدينة وألوان الترف فيها ، ظلوا ينظرون الى لعبة الجولف على أنها لعبة سخيفة ، وكان أى رجل من رجال الأعمال يستطيع أن يثير ضحك مستمعيه واعجابهم اذا أعرب عن أنه لا يفهم معنى لمطاردة كرة بيضاء صغيرة فى طول الملعب وعرضه .

وهناك أدلة عديدة ، على أنه فى بداية القرن الحالى ، كانت الألعاب الرياضية مركزة فى الشرق ، وكان الشعب ينظر اليها على أنها محاطة بهالة من الاستقراطية . ولم يحن الوقت بعد لمباريات التنس التى تعقد على ملاعب المجالس البلدية فى مدن عديدة ، ولا مباريات الجـولف على الملاعب العامة ، ولا اشتراك الفرق الرياضـية بالمدارس والكليات فى منافسات رياضية كبيرة تعقد فى ملاعب فسيحة ، ويحضرها عشرات الآلاف من المتفرجين ،وهو الأمر الذى لابد منه لاختيار فريق يمثل أمريكا كلها، ويشتمل على أحد عشر لاعبا من أبرز اللاعبين . ولم يحن الوقت بعد لتفوق أبناء كاليفورنيا فى مختلف الألعاب الرياضية ، أو اشتراك آلاف الفرق من لاعبى كرة القاعدة فى المدارس الثانوية ، حيث يساهمون فى مباريات تقام فى طول البلاد وعرضها ، كما لم يعرف بعد اهتمام عشرات الملايين من الرجال الأمريكيين ونسائهم بالاستمتاع بدحرجة الكرات الخشبية على الحشيش فى المساء ، كلما سمحت لهم الفرص بذلك .

الفصل الثاني

أبهة وثراء – للأقلية!

ان أكبر الفوارق بين الحياة الأمريكية سنة ١٩٠٠ وما آلت اليه بعد نصف قرن أو يزيد، تكاد تتركز فى أمر واحد ألا وهو تناقص البون بين الغنى والفقير، سواء أكان ذلك فى الدخل وأساليب المعيشة أم فى المركز الاجتماعى، فقد كان الفرق بين الغنى والفقير هائلا فى بداية القرن الحالى. ولعل مثلا واحدا يوضح لنا هذا الفرق على حقيقته، اذ سبق أن أشرنا الى دخل آندرو كارنيجى، فقد كان هذا الرجل يملك وقتئذ ٥٨٫٥٪ من أسهم شركة الصلب العظيمة المعروفة باسمه، وكان ربح هذه الشركة فى ذلك العام ٤٠ مليونا من الدولارات، ولذا كان نصيب كارنيجى فى تلك السنة يزيد على ٢٣ مليونا من الدولارات، غير خاضعة لضريبة الدخل، أما فى الخمس السنوات السابقة لذلك، أى من سنة ١٨٩٦ الى سنة ١٩٠٠، فكان متوسط دخله السنوى حوالى ١٠ مليونا من الدولارات، وهذا المبلغ لا يشمل ما كان قد حصل عليه من موارد ايرادية أخرى.

وفى الوقت الذى كان كارنيجى يستمتع بهذا الايراد العظيم الذى وضعه فى مصاف الملوك والأمراء، كان متوسط الدخل السنوى للعامل الأمريكى يتراوح بين ٤٠٠ و٥٠٠ دولار. هذا مع العلم بأن هذه الأرقام تدل على متوسط الدخل ولا تدل على النهاية الصغرى له [1]، وبالجملة

(١) لكى نفهم هذه الارقام على حقيقتها بالنسبة لسنة ١٩٥٠ يجب أن يؤخذ فى الاعتبار ما حدث من نقص واضح فى قوة الدولار الشرائية وهذا أمر يصعب تقديره على وجه التدقيق، فقد يقرر الاحصائيون =

فان الدخل السنوى لأندرو كارنيجى كان يزيد على متوسط دخل العامل الأمريكى بما لا يقل عن عشرين ألف مرة ، وهنا تظهر لك فداحة الفارق بين الغنى والفقر فى أمريكا فى ذلك الوقت . ولقد كان أندرو كارنيجى من أغنى الرجال فى ذلك العهد وكان هناك الكثيرون ممن يقدر دخلهم السنوى بالملايين ، ودل أسلوبهم فى العيش على ما كانوا ينعمون به من ثروة طائلة .

والآن فلندرس شيئا عن أسلوب معيشة أولئك الأثرياء ، وأول ما يلاحظ أنهم جميعا كانوا يبنون لأنفسهم قصورا فخمة لسكناهم ، ففى العشرين السنة الأخيرة من القرن التاسع عشر ، عندما قرر الكثير من أصحاب الملايين الأمريكيين أن أول واجب للرجل الثرى هو أن يبنى لنفسه قصرا يليق بالأمراء ، كانت عائلة فاندربلت هى التى وضعت ذلك المستوى الرفيع الذى اقتدى به بقية الأغنياء ، اذ أنها فى سنة ١٨٨٥ ، كانت تملك سبع قصور قائمة على مسافات متجاورة فى الجانب الغربى من الطريق الخامس بنيويورك ، وهو أشهر طرق المدينة .

ولقد صمم المهندس المعمارى ريتشارد موريس هانت Richard Morris Hunt قصرا لوليام ك . فاندربلت ، وكان القصر من

= أرقاما قياسية دقيقة لزيادة الأسعار ، غير أن طرق انفاق المال قد تغيرت كثيرا فى هذه الفترة ، كما أن السلع نفسها قد تغيرت تغيرا كبيرا – مما يتعذر معه أن يثق الانسان فى قيمة هذه الارقام القياسية . ولسهولة الفهم ، يجمل بنا أن نفترض أن الدولار سنة ١٩٠٠ كان يشترى ثلاثة أمثال ما كان يشتريه فى سنة ١٩٥٠ وهو أمر يقرب من الحقيقة ، وعلى هذا يكون متوسط الدخل السنوى للعامل فى سنة ١٩٠٠ معادلا لثلاثة أمثاله فى سنة ١٩٥٠ اى أنه يتراوح بين ١٢٠٠ و ١٥٠٠ دولار ، وهذه ارقام معقولة حتى بمعايير الوقت الحاضر . ولكنا اذا زدنا أجور العمال على هذا النحو ، فيجب عدلا أن نزيد أيضا ايراد أندرو كارنيجى ، وعندئذ يتبين أنه بالقياس الى القوة الشرائية فى سنة ١٩٥٠ كان ايراده يزيد على ٦٠ مليونا من الدولارات المعفاة من الضريبة ، وذلك بالنسبة الى سنة ١٩٠٠ ، والى أكثر من ٣٠ مليونا من الدولارات فى كل عام فيما بين سنة ١٨٩٦ و ١٩٠٠ .

الحجر الجيرى ويشبه فى تصميمه قلعة بلوا Blois فى فرنسا ، وقصر جاك كير Jacques Coeur على وجه الخصوص ، وهو قصر تم بناؤه فى فرنسا فى القرن الخامس عشر . وكذلك صمم المهندس جورج ب . بوست George B. Post قلعة أخرى لكورنيلياس فاندربلت Cornelius Vanderbilt كانت تذكر الناس أيضا بقلعة بلوا . وكان هذان القصران من المبانى الفخمة التى تزين الطريق الخامس ، ولكن طرازهما الأجنبى كان محل سخرية المهندس المعمارى لويس سالفيان Louis Sullivan ، الذى كان يعتقد أن المبانى يجب أن تتمشى مع حياة الأفراد القاطنين فيها ، فقد كتب ساليفان فى كتابه المسمى « أحاديث لرياض الأطفال » يقول : « أمن الضرورى أن أريك هذه القلعة الفرنسية القائمة على هذا المنعطف من الطريق هنا فى نيويورك ، تلك القلعة التى لاتخرج عن كونها صورة مصغرة من قلعة بلوا ، ومع ذلك لا تغرق فى الضحك ؟ أمن الضرورى أن تنتظر حتى ترى سيدا خارجا من هذا المبنى وعلى رأسه قبعة حريرية طويلة ، دون أن يثير هذا المنظر الغريب عوامل الدهشة والسخرية فى نفسك ؟ ألا تستطيع أن ترى الجانب المضحك من الأمور والجانب المؤلم أيضا ؟ هل علىّ أن أبين لك أن هذا السيد لا يقيم فى هذا المسكن الا بجسده ؟ اذ لا يستطيع أن يعيش فيه بعقليته وروحه وخلقه ، وأن بينه وبين مسكنه تناقضا وتباينا وسخافة ».

ولقد كان أعظم القصور التى ظهرت فى نهاية القرن الماضى هو القصر المسمى بيلتمور Biltmore ، الذى كان يملكه جورج و . فاندربلت George W. Vanderbilt فى مدينة اشفيل بولاية كارولينا الشمالية وكان هذا القصر فرنسيا فى طرازه أيضا ، اذ صممه المهندس المعمارى هانت Hunt على نمط القلاع الكبيرة القائمة على جوانب نهر اللوار بفرنسا . وقد احتوى هذا القصر على أربعين غرفة كبيرة للنوم وساحة كبيرة للنخيل وغرفة استقبال من خشب الأرو وقاعة للحفلات وقاعة عرض للسجاجيد والمنسوجات النفيسة ، ومكتبة تحتوى على ٢٥٠،٠٠٠ مجلد ، وكان

القصر محاطا بضيعة أخذت تتزايد رقعتها حتى بلغت ٢٠٣ ميلا مربعا ، مما أتاح لفاندربلت فرصة كبيرة لاشباع شهوته فى القيام بالتجارب العملية المختلفة الخاصة بالزراعة وتنمية الغابات . وقد استخدم فاندربلت شابا يدعى جيفورد بينشو Gifford Pinchot مديرا لغاباته ولذا استطاع القيام باصلاحات كثيرة اعتبرت فى نظر أحد المؤلفات الضخمة عن الغابات الأمريكية أنها « أول تجربة عملية فى ادارة شئون الغابات على نطاق واسع بالولايات المتحدة » .

وقد كان بول مورتن Paul Morton وزير الزراعة فى أواخر القرن الماضى ، ينظر الى ما يقوم به فاندربلت من تجارب فى شئون الزراعة والغابات نظرة اعجاب لا تخلو من الحسد ، وقد قال ان فاندربلت ينفق على تجاربه أموالا أكثر مما يخصصها الكونجرس لوزارة الزراعة الأمريكية . ولم تكن أسرة فاندربلت هى الوحيدة التى عنيت بتشييد القلاع والقصور الفخمة ، فهناك قصور أخرى شيدها فى ١٩٠٠ أصحاب الملايين المتراكمة لينعموا فيها بحياة الملوك والأمراء .

وقد لاحظ الروائى الفرنسى بول بورجيه أن أثاث تلك القصور كان خاليا من الاعتدال وسلامة الذوق،فكتب بعدزيارة مدينة نيوبورت يقول : « وجدت سقوف القاعات مرتفعة ارتفاعا بالغا وأرضيتها مغطاة بعدد زائد من السجاجيد الشرقية والعجمية النفيسة ، كما وجدت على جدران حجرات الاستقبال عددا مبالغا فيه من الصور الفنية وقطع النسيج الأثرية القيمة ، واكتظت غرف الضيوف بتحف صغيرة نادرة لاحصر لها ، وازدحمت بقطع من الرياش الفاخر . أما مناضد الطعام ، فكان عليها من الزهور ومختلف أنواع النباتات والأوانى الفضية والكريستال أكثر مما ينبغى » .

وقد أشار بهذه المناسبة هارى و . ديسمند وهربرت كروكى فى كتابهما « المساكن الفخمة بأمريكا » الى ملاحظة جديرة بالاعتبار وهى أن القصور والقلاع الأوربية التى كانت أنموذجا لمساكن أصحاب

الملايين الأمريكيين ، لم تكن فى الواقع مساكن خاصة فحسب ، بل كانت من المبانى العامة أيضا ، يزدحم فيها المستأجرون ورجال الحاشية ، الذين يعيشون فى كنف الأسرة النبيلة التى كانت تتحكم فى مصائر الاقليم كله، وعلى أساس كونها من المبانى العامة كان من اللائق أن تكون على درجة كبيرة من الفخامة . أما فى بلاد مثل أمريكا حيث لا نعرف التوابع من المزارعين وغيرهم ، فان مثل تلك القصور تصبح نابية وفى غير موضعها»

غير أن بعض أصحاب الملايين رغبوا عن فخامة القصور الضخمة ، ومن أمثلة ذلك جون بيربونت مورجان J. Pierpont Morgan الذى عاش فى مستوى يليق بالملوك حقا ، ولكنه كان أميل الى ما يوفر راحة رجل الأعمال أكثر منه الى الاغراق فى تشييد الأبهاء الغنية بالرخام ، وذلك فيما عدا المكتبة العظيمة التى شيدها فى بداية القرن الحالى ، لكى تشمل جانبا من مجموعته الفريدة ، المكونة من الكتب النادرة والقطع الفنية الممتازة . وقد كان مسكن مورجان فى رقم ٢٩١ بطريق ماديسن بنيويورك يوصف بالاتساع دون الفخامة ، ويكفى لادارته عدد من الخدم يقدر بحوالى اثنى عشر ،كما كان مسكنه الريفى فى هايلاند فولز فسيحا ولكنه كان خاليا من الغلو فى زخرفة البناء . وهناك كثير من الأندية الريفية الأمريكية فى الوقت الحاضر تفوقه فى الاتساع ، وكذلك كان مسكنه فى لندن لا يشبه القصور وان كان ما احتواه من مجموعة الرسوم الفنية قد أثار دهشة واعجاب الاخصائيين فى هذه الرسوم ، سواء أكانوا من انجلترا أم من فرنسا وأسبانيا وهولاندا . وفوق ذلك كان يملك مسكنا ريفيا فسيحا فى ضواحى لندن ، وضيعة تزيد على ألف فدان فى جبال أدرانداكس،وجانبا خاصا من مبنى نادى جزيرة جيكل على ساحل ولاية جورجيا،ومسكنا لصيد الأسماك فى مدينة نيويورك،وجناحا خاصا فى فندق بريستول بباريس ، وآخر فى فندق جراند فى روما ليكونا على الدوام تحت تصرفه كلما احتاج اليهما . وفوق كل ذلك فانه كان يملك يختا بخاريا يدعى Corsair III طوله ٣٠٢ قدم ، وكان يستخدمه

كمسكن اضافى على ساحل الاطلنطى أو على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، (هذا بالاضافة الى باخرة نيلية خاصة انشئت وفق تصميمه ليستخدمها فى نزهاته كلما قام بزيارة مصر) ولا يمكن لأحد أن يتهم مورجان بأنه كان مقترا على نفسه عندما أراد أن تكون السجاجيد المستخدمة فى يخت Corsair III مطابقة تماما فى رسمها للتى كانت على اليخت Corsair II ، وعندما تبين أن السجاجيد كانت لا تصنع على هذا النمط وقتئذ ، أمر بأن تنقل الرسوم القديمة على أنوال خاصة حتى تأتى السجاجيد الجديدة مطابقة فى رسمها للسجاجيد القديمة .

ومثل هذا يقال عن جون د. روكفلر John D. Rockefeller فقد كان المسكن الذى عاش فيه أغلب أيام السنة بعيدا عن أبهة القصور ، وكان قائما على تلال بوكانتيكو بالقرب من مدينة تاريتون بولاية نيويورك . والواقع أن روكفلر كان يبغض الترف والمظاهر الكاذبة ، وكان ذوقه متأثرا ببساطة المسيحية الأولى أكثر منه بفخامة أمراء المديتشى بايطاليا . وحينما تخلى عن ممارسة الأعمال العامة سنة ١٨٩٥ زاد زهده فى الترف بسبب ما انتابه من أمراض . واذا لم يكن منزل روكفلر شبيها بالقصور فانه كان مع ذلك أحد خمسة وسبعين مسكنا أقيمت على ضيعته الكبيرة ، واذا كان قد اختص نفسه باستخدام سيارة واحدة لمدة خمسة عشر عاما فان حظيرة السيارات فى ضيعته كانت معدة لأن تسع لأسطول من السيارات يبلغ الخمسين عدا . وفضلا عن ذلك فان ضيعته كانت تشتمل على ملاعب للجولف يبلغ طولها سبعين ميلا ، لكى يمارس فيها لعبته الصباحية كلما أراد . وكان عدد الخدم فى تلك الضيعة الفسيحة يتراوح بين ١٠٠٠ و ١٥٠٠ وفقا للحاجة . هذا فيما يتعلق بقصر تلال بوكانتيكو فحسب ، وفوق ذلك فقد كان روكفلر يملك ضيعة فى ليكوود Lakewood للاقامة فيها فى فصل الربيع ، وضيعة أخرى فى ساحل أورموند Ormond بولاية فلوريدا لاستخدامها فى الشتاء ، ومسكنا بشارع ٥٤ بمدينة

نيويورك ، وضيعة لم يزرها قط فى فورست هل Forrest Hill بمدينة كليفلاند ، ومنزلا لم يسكنه أيضا فى طريق يوكلد Euclid بمدينة كليفلاند ، ورغم كل هذا نستطيع أن نقول ان أحدا لم يجار روكفلر فى معيشته المتقشفة وسط مثل ذلك النعيم والفخامة .

— ٢ —

غير أن الكثيرين من أصحاب الملايين الأمريكيين لم يجاروا روكفلر فيما ذهب اليه من حياة التقشف . وقد أشار الكاتب بول بورجيه بهذه المناسبة الى كثير من النواحى التى تستحق الثناء فى حياة الأثرياء بمدينة نيوبورت قبيل بداية القرن الحالى ، فأوضح مثلا أن عدم وجود الخليلات المستهترات فى ذلك المجتمع يرجع الى أن أغلب الموسرين كانوا لايذهبون الى تلك المدينة الا فى عطلة نهاية الأسبوع وفى فترة الأجازات ، وأنحياة المجتمع كانت لاتسمح بالخلوة والاعتزال ، كما أنه لم يوجد أحد من المدلسين والمحتالين ، اذ كان لا يقبل فى ذلك المجتمع الا من كان دخله ومدخراته مما يسهل التعرف عليه . وفوق ذلك فقد كان أفراد ذلك المجتمع ممن يمتازون بالصحة الجيدة التى لاتتفق مع حياة التهتك والاستهتار ، وهذه ملاحظات تستحق التقدير ، ففى الواقع كان المجتمع الارستقراطى فى أمريكا بعيدا عن التهتك والانغماس فى الرذائل ، بل كان على العكس من ذلك مستمسكا بمستوى رفيع من الأخلاق والآداب .

ولكى يوضح ذلك الكاتب أسباب الصحة التى ميزت أهل نيوبورت، وصف يوما عاديا من حياة احدى فتيات ذلك المجتمع ، فذكر أنها كانت تبدأ برياضة ركوب الخيل حوالى الساعة التاسعة صباحا ، وعند عودتها تغير ملابسها ثم تذهب لمشاهدة مباراة للتنس فى الكازينو ، وبعد ذلك تنتقل فى عربتها الى مرسى أحد اليخوت استجابة لدعوة لتناول الغداء ، وحوالى الساعة الرابعة والنصف من بعد الظهر تترك اليخت لتشاهد مباراة فى البولو ، وبعدها تعود الى منزلها للاستحمام ، ثم ترتدى ملابس السهرة

لحضور حفلة عشاء تنتهى فى الغالب فى منتصف الحادية عشرة مساء ، نظرا لأن أغلب المدعوين بعد أن قضوا يوما طويلا فى الهواء الطلق كانوا يجدون صعوبة فى مغالبة النوم بعد تلك الساعة ، وعقب انتهاء الحفلة تذهب الفتاة الى حفل آخر للرقص . ويظهر أن بول بورجيه لم يشهد حفلة من حفلات الرقص هذه ، لأنه لو فعل لوجد ، وهو الملاحظ المدقق، ان هذه الحفلات تتصف بالغلو الذى لاحظه على رياش المساكن من قبل. فقد كان أولئك القوم يملكون من المال أكثر مما يعرفون كيف ينتفعون به ، ولذا قامت بينهم منافسة كبيرة لمعرفة من يستطيع منهم بعثرة ذلك المال فى مظاهر الأبهة والفخامة .

ومما كان يثير الدهشة مقدرة أثرياء ذلك العهد على تناول كمية ضخمة من الطعام ، فكانت الوجبة الواحدة تشتمل على سبعة أو ثمانية ألوان من المأكولات فيما عدا أنواع متعددة من النبيذ . ويشهد على ذلك حفلة العشاء التى أقامها Randolf Guggenheimer فى فندق والدورف أستوريا Waldorf-Astoria القديم بنيويورك فى ١١ فبراير سنة ١٨٩٩ ، والتى دعا اليها أربعين سيدا وسيدة ، فقد وجد المدعوون أن قاعة Myrtle فى الفندق قد تحولت الى حديقة ، واشتملت على شجيرات مزدهرة بأنواع الورود والزهور النادرة . هذا فضلا عن سياج من شجر السرو ، وكان هناك كذلك عدد كبير من الكنارى والطيور المغردة التى وضعت فى مكان خاص ، واستعير بعضها خصيصا لهذه الحفلة من حديقة الحيوانات، وقد نسقت منضدة الطعام تحت « تكعيبة » مغطاة بالكروم ، وفوق طبقة خضراء من النجيل ، وكتبت قائمة الطعام بالذهب على قشور جوز الهند ، بعد كشطها وتلميعها ، ونقشت على مراوح السيدات أسماء أنواع الأنبذة الموجودة . وقد خصص لكل من الحاضرين هدايا مناسبة فكان نصيب السيدات زجاجات من الطيب تحمل زخرفا جميلا ، وكان نصيب الرجال علبا للثقاب مرصعة بالجواهر . وقام ستة من أهل نابولى — بردائهم الوطنى — بعزف الموسيقى على

القيثارة . أما العشاء نفسه ، الذى استخدمت فيه الصحاف الذهبية ، فقد اشتمل على عشرين لونا من ألوان الطعام الشهية ، هذا عدا الشمبانيا وغيرها من المشروبات الممتازة . وقد بلغت نفقات هـذه الحفلة عشرة آلاف دولار بمعدل ٢٥٠ دولارا لكل ضيف (ولكن هذه كانت دولارات سنة ١٨٩٩ ، وهى تقدر فى الوقت الحاضر بنحو ٧٥٠ دولارا أو ما يعادل حوالى ٢٦٠ جنيها مصريا للفرد الواحد) .

— ٣ —

ولا شك أن الزائر الانجليزى أو الفرنسى للولايات المتحدة كان يلاحظ أن المجتمع الارستقراطى فى تلك البلاد لم يكن مركزا فى مدينة معينة كما كان فى لندن أو باريس ، اذ كان لكل مدينة كبيرة مجتمعها الخاص ، الا أن نيويورك كانت متفوقة عليها جميعا . وحينما أدلى وورد ماك أليستار Ward Mc Allister فى سـنة ١٨٩٢ بتصريحـه المشهور « أن صالة الرقص بمنزل مسز آستور Mrs. Astor اذا كانت لا تتسع لأكثر من أربعمائة شخصا فانها مع ذلك تعتبر متسعة اتساعا كافيا ، لأن عدد أفراد الطبقة الارستقراطية الحقيقية كانوا لا يزيدون فى الواقع عن هذا العدد » وقد قوبل ذلك التصريح بشىء من السخرية ، ولكن عددا كبيرا من الناس اعتقدوا أن ماك أليستر انما كان يرمى الى تحديد العدد الأقصى لأفراد الطبقة الارستقراطية الحقيقية فى نيويورك .

وقبل ذلك ببضع سنوات كتب هنرى كلوز Henry Clews بأسلوب فيه كثير من المغالاة عن محاسن الحياة فى مانهاتان ، اذ قال : « ان نيويورك هى القلب النابض للمجتمع فى أمريكا ، ففيها وميض الأزياء النادرة وبريق الأثواب الفاخرة ، وفيها الحركة الدائمة للعربات التى تجرها الخيـول المطهمة ، وفيها الحديقة الوسطى المزدهرة اليانعة التى لا تقل عن غابة بولونيا بهاء وجمالا » . ولقد أكد الكاتب « أن اغراء هذه الحياة كان يحمل الكثيرات من زوجات أصحاب الملايين فى غرب البـلاد الى أن

يصبحن من أشد المتحمسات للاقامة فى نيويورك ، وحينئذ يقبلن على شراء قصر فخم فى وسط المدينة ، وينخرطن فى موكب المجتمع الزاخر بحفلات الاستقبال وحفلات الرقص والموسيقى ، وما يستلزمه كل ذلك من اقتناء العربات الفاخرة واستخدام العدد الكبير من الخدم ، وما الى ذلك من لوازم الحياة فى مدينة صاخبة » . ولعل حماسة الكاتب فى وصفه لمجتمع ذلك الوقت لما يدعو الى الابتسام ، غير أنه كان من غير شك يصف ظاهرة حقيقية ، ففى الوقت الذى كان فيه الأعضاء المعترف بهم من الطبقة الارستقراطية يحاولون تضييق الدائرة ومنع دخول الأغنياء المحدثين فيها ، كان هؤلاء بدورهم يبذلون أقصى الجهد للحصول على اعتراف المجتمع بهم . ولا ريب فى أن عددا لايحصى من نساء ذلك العهد كن ينظرن الى بطاقة الدعوة لاحدى حفلات العشاء الضخمة التى كانت تقيمها مسز آستور على أنها كتذكرة الدخول الى الجنة .

ولقد كانت مثل هذه المسرحية تمثل فى سائر المدن الأمريكية فى كل أنحاء البلاد ، فكانت هناك نفس الرغبة الملحة فى ولوج المجتمع الارستقراطى ، سواء أكان ذلك عن طريق الجمعيات المحلية أم الانخراط فى هيئات المتطوعات لحياكة الملابس أم مجرد حضور حفلة الرقص السنوية التى تقيمها احدى العائلات المعروفة . والواقع أن هذه الظاهرة ما زالت قائمة حتى اليوم ، وان اختلفت فى أساليبها بعض الشىء ، فعلى الرغم من أن قلة ضئيلة من الناس فى الوقت الحاضر هى التى تقيم وزنا كبيرا لهذه المسرحية ، على اعتبار أنها تؤثر حقيقة فى مركز الفرد الاجتماعى ، الا أن الرغبة فى الظهور قد اتخذت وسائل جديدة لم تكن معروفة من قبل ، منها لفت أنظار مصورى الجرائد ومحررى الشئون الاجتماعية ، والاهتمام بالحضور بين جمهرة المستمعين فى حفلات التليفزيون أو الحفلات التى يحييها الطامعون من رجال المسرح ونسائه فى اكتساب الشهرة واجتذاب الأنظار . ومما لامراء فيه أن المجتمع سنة ١٩٠٠ كان ارستقراطيا بالمعنى الحقيقى ، فقد كان ينبذ المحترفين

من الفنانين ، ويمقت كل ما يؤدى الى اهتمام الصحافة بشأنه . وقد بلغ هذا الأمر حدا أن الآباء فى ذلك الوقت كانوا يلقنون أبناءهم « أنه لايجوز أن يظهر اسم الرجل المهذب فى الصحافة الا فى مناسبات ثلاث : عند مولده وعند زواجه وعند وفاته » . والحق أن المجتمع كان على ثقة كاملة أنه يمثل أنبل ما فى الحياة الأمريكية وألمع ما فيها وأكثرها أهمية .

وهذا يعلل لنا كثرة الاقبال على الزواج فى ذلك العهد بين الوارثات الأمريكيات وبعض أشبال الأسر الأوربية النبيلة . وقد تم أول زواج من هذا النوع بعد سنة ١٨٧٠ بقليل ، عندما عقد قران الآنسة جينى جيروم Jennie Jerome احدى ثريات نيويورك على اللورد راندولف تشرشل (ونتج عن هذا الزواج أحد مشهورى الرجال فيما بعد وهو ونستون تشرشل) . ولم تأت سنة ١٨٩٠ حتى انتشر هذا الزواج المختلط انتشارا وبائيا ، بدليل ما نشرته مجلة ماكول Mc Call فى عددها الصادر فى نوفمبر ١٩٠٣ وأوردت فيه قائمة بما تم من سبع وخمسين زواجا من هذا الطراز حتى ذلك التاريخ .

وقد اشتمل المجتمع الأمريكى — الى جانب هذه الطبقة الصغيرة التى بلغت الذروة من الرخاء والنفوذ — على عدد يقدر بمئات الألوف من الذين يعتبرون من الأغنياء والموسرين ، وكان هذا العدد يضم المتفوقين فى المهن الحرة ، كما يمتد حتى يشمل مديرى الأعمال وأصحاب المتاجر والموفقين من الأطباء والمحامين وأساتذة الجامعات ورجال الدين من ذوى الدخل الكبير .ومن الواضح أن مجموعة على هذا الاتساع وعلى هذا التشعب فى العناصر التى تتألف منها ، من حيث المهنة والدخل وأساليب المعيشة ، لمما يصعب أن تتكلم عنه بعبارات عامة مرسلة . ولا شك أن هذه الجماعة كانت تمثل النصف الأعلى من الطبقة المتوسطة كما كانت على الرغم من تباين عناصرها ، تمتاز بميزة مشتركة واحدة تظهر لنا الآن بوضوح على مر الأيام ، ألا وهى وفرة الثراء الذى كانت تتمتع به اذا قورنت بجماعة مماثلة لها فى الوقت الحاضر ، وان كان ذلك

لايعنى أنها لم تكن تتعرض لأزمات مالية حادة بين الحين والحين ، غير أنها كانت أزمات عارضة ومؤقتة .

وقد استطاعت هذه الجماعة أن تقطن فى مساكن أكثر اتساعا مما يقطنه أمثالها اليوم ، نظرا لانخفاض نفقات المبانى من حيث الخامات وأجور العمال فى ذلك الوقت ، كما تمكنت من توظيف عدد من الخدم يفى بحاجات هذه المساكن الفسيحة ، بسبب انخفاض الأجور من جهة ووفرة عدد الراغبين فى الاشتغال بالخدمة المنزلية من جهة أخرى . وفضلا عن ذلك فقد كانت هذه الجماعة معفاة من احتمال الكثير من النفقات التى لاغنى لأبنائها فى الوقت الحاضر عن مواجهتها ، ومثال ذلك ثمن السيارة ونفقاتها (مما يفوق كثيرا نفقات العربة والحصان) وثمن المعدات الكهربائية الكثيرة التى لاغنى عنها فى الوقت الحاضر كالثلاجات وآلات الغسل وآلات الراديو والتليفزيون ... الخ .. — ونفقات التعليم الجامعى للأطفال من الذكور والاناث ، وفوق كل ذلك فهناك النفقات الاضافية التى تستلزمها صيانة منزل ريفى لاستخدامه فى الأجازات الصيفية أو اجازات نهاية الأسبوع . وعلى هذا فان الايراد الذى يكفى رجلا فى الوقت الحاضر للاقامة مع أسرته فى مسكن ضيق ، كان فيما مضى كافيا لاقامته فى منزل أكثر اتساعا وبهاء . فلا غرابة اذن اذا كان المسنون فى الوقت الحاضر ينظرون بأسف وحنان الى أيام طفولتهم التى قضيت فى ظل هذه الظروف السعيدة ، عندما كانت الحياة أكثر بساطة والكثير من لوازمها أيسر منالا ، هذا فضلا عما يشعر به أولئك المسنون من أن كيان الأسرة والروابط بين أبنائها كانت أوضح منها فى الوقت الحاضر ، ذلك أن الأسرة التى تقيم فى مسكن فسيح تكون بطبيعة الحال أقدر على رعاية المسنين والمرضى والمعوزين من الأقارب ، من الأسرة التى تقطن مسكنا محدودا فى اتساعه . ويغلب على الظن أن جانبا من مشكلة الضمان الاجتماعى فى الوقت الحاضر — كالمطالبة بمعاشات للعجزة والتأمين ضد البطالة والمرض الخ .. — لم ينشأ الا بسبب عجز الأسرات عن أن تعول

المحتاجين من الأقارب فى مسكن واحد ، كأن تقيم الجدة فى حجرة بالطابق الثالث أو أن يقيم ابن العم المصاب ببعض الشذوذ فى حجرة بالطابق الأسفل . وهناك جانب من مشكلتنا الاجتماعية فى الوقت الحاضر يعزى من غير شك الى ما أصاب مدخرات الناس من تدهور بسبب ارتفاع الأسعار وتضخم النقد ، كما أن جانبا آخر يرجع الى تطور خطير فى الآراء الاجتماعية كما سنحاول توضيحه فى هذا الكتاب . ولا يسع المرء الا أن يعترف أنه على الرغم من أن العصر الحاضر ينعم بكثير من الأمور الطيبة التى كان الناس محرومين منها سنة ١٩٠٠ ، فان حنين المسنين وأسفهم على الأيام الغابرة له ما يبرره ، اذ أن فسحة العيش واتساع المسكن ووفرة الخدمة تعتبر من الأمور التى يصعب تعويضها .

غير أن هناك ناحية أخرى للحياة فى ذلك العهد لا يجوز لنا أن نغفل الاشارة اليها ، تلك أن الحياة الهينة فى المسكن الفسيح كانت ممكنة بسبب انخفاض أجور الخادمات اللائى كن يقطن فى حجرات ضيقة فى سطوح تلك المساكن ، وعلى مسافة مرتفعة من مكان عملهن حيث يعيش أفراد الأسرة . كما كانت تلك الحياة ممكنة بسبب انخفاض أجور حائكات الملابس ، وأجور العمال فى المصانع والمتاجر التى تمون الأسرة بمختلف حاجياتها ، ومن ذلك ترى أن الخدمة الوفيرة والمكان الفسيح اللذين نعمت بهما أسرة يبلغ دخلها السنوى حوالى ١٥٠٠ دولار كانا على حساب المجتمع وأجور العمال المنخفضة ، التى جعلت التمتع بمثل هذه الحياة أمرا مستطاعا . وهذه ناحية من نواحى الرخاء الذى نعم به ذلك العهد لا يجوز بحال اغفالها .

ولذا يجمل بنا أن ننتقل الى الطرف الآخر من المجتمع ، دون التفات الى معيشة غالبية الأمريكيين سنة ١٩٠٠ وهم من أصحاب الدخول المتوسطة ، ولننظر الى الحياة كما كانت تعيشها الطبقات الدنيا من مجتمع ذلك العهد .

الفصل الثالث

حياة غير كريمة

– ١ –

أعلن ديفيد ريكاردو فى الأيام الأولى لنظام المصانع فى انجلترا مبدأ صارما أسماه قانون الأجور الحديدى ، ويتلخص هذا المبدأ فى أن الاجور تميل الى الانخفاض نحو المستوى الذى يقبله أقل العمال خبرة أو أشدهم حاجة الى العمل . ولم يكن هذا القانون نافذا على الدوام قبل عصر الثورة الصناعية ، فقد كان الأمير أو النبيل أو سيد المنطقة يشعر بأن عليه واجبا يلزمه برعاية المعوزين سواء أكانوا من المرضى أم من ضعاف الكفاية وضحايا الأقدار . وكذلك كانت الحال فى الولايات المتحدة قبل الثورة الصناعية ، فاذا أصابت المحنة بعض الأفراد اما بسبب عجز المحصول أو كساد التجارة ، فقد كان فى مقدور هؤلاء أن يستمروا فى عملهم رغم نقص الايراد ، أو أن يرحلوا ليبدأوا حياة جديدة فى منطقة أخرى، غير أن ظهور الصناعة الحديثة قد غيَّر كل ذلك فى الولايات المتحدة وفى القارة الأوربية على السواء .

ذلك لأن انشاء مصنع فى منطقة معينة يشجع على تكوين قرية أو مدينة من حوله ليقطن فيها العمال ، ويصبح هؤلاء بسبب اختيارهم لهذا الوضع أشبه بالمساجين الذين لايستطيعون الخلاص من مصيرهم ، لأنهم يعتمدون على ما يوفره المصنع لهم من عمل وأجر ، ومهما كانت أجورهم غير وافية بحاجات المعيشة فانهم يكونون عاجزين عن البحث عن عمل آخر قد يدر عليهم نصيبا أوفر من الرزق . ولكل تلك الأسباب يصبح هؤلاء العمال محرومين من حرية الاختيار والتصرف .

وكذلك الحال فى أحياء المدن الفقيرة حيث كان يحتشد سيل متزايد من المهاجرين ، وجلهم من المعدمين وغير المدربين والمحرومين من الأصدقاء وغير الملمين بلغة البلاد ، اذ يصبح هؤلاء الأفراد ضحية للظروف وفى حكم الأسرى للبيئة المحيطة بهم ، وعلى الرغم من أنهم كانوا من الناحية النظرية البحتة أحرارا فى اختيار أية مهنة ، وغير خاضعين لأى صاحب عمل معين، الا أنهم كانوا من الناحية العملية يواجهون حقيقة الموقف ويخضعون خضوعا تاما لما يفرضه عليهم الجهل والفقر وقلة المواهب من ضرورة البقاء فى مكانهم سنة بعد أخرى ، ليكافحوا كفاحا قاسيا للحصول على العيش وليقبلوا الأجور المزرية التى كانت تعرض عليهم . وهكذا كان قانون الأجور الحديدى مسيطرا على الموقف .

ولم تشهد الولايات المتحدة فى منتصف القرن التاسع عشر النتائج البشعة التى شهدتها انجلترا بسبب فعل هذا القانون الحديدى ، حيث كانت الاجور وساعات العمل والظروف الصحية فى المدن الصناعية الجديدة ومناطق التعدين ، مما يندى له جبين الفضيلة والانسانية ، ومع ذلك فقد كانت الحالة فى الولايات المتحدة سيئة الى درجة كبيرة ، فقد هبطت أجور العمال فى المدن الصناعية فى اقليم « انجلترا الجديدة » حتى بلغت فى سنة ١٨٥٠ ما لايزيد على ثلاثة أو أربعة دولارات فى الأسبوع، كما كان متوسط ساعات العمل اثنى عشر ساعة يوميا أو أربع عشرة ساعة فى بعض الأحيان ، هذا فى الوقت الذى كان فيه أرباب الأعمال ينعمون بأرباح طائلة ويكدسون الثروات الهائلة . ولا شك فى أن هذه الظروف التعسة التى صاحبت ظهور الصناعة الرأسمالية الحديثة فى كل مكان ، هى التى حملت كارل ماركس على أن يبتدع نظاما جديدا للنهوض بالمجتمع وانقاذه من هذه المساوىء .

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر تقدمت الصناعة فى الولايات المتحدة بخطوات واسعة ، بسبب ظهور عدد من الاختراعات والتحسينات الفنية التى دفعتها الى الأمام دفعا قويا ، فما جاءت سنة ١٩٠٠ حتى

كانت البلاد قد تغيرت معالمها وحلت فيها المدن الصناعية الصاخبة محل القرى الريفية الهادئة ، وتراكمت السلع التى زادت من رفاهية العيش ، كما تجمعت الثروة بدرجة جعلت الناس يعتقدون أن عالما جديدا قد جاء ليزيد من نعم الحياة ومباهجها ،ومع هذا كله فان الثروة كانت لا تزال تتجه الى جيوب عدد قليل من الأفراد .

وبدأت أمريكا فى ذلك الوقت تشعر بضيق مساحتها بالنسبة لسكانها، اذ انقضى ذلك العصر الذى كان فيه الغرب هو مجال الأمل الفسيح للرجال المغامرين أو للأفراد الفاشلين فى المجتمع الصناعى ، وعندما كان العامل الأمريكى يستطيع أن ينزح الى الغرب ليبدأ حياة جديدة اذا توافر لديه المال اللازم ، أما الآن فقد أقفلت الحدود ولم يبق فى الغرب متسع لكل الراغبين فى النزوح اليه .

وقد استمر سيل المهاجرين عبر الأطلنطى يحمل الى الولايات المتحدة طوال القرن التاسع عشر عددا غفيرا من أبناء الطبقة الدنيا من القارة الأوربية ، وكانت غالبيتهم فى أول الأمر من الايرلنديين الذين قاموا بحفر الترع وبناء الجسور بين سنتى ١٨٤٠و١٨٦٠ ، والذين اشتغلوا فى المصانع اثنتى عشرة وثلاث عشرة وأربع عشرة ساعة فى اليوم مقابل أجر ضئيل جدا ، وعندما بدأ الايرلنديون يصلحون من شأنهم ، أخذ المهاجرون من الطليان يفدون زرافات ، ثم جاء بعدهم أعداد متزايدة من اليهود والصقالبة من أوربا الشرقية .

ولم يمض وقت طويل حتى كانت هذه الوفود المهاجرة الى الولايات المتحدة تتأثر بالحرية والطموح اللذين يميزان الحياة الأمريكية ، ولذا استطاع المهاجرون رويدا رويدا أن يصلحوا من شأنهم وأن يتخلصوا من الفقر الذى كان من نصيبهم فى أول الأمر ، ولكنهم ما كادوا يفعلون ذلك حتى حل محلهم فى الدرجات السفلى فى المجتمع المهاجرون الجدد الذين جاءوا من أوربا نتيجة للمعلومات المغرية التى بلغتهم من أقاربهم أو مواطنيهم الذين سبقوهم الى الهجرة ، والتى كثيرا ما كانت مبالغا فيها

الى أكبر حد ، أو نتيجة للوعود الخلابة التى كان يذيعها سماسرة رجال الأعمال وأعوانهم . وقد كان سيل أولئك المهاجرين من الضخامة بحيث انه غمر الأحياء الفقيرة فى نيويورك وبوسطن وفيلادلفيا وشيكاغو ، والمدن الصناعية فى ولايات انجلترا الجديدة وولايتى بنسلفانيا وأهايو ، وكان تدفق هذا السيل بدرجة تزيد على مقدرة الصناعة الأمريكية على امتصاصه ، ففى سنة ١٩٠٠ وحدها بلغ عدد المهاجرين ٤٤٨ر٥٧٢ وفى سنة ١٩٠١ بلغ عددهم ٤٨٧ر٩١٨ واستمر هذا الرقم فى التزايد حتى سنة ١٩٠٧ عندما وصل الى القمة فبلغ ١ر٢٨٥ر٣٤٩ مهاجرا .

وبهذه المناسبة نلاحظ أن الكثيرين من الأمريكيين كانوا ينظرون نظرة كبرياء واستهتار الى المهاجرين الأوربيين ، اذ تعود الأمريكى الذى ولد فى بلاده أن يرى على مر السنين أولئك المهاجرين فى أسوأ حال من الفقر والجهل ورثاثة الملبس ، يشتغلون بالمهن اليدوية الوضيعة ولا ينقطعون عن التحدث بلغات غير مفهومة . غير أنه كلما تحسنت حالهم ، زاد مظهرهم الأمريكى وقل مظهرهم الأصلى ، سواء أكان ايطاليا أم بولنديا أم صربيا، أم تشيكوسلفاكيا أم روسيا . ولكن الفكرة المزرية بالمهاجرين ظلت عالقة بذهن الأمريكيين .

وللانسان أن يتساءل هنا أين كان أولئك الأعداء الطبيعيون للقانون الحديدى ونعنى بهم نقابات العمال ؟ والجواب على ذلك أن تلك النقابات كانت قليلة وضعيفة الا فى بعض المهن المحظوظة ، وكانت لا تتمتع بعطف المحاكم نظرا للعقيدة السائدة فى ذلك الوقت من أن ما يرى صاحب العمل أن يدفعه للعامل من أجر وما يقبله ذلك العامل بمحض اختياره ، يعتبر من المسائل التى لاتخص أحدا غير هذين الرجلين . هذا فضلا عن أن الرأى العام كان ينظر شذرا الى هذه النقابات خوفا من ازدياد سلطانها .

ولم يزد مجموع أعضاء نقابات العمال فى سنة ١٩٠٠ على ٨٦٨ر٥٠٠، وكان نصيب اتحاد العمال الأمريكى American Federation of Labour من هذا المجموع ٥٤٨ر٣٢١ . ونجحت النقابات فى رفع أجور العمال

فى قليل من الصناعات المنظمة كصناعة لفائف التبغ (السيجار) ، وقد أوضح روبرت وودز Robert A. Woods المشهور بدقة ملاحظاته أن متوسط الأجر للعامل غير الماهر فى بوسطن كان يتراوح بين تسعة واثنى عشر دولارا فى الأسبوع ، وذلك فى حالة توافر العمل ، أما العامل الماهر فكان أجره يتراوح بين ١٣ و ١٩ دولارا فى الأسبوع ، مع التعرض لبطالة قليلة .

وقد كانت أغلب الصناعات الكبيرة لاتعرف نقابات العمال اطلاقا ، وحينما وجدت تلك النقابات أو عندما قامت المحاولات لانتظام العمال فى سلكها ، أدى ذلك الى قيام معارك وحشية ودموية بين العمال الثائرين وأصحاب الأعمال وأعوانهم المأجورين ، وكثيرا ما كان الجيش المرابط يتدخل الى جانب أصحاب الأعمال فقد كانوا لا يعرفون هوادة أو لينا فى عدائهم لنقابات العمال .

وعندما نجح اتحاد عمال المناجم فى الحصول على مطالبه نتيجة أول اضراب عام قام بتنظيمه فى سنة ١٨٩٨ ، عمد جماعة من العمال فى فردين Virden بولاية أيلينوى الى صد هجوم مسلح قام به فريق من أعوان الشركات حضروا بالقطار خصيصا لفض الاضراب والقضاء عليه . وقد استخدم الفريقان فى تلك المعركة المسدسات والبنادق مما أدى الى خسائر كبيرة فى الأرواح من الجانبين ، كما قرر ذلك هربرت هاريس فى كتابه عن تاريخ العمال الأمريكيين . وقد أضاف ذلك الكاتب عبارة ذات مغزى اذ قال : « ونظرا لتفوق العمال فى الرماية ، استطاع اتحادهم أن يحصل على كل مطالبه » . وهذه صورة للروح العدائية التى كانت مسيطرة فى ذلك العهد على العلاقات بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال .

والآن ، دعنا ننظر الى بعض الحقائق القاسية التى اتسمت بها الحياة بين الطبقات الدنيا فى الولايات المتحدة عند نهاية القرن الماضى .

— ٢ —

وهاهى ذى بعض الأرقام المجردة التى تتحدث عن نفسها :

١ — الأجور — سبق أن بينا أن متوسط الدخل السنوى للعامل الأمريكى كان يتراوح بين ٤٠٠و٥٠٠ دولار بينما كان دون ذلك للعامل غير الماهر ، اذ كان يتناول أقل من ٤٦٠ دولارا سنويافىالشمال،وأقل من ٣٠٠ دولار سنويا فى الجنوب ، وكان الأجر العادى للعامل غير الماهر ٥ر١ دولار فى اليوم — اذا أتيح له أن يجد عملا — وقد قرر روبرت وودز أن متوسط أجر العاملة فى المتاجر الواقعة فى أرقى أحياء مدينة بوسطن (أى فى شمال المدينة وغربها) كان يتراوح بين ٥و٦ دولارات فى الأسبوع فى سنة ١٩٠٢ . أما فى متاجر بيع الملابس فكان أجر العاملة يتراوح بين ٣و٥ دولارات فى الأسبوع ، بينما « كانت النساء المشتغلات بالحياكة فى منازلهن لا يكتسبن أكثر من ٣٠ أو ٤٠ سنتا عن العمل فى يوم باكمله » .

أما فى الجنوب ، فكان متوسط الأجور فى سنة ١٩٠٠ يقل عن ستة دولارات فى الأسبوع بالنسبة الى ثلث العمال المشتغلين بصناعة غزل القطن ونسجه ، والذين تزيد سنهم على السادسة عشرة ، ومع ذلك فلم تكن هذه أسوأ الحالات المعروفة ، بدليل أن البحث الذى قامت به وزارة العمل عن حالة العمال الايطاليين فى شيكاغو ، أثبت أن بعضهم من غير العمال الماهرين ، كان يحصل على أجر أسبوعى لا يزيد على ٣٧ر٤ دولار

٢ — ساعات العمل — كان متوسط ساعات العمل اليومى حوالى عشر لمدة ستة أيام فى الأسبوع أى ستين ساعة أسبوعيا ، وقد ظهر اتجاه للعمل نصف يوم السبت فقط فى المكاتب ، ولكن أحدا لم يجرؤ على اقتراح أن يكون العمل خمسة أيام فقط (كما هو فى الوقت الحاضر) خوفا من أن يتهم بالجنون . وعندما تكوّن الاتحاد الدولى لصناعة ملابس السيدات فى سنة ١٩٠٠ كانت ساعات العمل فى هذه الصناعة فى مدينة نيويورك تزيد على السبعين فى الأسبوع .

٣ — عمل الأطفال — بلغت نسبة الأولاد المشتغلين بكسب رزقهم ما لا يقل عن ٢٦٪ أى أكثر من ربع عدد الأطفال الذين تتراوح سنهم بين العاشرة والخامسة عشرة . أما فيما يتعلق بالبنات فى نفس هذه المرحلة من السن فقد بلغت النسبة ١٠٪ ، وقد اشتغل أغلب الأطفال فى الأعمال الزراعية ، بينما بلغ عدد المشتغلين منهم فى الصناعة ٢٨٤٫٠٠٠ ، وذلك فى الفترة من العمر التى كان يجب على المجتمع أن يقدم اليهم فيها التعليم الالزامى .

٤ — الحوادث — كانت وسائل الوقاية ضد الحوادث ضئيلة جدا بالنسبة لما تعودناه فى الوقت الحاضر ، كما يستدل على ذلك من الحقائق الآتية : — فى سنة ١٩٠١ وحدها قتل واحد من كل ٣٩٩ عاملا بالسكك الحديدية وأصيب ١ من كل ٢٦ منهم . أما بالنسبة للمشتغلين بالقطارات نفسها كالسائق والملاحظ « الكمسارى » ومعاونيهما ، فقد كانت نسبة الضحايا بينهم أكبر كثيرا ، ففى تلك السنة نفسها قتل من بينهم ١ من كل ١٣٧ .

وكان الخطر من الحوادث أشد ما يكون بالنسبة الى الأطفال المشتغلين فى المصانع ، فقد صرح الأستاذ ويليام كرون William O. Krohn سنة ١٨٩٧ فى بيان ألقاه فى المؤتمر الأهلى لتنظيم الاحسان والتوجيه : « أنه لايمر يوم فى مصانع تعبئة المأكولات بمدينة مثل شيكاغو دون أن يصاب أحد الأطفال بعاهة مستديمة تبعده عن العمل » .

٥ — مستوى المعيشة — أصدر (روبرت هانتر Robert Hunter) سنة ١٩٠٠ كتابا عنوانه « الفقر » حاول فيه أن يحدد بالدقة عدد الأمريكيين وظروفهم ممن يصح أن يوصفوا بأنهم « لا يحصلون على ما يكفيهم من الغذاء والكساء ولا يقيمون فى منازل صالحة للسكنى» ولقد عرّف الكاتب الفقر تعريفا دقيقا بأنه الحالة التى تجعل الناس « رغم ما يبذلون من أقصى الجهد ، يعجزون عن الحصول على الضروريات الكافيةلاحتفاظهم بصحتهم وقوتهم» . وقرر بعد دراسة جميع الاحصاءات

الموجودة ، أن عدد أولئك الفقراء فى أمريكا يبلغ عشرة ملايين ، وأن منهم ٤ ملايين ممن يعتمدون على المساعدات العامة سواء أكانت حكومية أم غير حكومية ، بينما لم يجد الباقون أية مساعدة لتخفيف حالتهم التعسة. وقد اعترف ذلك الكاتب بأن تقديره لعشرة ملايين قد يكون أقل من الحقيقة وأن التقدير الصحيح قد يبلغ ١٥ أو ٢٠ مليونا .

— ٣ —

ولكن ما هو المغزى لهذه الحقائق المجردة بالنسبة الى الحياة الانسانية نفسها ؟ ان قراءة تقارير الملاحظين الفنيين الذين قاموا بدراسة مشكلة الفقر فى الأحياء المزدحمة بالسكان فى المدن التجارية والصناعية الكبرى عند مستهل هذا القرن ، لا تخرج عن استعراض ألوان متعددة من بؤس الانسانية وعذابها ، وتتكرر فى هذه التقارير بطريقة تدعو الى الملل والقنوط كلمات الشقاء والازدحام والقذارة والجوع والخوف والفاقة وسوء التغذية .

وقد عبر عن ذلك الكاتب المسرحى جياكوزا Giacosa عقب زيارته للحىّ الخاص بمواطنيه من الطليان فى مدينة نيويورك سنة ١٨٩٨ فقال : « انك لاتستطيع أن تتصور الأوحال والقاذورات والأوساخ والرطوبة الكريهة الرائحة ومنغصات الحياة الكثيرة وعدم النظام الذى يشهده المرء فى الطرقات » . وفى مارس ١٨٩٩ قدم الخبراء المعماريون الى بلدية بوسطن تقريرا عن حالة بعض المساكن التى فحصوها فى شمال المدينة وغربها ، وأشاروا فى تقريرهم الى « الجدران والسقوف القذرة المتهدمة والى ظلمة الحجرات السفلى من المبانى وكثرة ما فيها من مياه آسنة والى الأزقة الممتلئة بالقاذورات وبقايا المأكولات والى مواسير المجارى المكسورة أو التى تنضح بالمياه القذرة ، والى دورات المياه الكريهة المظلمة أو التى تجمدت من زمن طويل حتى أصبحت غير صالحة للاستعمال ، والى المساكن المتهدمة أو الآيلة للسقوط بدرجة خطيرة » .

وكانت تقارير الخبراء تشير المرة بعد المرة الى أن أصل البلاء هو زيادة العمال عن الحاجة ، مما حملهم على قبول أى عمل يعرض عليهم وبأى شروط رغبة فى مجرد الفرار من الجوع . وها هو ذا روبرت هانتر يصف الحالة فى شيكاغو وكأنه يصفها فى مناطق صناعة الصلب فى ولاية بنسلفانيا ، فيقول :

« فى صبيحة أيام باردة ممطرة ، وعند بزوغ الفجر ، كثيرا ما كنت أستيقظ ساعتين قبل موعد يقظتى العادية على أصوات الأحذية ذات المسامير الكبيرة وهى تقرع الأرصفة الخشبية ، دليلا على مرور العمال تحت نافذتى الى المصنع . فكنت أرى رجالا متثاقلين فى مشيتهم ، وقد علت وجوههم الهموم ، ونساء متعبات قلقات ، وبنات تبدو عليهن علائم الاهمال وقلة الكساء،وأولاد نحاف ارتسمت الكآبة على وجوههم ، كل هؤلاء يسيرون صامتين ، يداعب النعاس جفونهم ، ولكنهم يسيرون بخطوات سريعة نحو المصنع الكبير . وهناك غير هؤلاء مئات من الآخرين الذين يدل مظهرهم على أنهم أكثر منهم جوعا وأشد فقرا ، وأولئك يقفون أمام بوابة المصنع المقفلة حتى يخرج اليهم رجل ضخم ذو لحية حمراء ويختار من بينهم ثلاثة وعشرين من أحسنهم مظهرا وأقواهم بنية ، فتفتح البوابة لهؤلاء ، أما الآخرون فانهم يتابعون سيرهم مطرقين وجوههم للبحث عن عمل آخر ، أو يعودون الى مساكنهم أو حاناتهم أو الى الحجرات التى يستأجرونها .. » .

غير أن الذين وصفوا تلك الحالة التعسة وسجلوها ، قد اعترفوا بوجود بعض النواحى المخففة من هذه التعاسة الشديدة . فقد لفت نظر أغلب الزائرين الأجانب أن أكثر الناس جوعا كانوا يرتدون ملابس أحسن مما كان ينتظر منهم أن يرتدوها ، فلاحظ الكاتب الرومانى رافيدج M. E. Ravage عقب مجيئه مباشرة الى الولايات المتحدة أن أحدا من الناس كان لايلبس ملابس مرقعة وأضاف : « انك اذا

حكمت على الناس بملابسهم فانك لا تستطيع أن تميز بين مدير المصرف وخادمه » . وهو فى ذلك كان يردد ما كتبه جياكوزا يصف مشاهداته أثناء ركوبه أحد القطارات الكهربائية المرتفعة بنيويورك ، اذ قال : « ان بعض رجال البنوك فى وول ستريت Wall Street يمكن التعرف عليهم بملابسهم الخاصة ذات التفصيل الانجليزى ، ولكن اذا استثنينا ذلك فان الزائر الأوربى لا يستطيع أن يميز بمجرد النظر بين أبناء الشعب ليحدد مهنة كل منهم أو صناعته أو ثروته أو ثقافته أو درجة تعليمه » . وبعد زيارته لمذابح شيكاغو — وقد وجدها على درجة لاتطاق من القذارة — دهش جياكوزا من مظهر النظافة وحسن الملبس الذى ظهر به العمال عند انصرافهم من أعمالهم الرهيبة .

وعلينا ألا ننسى أن الكثيرين من المهاجرين الذين كانوا يقطنون الأحياء القذرة من المدن ، وجدوا عددا من الأمور الجديدة التى أدخلت السرور على أنفسهم ، فقد قرر رافيدج أنه شعر بالدهشة والاغتباط اذ وجد الصابون يستخدم بوفرة فى الحاجات اليومية ، وأن الباذنجان والطماطم كانت وفيرة فى الشتاء ، كما كانت الجعة« البيرة » تجلب فى وعاء كبير من الحانة الموجودة فى منعطف الطريق ، وكذلك أعربت الطفلة الروسية مارى آنتن Mary Antin عقب وصولها الى أمريكا عن فرط اعجابها بالأغذية المحفوظة فى العلب ، والأفران الحديدية وألواح غسيل الملابس ، ومصابيح الطرقات وقالت : « ما أكثر هذه المصابيح ، فكلها تضىء حتى الصباح كما أخبرنى والدى ، ولذا كان الناس فى غير حاجة لأن يحملوا الفوانيس » . ومما زاد فى اعجابها واعجاب والديها مجانية التعليم العام « فانك لست فى حاجة الى تقديم استمارات ولاتسأل عن شىء ولاتدفع أية رسوم » . وكان والدها يصحب أبناءه الى المدرسة كأنه يقدمهم قربانا لله .

وصحيح أيضا أن أسوأ مظاهر الأحياء الفقيرة أخذت فى التلاشى تدريجا ، نتيجة ليقظة الوعى القومى واهتمام اللجان الرسمية بفحص

الحالة ودراسة المشاكل الخاصة بمساكن الفقراء . ولا شك أن التقرير الذى وضعه جاكوب ريس Jacob A. Rüs فى كتابه الخالد الذى صدر سنة ١٨٩٠ بعنوان « كيف يعيش النصف الآخر » كان له أكبر أثر فى ذلك . غير أن المؤلف لاحظ بعد صدور كتابه بعشر سنوات أن أسوأ مظاهر الفقر قد اختفت من مدينة نيويورك ، وأصبحت الملابس الرثة والقاذورات المتراكمة لاترى على الضفة الشرقية من المدينة الا على سبيل الاستثناء ، بعد أن كانت هى القاعـدة ، وبدئت عملية توفير الحدائق والملاعب وصالات الرياضة لكى تستمتع بها الأحياء الفقيرة فى المدينة ، ولم يكن ذلك الاصلاح مقصورا على نيويورك وحدها ، بل شمل أغلب المدن الأخرى ، لأن التشريعات الجديدة أخذت تحارب أسوأ نواحى الحياة سواء أكانت فى المصانع أم المساكن .

وعلى الرغم من أن الصناعة فى ذلك الوقت كانت تنعم برخاء عظيم فان استمرار تدفق المهاجرين ساعد على بقاء الأجور منخفضة ، خضوعا للقانون الحديدى ، مما أدى الى أن المساكن القذرة والمتهدمة زادت فى قذارتها وتهدمها ، ولهذا كله شعر المصلحون بشىء غير قليل من اليأس نظرا لصعوبة التغلب على الفقر الذى كان من واجبهم مكافحته . وقد قال فى ذلك وودز : « ان أس البلاء أن الناس هنا يقعون منذ مولدهم حتى وفاتهم تحت رحمة العوامل الاجتماعية الكبرى التى تسير فى طريقها كما تسير الأقدار » . ولا شك أن الحالة فى ذلك الوقت جعلت مجرد فكرة « المجتمع الديمقراطى » لا تخلو من السخرية اللاذعة .

وعندما نشر ادوين ماركهام Edwin Markham فى سـنة ١٨٩٩ قصيدته بعنوان « الرجل الذى يحمل الفأس » ، شعر جميع الأمريكيين ، حتى أولئك الذين ليس لهم معرفة خاصة بويلات الفقر ومتاعبه ، بأنهم يقرأون وصفا لظاهرة مبهمة خطيرة ، وأن أبيات القصيدة رسمت لهم صورة لما كانت تحدثه الصناعة الحديثة من آثار سيئة فى الرجل العادى ، وما قد تحدثه لهم أنفسهم اذا تركت الأمور على علاتها ، واذا لم يبذل مجهود

خاص لوقف مفعول العوامل الاجتماعية القائمة ، أو دفعها الى النكوص على أعقابها . وقد وصف ماركهام العامل بأنه رجل « تظهر على وجهه سمات اليأس الذى ولدته الأحقاب » «كما يحمل على ظهره أعباء العالم بأسره » .

وانتهت القصيدة بهذه الكلمات :

« ياسادة العالم ونبلاءه وحكامه ، ماذا يخبئه المصير لهذا الرجل ، وكيف يكون الجواب على الأسئلة التى تنفجر من قلبه ، عندما تعصف زوابع الثورة وتهز جميع الأوطان ، وماذا يكون مصير الممالك والملوك ، أولئك الذين هبطوا به الى الدرك الذى يتردى فيه ، ماذا يكون الموقف عندما ينهض ذلك الرعب الصامت وينطق بحكمه على العالم ، بعد سكوت ظل أجيالا متتالية » .

وانا فى منتصف القرن العشرين ، نستطيع قراءة هذه السطور المليئة بالنذر والتنبؤات الوبيلة ، وأن نقرر مع ذلك أنها لم تنطبق على الولايات المتحدة على الأقل . ولكن مما يلفت النظر أن عددا كبيرا من الأمريكيين عند بداية القرن الحالى كانت تخامرهم الظنون عن مغزى هذه النذر الخطيرة ، وعما اذا كان ذلك « الرعب الصامت » الذى سوف يلقى « بالأسئلة المتفجرة من قلبه » ، سيحرك « زوابع الثورة حتى تعصف بالأوطان » لا فى أوربا وحدها بل فى الولايات المتحدة أيضا ، حيث كانت مظاهر الغنى الفاضح تقف وجها لوجه أمام مظاهر البؤس البشرى الذى يفتت الأكباد .

الفصل الرابع

الرأسمالية الحقيقية

عاش فى نيويورك خلال القرن التاسع عشر رجل لم يكن يعرف شيئا عن علم الاقتصاد ، وكان محدود الفكر الى درجة كبيرة ، ولكنه مع ذلك كان أبعد أثرا وأظهر نفوذا فى شحذ همم رجال الأعمال الأمريكيين وتوجيه تفكيرهم من جميع أساتذة الاقتصاد فى نهاية القرن الماضى ، وكان هـذا الرجل يدعى هوريشيو ألجر الصغير Horatio Alger Junior ، وعند وفاته عام ١٨٩٩ كان كل ما قام به أنه ألف ونشر أكثر من مائة كتيب للأولاد ، بلغ مجموع ما وزع منها ما لا يقل عن عشرين مليونا من النسخ ، وكانت كل هذه الكتيبات تدور حول موضوعات متشابهة تتصل بمواجهة مصاعب الحياة وخير الوسائل للتغلب عليها ، وكانت تحمل أمثال الأسماء الآتية : « مصمم على النجاح » ، « الحظ وروح الكفاح » ، « السباحة أو الغرق » ، « توم ماسح الأحذية » ... الخ .

وكانت هذه الكتيبات الرخيصة بمثابة منارات للارشاد عن أفضل الطرق للوصول الى النجاح ، وان كانت تعد فى نظر المتعلمين تافهة الى حد كبير من حيث المبنى والمعنى ، ومن حيث بعدها عن مطابقة الحقيقة ، ومع ذلك فقد أدخلت السرور على قلوب الملايين من صغار الأمريكيين ، فى الفترة الواقعة مابين الحرب الأهلية الأمريكية والحرب العالمية الأولى . ويغلب على الظن أن الكثرة العظمى من أولئك الأطفال حصلوا من هذه الكتيبات على أول صورة معقولة للحياة الاقتصادية الأمريكية بطريقة تقبلها عقولهم وتستسيغها أفهامهم .

وقد كان البطل التقليدى فى كل روايات هوريشيو ألجر هو صـبى يتيم فى نحو الخامسة عشرة ، اضطرته ظروف الحياة الى أن يعمل لكسب العيش فى مدينة كبيرة ، كانت هى فى الغالب مدينة نيويورك ، وكان يحيط به عدد كبير من الأشرار ، ولكنـه كان على الدوام قويا وذكيا وشجاعا ، على حين كان أولئك الأشرار جبناء أغبياء ، وكان كل من هذه الكتب ينتهى بنهاية متشابهة ، وهى نجاح البطل فى تكوين ثروة طائلة بفضل ما اتصف به من فضائل النشاط والأمانة والمثابرة وعدم التبذير .

ورمى الكاتب من وراء كل ذلك الى هدف واحد واضح ، ألا وهو أن حياة الأعمال لا تخرج عن كونها متاجرة بين الأفـراد والمجموعات الصغيرة من الناس ، وانك اذا اشتغلت بجد واقتصدت من مالك فالنجاح مضمون لك .

ولا مراء فى أن فكرة الكاتب كانت صحيحة فى مجموعها ، بدليل أن جون روكفلر John D. Rockefeller بدأ حياته كاتبا بمرتب لا يزيد على ٤دولارات فى الأسبوع ، فىمكتب وسيط أعمال « قومسيونجى » فى مدينة كليفلاند ، ثم أصبح فى بداية القرن العشرين من عداد أغنى أغنياء العالم ، وكذلك حال أندرو كارنيجى Andrew Carnegie الذى بدأ حياته فى الثالثة عشرة فى أحد مصانع غزل القطن فى بتسـبرج بمرتب ١ر٢ دولار فى الأسبوع ولم يلبث أن صار أكبر منتجى الصلب فى بلاده، ولا يختلف حال أدوارد هاريمان Edward H. Harriman عن ذلك ، فقد بدأ حياته صبيا يعمل فى مكتب أحد الوسطاء بمرتب ٥ دولارات فى الأسبوع ثم أضحى فيما بعد صاحب أكبر عدد من الخطوط الحديدية . أما فيما يتعلق بالاقتصاد وعدم التبذير ، فقد كان المثل الأعلى لذلك هو رجل المصـارف الكبير جورج فيشر بيكر George Fisher Baker الذى كان فى البداية كاتبا صغيرا ولكنه فى السنوات الأولى من زواجه فرض على نفسه وعلى زوجته أن يعيشا على نصف دخلهما وأن يدخرا النصف الآخر . هذه أمثلة قليلة مما يثبت صحة النظرية الأمريكيةللنجاح

فى الحياة ، والنتيجة المنطقية لهذه النظرية هى أن الفقراء منكوبون بالفقر بسبب ما هم عليه من كسل وغباوة واسراف .

ومن الطبيعى أن هذه النظرية استهوت أفئدة الناجحين من رجال الأعمال اذ ذاك ، لأنهم كانوا يعتبرون أن المبادىء القائمة عليها كانت هى المبادىء الأساسية لعلم الاقتصاد ، غير أن للانسان أن يتساءل عما اذاكان هؤلاء لم يتعلموا فى مدارسهم أن علم الاقتصاد ليس على هذا القدر من البساطة .

وللاجابة على هذا التساؤل نلاحظ أن أكبر الناجحين من رجال المال والأعمال فى سنة ١٩٠٠ لم يدرسوا شيئا من علم الاقتصاد على الاطلاق ، بل كان صدرهم يضيق بهذا العلم اذا أتيحت لهم فرصة الاطلاع على بعض نواحيه ، فكانوا يعتقدون أن أساتذة الاقتصاد نفر من الرجال النظريين ، الذين لا دراية لهم بالحياة العملية ، ولذا كان الرجل الناجح فى الحياة يفاخر بأنه تخرج من « كلية الضربات القاسية » .

وبالرغم من ذلك ، فالواقع أن عدد من درسوا فى الجامعات وتخرجوا من كلياتها عند بزوغ شمس القرن الحالى ، كان يقدر بمئات الآلاف من الأمريكيين ، ولا شك أن بعضهم قد درس علم الاقتصاد ضمن برامجه ، فما الذى تعلمه هؤلاء فى الحقيقة عن الحياة الاقتصادية ؟ الحق أنه على الرغم من أن عددا قليلا من المستقلين فى الرأى بدءوا منذ أواخر القرن التاسع عشر يعملون على تجديد علم الاقتصاد ، وزيادة ارتباطه بظروف الحياة المتغيرة فى عالم الصناعة والمال ، الا أن أغلب طلاب الجامعات كانوا يقنعون بدراسة علم الاقتصاد كما كان معروفا فى بداية عهده ، أى فى الوقت الذى كان يسيطر على أفكار الاقتصاديين الأقدمين الاعتقاد بأنه اذا كان فى مقدور علماء الطبيعة أن يستنتجوا القوانين التى تفسر ظواهر العالم الطبيعية ، فانه ينبغى على الاقتصاديين بدورهم أن يستخلصوا القوانين الاقتصادية التى تفسر النشاط الاقتصادى فى حياة الأفرادوتتحكم فيه ، ومن أمثلة تلك القوانين قانون العرض والطلب وقانون تناقص الغلة

وقانون جريشام بأن النقود الرديئة تطرد النقود الجيدة . وكان الاقتصاديون، سعيا وراء تدعيم نظرياتهم ، يفترضون أن الأفراد يعملون فى الظروف العادية على ايجاد التوازن بين ما يباع وما يشترى ، أى بين العـرض والطلب ، وبهذه الوسيلة يتضح بطريقة آلية مقدار ما يكتسبه العامل وما يكتسبه صاحب العمل ومقدار الفائدة التى تعود على رأس المال المستثمر . أما ما أصبح معروفا فى القرن العشرين عن الاقتصاد القومى والدخل القومى ومجموع الانتاج القومى ، والارتباط المتبادل بين مختلف المنظمات والهيئات الاقتصادية ، فان كل ذلك لم يدخـل فى حسـبان الاقتصاديين الأقدمين ، اذ كانت كل آرائهم منصبة على الأفراد على اعتبار كونهم وحدات مستقلة فى المجتمع .

ومما تجدر ملاحظته أن تلك النظريات التى ابتدعها الاقتصاديون قد امتلكت عليهم عقولهم فأصبحوا يميلون الى الاعتقاد بأن كل ما يخالف تلك النظريات لابد أن يكون ضارا أو مرذولا . وبالجملة كانوا ينادون بنظام المجتمع الاقتصادى الحر : « اتركه يعمـل . Laissez Faire » بمعنى أن الأمور تسير على أحسن حال اذا تركت حرة من غير تدخل ، ولذا كان أطيب الناس قلبا وأكثرهم حبا للخير ينادى بأن التشريع للتدخل فى شئون الأجور وساعات العمل كان عملا ممقوتا ولا يتفق مع المصلحة فى شيء .

وكان أبلغ المعارضين لكل تدخل أو تعديل فى القوانين الاقتصادية رجلا ذا حيوية ونشـاط عظيمين ، يدعى وليـام جراهام سمنر William Graham Sumner ، وكان أسـتاذا شهيرا لعلم الاقتصـاد فى جامعة ييل Yale ويعتبر مؤلفه الذى صدر سنة ١٨٨٣ بعنوان « ما تدين به بعض الطبقات الاجتماعية لبعضها » أكبر هزيمة حاقت بالمجددين من الاقتصاديين فى ذلك العهد .

وقد كان سمنر لا يعارض فى امكان وضع التشريعات اللازمة لحماية من يعجزون عن كسب معاشهم ، ولكنه كان يؤمن بأن أغلب ما يسمى

تشريعا اصلاحيا ، كان مبنيا على خطأ فى التفكير وفساد فى التصميم .
ولقد كان هذا الأستاذ يقول لطلابه فى جامعة Yale : « انكم تخطئون اذا ظننتم أنه من الضرورى أن تهيمن الحكومة فى واشنطن على المصير السياسى لهذه البلاد ، فان الله سبحانه وتعالى قد سبقها الى ذلك وبطريقة أجدى وأنفع ، وذلك بفضل القوانين الاقتصادية » .

وقد كان سمنر جادا فيما قاله كما كان جون روكفلر عندما قال : « لقد منحنى الله كل ما أملك من مال » . اذ اعتقد كلاهما أن القوانين الاقتصادية رحيمة بطبيعتها وأن كل ما يطلب منا هو أن نتركها لتسير فى طريقها المرسوم دون أية معارضة ، فاذا تبين أنها تغدق النعم على رجل واحد وتترك الباقين ليعيشوا على الفتات فان ذلك هو قضاء الله .

غير أن الأقدار كثيرا ما كانت تسخر بالانسان ، بدليل أن أجيالا متعاقبة من الناس ظلت تستخدم القوانين الاقتصادية لمصلحتها ، فأنشأت المؤسسات المختلفة التى لايمكن اعتبارها بأى حال من صنع الله ، بل كانت من صنع الانسان . ومثال ذلك الشركات الكبرى وهى من غير شك اختراع بشرى خاضع للدولة ، تتحدد بالتشريع حقوقه وسلطاته ، وتعتبر تلك الشركات من أهم مخترعات القرن التاسع عشر بفضل ما أدته من خدمات جليلة للصناعة والتجارة بوجه عام . غير أنه لم يكن عسيرا أن تتلاعب الشركات بالتشريعات التى نظمت حقوقها ولذا تيسر لشركة معينة أن تسرق شركة أخرى وتستولى على كل أعمالها وأن تحرمها من كل نشاط . فهل بعد ذلك يجوز الدفاع عن مثل هذه الاجراءات بحجة السماح للقوانين الاقتصادية بأن تسير فى مجراها من غير تدخل ؟

وأعترف أنى قضيت ساعات مسلية فى دراسة بعض روايات هوريشيو ألجر لكى أتبين طريقة حصول البطل فيها على الثراء الواسع ، فوجدت أن البطل فى المراحل الأولى من حياته ، كان يكتسب ثمرات متواضعة بجده واجتهاده كأن يرتفع أجره الأسبوعى من ٥ الى ١٠ دولارات ، ولكن ذلك لا يعتبر شيئا مذكورا ، كما لاحظت أن البطل فى نهاية كل كتاب يجد

وسيلة ما للحصول على رأس مال ضخم . وقد يكون ذلك عن طريق الميراث كأن يتضح أن ذلك الفتى اليتيم الرث الثياب ، كان فى الواقع ابنا لرجل يملك أسهما فى احدى شركات التعدين ، وكان يظن أن تلك الأسهم عديمة القيمة الى أن تبين أنها تساوى ١٠٠٫٠٠٠ دولار ، أو قد يكون رأس المال هذا نتيجة لهبة سخية من أحد الأغنياء الذين أعجبوا بشجاعة ذلك الشاب وجرأته عندما قام بانقاذ ذلك الغنى من أيدى قطاع الطرق ، ولذا يمنحه الغنى هبة مقدارها ٥٠٫٠٠٠ دولار .

ومن الواضح أن هذه الكتب لم تكن ترمى الى اظهار أن العمل الجدى لا يأتى الا بثمرة صغيرة ، وأن أضمن وسيلة للنجاح هى أن يكون المرء على صلة وثيقة بالأغنياء ، وانما رمت الى اظهار أن رأس المال يهبط كمنحة من السماء للشخص الذى يبذل جهدا كبيرا ، ويضع قروشه القليلة فى صندوق التوفير ويحرم نفسه من كل المجتمعات . فلتعمل ولتقتصد ولتكن ولدا طيبا ، وبعد قليل سوف تهبط عليك الثروة وعندئذ ستكون أسعد الناس .

ولعل روايات هوريشيو ألجر تساعدنا على أن نفهم كيف أن رجال الأعمال فى ذلك العهد كانوا يعتقدون بأن الثروة هى ثمرة الفضيلة وأن الفقر نتيجة التواكل والتكاسل ، وأن القوانين الاقتصادية يجب أن تترك من غير تدخل ، ولكنهم مع ذلك كانوا يوجهون المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية توجيها يختلف كل الاختلاف عن هذه المبادىء . وعلينا الآن أن ندرس بعض هذه المؤسسات لنتبين صحة ذلك .

— ٢ —

كانت الرأسمالية فى سنة ١٩٠٠ هى الرأسمالية بمعناها الصحيح . فكان رجال الأعمال يشرفون بأنفسهم على كل الأعمال التى يمتلكونها ويتحكمون فى رأسمالها ، ولم يكن اذ ذاك معروفا ما أسماه بول هوفمان Paul Hoffman « توزيع السلطة لاصدار القرارات » أى أن تكون

القرارات الهامة التى تصدر عن هيئة صناعية أو تجارية معينة موكولة الى مجلس ادارة يشترك فى تحمل مسئولية اصدارها . وكان مما لايقبله العقل وقتئذ ما يحدث فى الوقت الحاضر من قيام رجل بادارة شركة والتصرف فى مصيرها دون أن يملك غير جانب ضئيل من أسهمها . ولقد كانت الشركات الكبرى تنتج فى ذلك الوقت ما يعادل ثلثى الانتاج الصناعى ، بينما ينتج الملاك الأفراد أو الشركاء الثلث الباقى ، وفضلا عن ذلك كانت الشركات الكبرى فى ذلك العهد ضئيلة اذا قورنت بما آلت اليه فيما بعد ، اذ لم يزد عدد المساهمين فى أية واحدة منها على ٦٠٫٠٠٠ ، ولنأخذ مثلا لذلك شركة التلغراف والتليفون الأمريكيةالتى لم يزد حملة أسهمها عام ١٩٠٠ على ٧٫٥٣٥،بينماوصل عددهم سنة١٩٥١ الى قرابة المليون ، وكذلك يقال عن الشركات الأخرى مثل شركة سكك حديد بنسلفانيا التى كان عدد مساهميها ٥١٫٥٤٣ ، وعدد المساهمين فى شركة يونيو باسفيك ١٤٫٢٥٦،وفى شركةالولايات المتحدة للصلب٥٤٫٠١٦.

وكان رئيس الشركة فى أغلب الأحيان رجلا بدأ بفكرة معينة وبمبلغ من المال للانفاق منه على تنفيذها ، سواء أكان المال ملكا له أم لأصدقائه، واذا كانت الشركة قد أسست منذ فترة من الوقت ، فيغلب أن يكون رئيسها وارثا أو مشتريا لأغلب الأسهم ، ولذلك كان يتمتع بحرية كبيرة فى التصرف كيفما أراد فيما يملكه ، دون أن تحد القوانين والتقاليد من هذه الحرية الا قليلا . وكان رئيس الشركة يشعر بأن طريقته فى ادارة شئون شركته أمر لا يعنى أحدا سواه ، فكانت بعض الشركات نتيجة لذلك لا تقدم أى تقرير سنوى للمساهمين عن أعمالها ، وكان البعض الآخر يقدم تقارير مقتضبة ، والأقلية هى التى كانت تقدم تقارير وافية ، ويستدل على ذلك من أن شركة ويستنجهاوس Westinghouse لم تعقد أى اجتماع سنوى للجمعية العمومية لحملة أسهمها فيما بين سنة ١٨٩٥ وسنة ١٩٠٥ ، وكذلك شركة«اكسبريس الولايات المتحدة» التى ظلت سنة بعد أخرى لاتعقد أى اجتماع للجمعية العمومية ولاتقدم

أى تقرير عن أعمـالها . ويقال مثـل ذلك عن شركة تكرير السكر الأمريكية ، التى بلغ عدد حملة أسهمها ١٠٫٠٠٠ والتى لم تقدم أى تقرير اليهم بدورها ، وكان كل ما يمكن استخلاصه من أعمالها هو ما يرد فى صحيفة أرقام ميزانيتها ، وهى الصحيفة التى كانت تقدم للوزير المختص فى الولايات لكى تحصل منه على تجديد الترخيص لها بالاستمرار فى العمل ، وكانت هذه الميزانية لا تشمل الا أربعة أرقام مقتضبة فى «خانة» الأصول وثلاثة فى « خانة » الخصوم .

واذا كان المبدأ السائد وقتئذ هو أن الأقلية من حملة الأسهم لا حق لها فى معرفة شىء عن أعمال الشركة فان ذلك كان ينطبق أيضا على الحكومة وعلى المحاكم ، ويتبين هذا من سجلات اللجان الحكومية والقضايا التى نظرت أمام المحاكم فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، اذ نجد فيها أمثلة كثيرة لرجال يقولون ويرددون ما قاله ويليام روكفلر عنـد استدعائه للادلاء بأقواله فى قضية خاصة بأجور السكك الحديدية :«انى أعتذر عن الاجابة عن هذا السؤال بناء على نصيحة المحامى » . ولا نعتقد أنه كان يحاول اخفاء بيانات ليس من المصلحة اظهارها ، وانما كان يريد منع الأفراد من أن يتدخلوا فيما لا يعنيهم ، على أساس أن الشركة خاصة به وليس من شأن أحد أن يعرف أسرارها . وقد نشأت فى ذلك الوقت طائفة من الماليين الذين احترفوا التحكم فى بعض الأعمال — لاسيما شئون السكك الحديدية — بالتصرف فى غالبية أسهمها بالبيع أو الشراء كما لو كانت هذه الشركات قطعا من الشطرنج تحركها الأيدى حيثما تريد . ولم يكن لأولئك الماليين أى اهتمام بنشاط الشركة أو انتاجها الفعلى بل كان كل همهم اكتساب الأرباح بوساطة بيع الأسهم وشرائها . وبهذه الطريقة ظهر أكبر المتحكمين فى السكك الحديدية فى القـرن العشرين هاريمان Ha. Hr. Eriman ، الذى بدأ نشاطه بشراء غالبية الأسهم فى احدى شركات السكك الحديدية التى كانت فى مركز مالى مهدد ، وكان غرضه من ذلك تحسين معدات الشركة ، ثم اعادة بيع نصيبه من

أسهمها بربح وفير لشركة سكك حديد بنسلفانيا أو شركة سكك حديد نيويورك المركزية ، وهذا هو ما قام به فعلا بعد سنوات قليلة .

غير أنه كانت هناك وسائل أخرى غير هذه الوسيلة المشروعة للتحكم فى الشركات والسيطرة عليها ، ومن أكثرها انتشارا تلك التى كان يتبعها أخطر المغامرين الماليين فى ذلك العهد جاى جولد Jay Gould الذى كان يستحوذ على غالبية الأسهم فى شركة معينة ، ثم يحملها على الارتباط بأعمال كثيرة مع شركة أخرى تقع تحت سيطرته ، وتؤدى هذه الأعمال الى نقل أموال الشركة الأولى الى الثانية ، حتى اذا تمكن من امتصاص أموال الشركة الأولى تخلى عنها وتركها مهددة بالافلاس .

وقد ظهر فى ذلك الوقت أيضا عدد ممن يتلاعبون برؤوس أموال الشركات ، وهم المضاربون فى بورصة الأوراق المالية — وكانت الشركات فى نظرهم ليست هى الأفراد الذين يعملون فيها أو يديرونها ، ولا هى الآلات والمبانى التابعة لها أو المصنوعات التى تنتجها ، وانما كانت مجرد أسهم تتغير أسعارها فى بورصة الأوراق المالية بين ساعة وأخرى .

وكان يحدث أحيانا أن التنافس بين طائفتين من الأفراد الذين يحاولون السيطرة على شركة معينة بوساطة شراء أسهمها فى البورصة ، يؤدى الى أوخم العواقب . وعلى سبيل المثال نذكر ما حدث فى ربيع سنة ١٩٠١ عندما كان أنصار كل من الماليين الكبيرين مورجان وهاريمان يتنافسون للسيطرة على شركة سكة حديد برلنجتون Burlington ، وكان غرض مورجان من ذلك هو أن يضيفها الى شبكة الخطوط الحديدية التابعة له والمعروفة باسم شركة الباسيفيك الشمالى Northern Pacific على حين كان هاريمان يرمى من جانبه الى اضافتها الى شبكة الخطوط الحديدية التابعة له والمعروفة باسم الباسيفيكى المتحدة Union Pacific وقد اهتدى الأخير الى فكرة جريئة توصله الى غرضه ، ألا وهى شراء غالبية الأسهم فى شركة الباسيفيكى الشمالى نفسها دون أن يشعر منافسه القوى بذلك ، واستطاع أن يحصل على عدد كبير من

الأسهم فى هدوء وسرعة فائقة ، فلما استيقظ أنصار مورجان الى الخطر المحدق بهم ، بدءوا فى شراء هذه الأسهم بحماسة شديدة . وقد أدى ذلك الى أن عددا كبيرا من المغامرين فى وول ستريت — رغبة منهم فى الاستفادة من الارتفاع المستمر فى أسعار أسهم الباسيفيكى الشمالى — أخذوا يبيعون منها أكثر مما يملكون ، أملا منهم فى أن يتمكنوا من شراء ما ينقصهم من الأسهم عندما تهبط الأسعار فيما بعد . وقد نتج عن ذلك أن أنصار مورجان وهاريمان اشتروا فيما بينهم عددا من الأسهم أكثر من العدد الموجود بالفعل ، فلما وصل ثمن السهم الواحد الى ألف دولار ، انتشر الذعر فى السوق وأفلس كثيرون ممن باعوا أكثر مما يمتلكون من أسهم ، ولذا اضطروا الى أن يبيعوا بقية ما يمتلكون من أسهم الشركات الأخرى لتغطية مركزهم .

ولا يتصور الانسان أن يحدث مثل هذا الذعر فى الوقت الحاضر لأن عمليات بورصة الأوراق المالية محاطة بقيود متعددة تحول دون ذلك . أما فى سنة ١٩٠١ فان المشتغلين بشراء الأسهم وبيعها كانوا أحرارا فيما يفعلون مهما نتج عن المنافسة الشديدة بينهم من الأضرار الكبيرة بغيرهم.

وكان أغلب رجال الأعمال يؤمنون بمبدأ المنافسة الحرة ، غير أن ذلك كان لا يعدو الكلام النظرى،فحسب،أما من الوجهة العملية فكانت هناك محاولات مستمرة لمنع المنافسة لكى تستطيع الشركات أن ترفع من أسعارها وتزيد فى أرباحها .

وقد ابتدع صمويل دود Samuel C. T. Dodd . محامى جون روكفلر وسيلة ناجعة لتحقيق ذلك . ففى سنة ١٨٧٩ أقنع أصحاب أربعين شركة من شركات البترول أن يضعوا ما لديهم من أسهم فى أيدى مجموعة من الأوصياء على رأسهم روكفلر ، لكى تتمكن هذه المجموعة من أن تدير الأربعين شركة كأنها وحدة لا تتجزأ ، فتفرض ما تراه من أسعار وبذا تقضى على الشركات المنافسة الأخرى . ومن هنا بدأت كلمة « ترست Trust » أى « وصاية » تأخذ معناها المعروف . وقد ظهر

فى الميدان عقب سنة ١٨٨٠ عدد غير قليل من هذه المنظمات « ترست » الضخمة التى اختص كل منها بالسيطرة على التجارة فى السكر والمطاط وأعمال القصابة « الجزارة » الخ .. غير أن هذا الاتجاه أثار صيحات الاحتجاج الشديد من جمهور المستهلكين ومن الرجال الذين صارت أعمالهم مهددة بظهور هذه المنظمات ، ونتج عن ذلك أن سارعت الولايات الى اصدار القوانين التى تحرم هذه المنظمات . ومن أشهر هذه القوانين قانون شرمان لتحريم نظام الوصاية Sherman Anti - Trust Act الذى صدر سنة ١٨٩٠ .

وفى هذه الأثناء استطاع محام آخر أن يكتشف وسيلة جديدة لتكوين الشركات الضخمة،وذلك فى سنة١٨٨٩عندما طلب حاكم ولاية نيوجرسى New Jersey من محاميه المدعو جيمس دل James B. Dill أن يبحث له عن وسيلة لزيادة ايرادات الولاية ، فاقترح المحامى وسيلة طريفة للوصول الى ذلك ألا وهى اصدار قانون يسمح للشركات المسجلة فى تلك الولاية بشراء أسهم الشركات الأخرى ، وهو أمر كان غير مصرح به وقتئذ . وعندما صدر ذلك القانون ، أقبل عدد كبير جدا من الشركات للتسجيل فى ولاية نيوجرسى ، فزادت ايرادات الولاية بسبب كثرة رسوم التسجيل ، وبهذا دخلت الرأسمالية الأمريكية فى طورجديد، ويعزى ذلك الى أن الشركات المتنافسة أصبحت تستطيع أن تكون من نفسها مؤسسة ضخمة تتحكم فى الأسواق وتقضى على المنافسة فيما بينها دون حاجة الى الالتجاء لنظام الوصاية « الترست » الذى كان محرما بحكم القانون ، وذلك بانشاء شركة قابضة تستطيع أن تشترى أسهم الشركات الأخرى أو بعبارة أدق — أن تبادل أسهم تلك الشركات بأسهمها ، وعندئذ تصبح الشركة القابضة متحكمة فى نشاط الشركات جميعا .

وقد انتشر تكوين الشركات القابضة انتشارا وبائيا فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، وبخاصة فى صناعة الصلب ، مما أدى

الى ظهور عملاق جديد بين الشركات ألا وهو شركة الولايات المتحدة للصلب ، التى كانت تعتبر أكبر منظمة صناعية عرفها العالم حتى ذلك الوقت .

ومما زاد فى اقبال الناس على انشاء هذه الشركات القابضة — فى صناعة الصلب كما فى غيرها — أنهم وجدوا فيها فرصة لكسب الأموال الطائلة وبسرعة فائقة . فلقد تبين أنه يمكن تشجيع الجمهور على شراء أسهم هذه الشركات بأسعار تزيد كثيرا عن مجموع أسعار أسهم الشركات الفرعية التى تتكون منها . وكلما تكونت شركة قابضة قفزت الأسعار الى الارتفاع بحيث أصبح الرجل الذى يملك مجموعة كبيرة من أسهم شركة من شركات الصلب الصغيرة مثلا — وقد تكون شركة فى حالة مالية سيئة — يجد نفسه فجأة مالكا لمجموعة من الأسهم فى شركة كبيرة كشركة القصدير الأمريكية ، وبعد عامين أو أكثر يصبح مالكا لمجموعة من أسهم أعلى ثمنا وأكثر ربحا لأنها أصبحت من أسهم شركة الولايات المتحدة للصلب ، وعندئذ تهبط عليه ملايين الدولارات كأنها نزلت من السماء . ولم يكن الكسب الواسع مقصورا على حملة الأسهم فحسب ، بل شمل أيضا رجال المصارف والمروجين لأسهم الشركات الجديدة ، بدليل أن الشركة التى أشرفت على ترويج أسهم شركة الولايات المتحدةللصلب، حصلت على ما لا يقل عن ٦٠ مليونا من الدولارات فى مقابل ذلك ، وكان نصيب مورجان وشركائه من هذا المبلغ ١٢ مليونا من الدولارات ، فى مقابل الاشراف على هذه العملية الضخمة .

وعلى الرغم من أن شكوى الجمهور لم تنقطع من هذا التنظيم الجديد الذى ظل يسميه بالوصاية « الترست » . وعلى الرغم من أن هـذه الشكوى كانت تنطق بما يشعر به الناس من خوف من أن تكوين هذه المنظمات الجبارة سوف يأخذ بخناق البلاد ويقضى على صغار التجار والمنتجين ، الا أن أولئك العمالقة الذين ظهروا فى ميدان الصناعة كانوا يثيرون من الاعجاب بقدر ما يثيرون من الخوف ، ويرجع ذلك الى أن تلك الشركات الجديدة استطاعت أن تخفض كثيرا من مصروفات الانتاج بسبب

توحيد الادارة،ولذا ساعدتعلى ظهورالانتاج الكبير Mass Production وهو من أهم سمات الصناعة الحديثة . ومن هذا يتضح أن رجال المصارف ورجال الصلب الذين كانوا يتلاعبون برؤوس أموال الشركات ولا غرض لهم سوى الحصول على المكاسب الضخمة ، قد خلقوا فى أمريكا شيئا جديدا ألا وهو الصناعة كما يعرفها القرن العشرون ، وهى صناعة ما زالت بحاجة الى تنظيم ولكنها غنية بما تتيحه من فرص التقدم والرخاء .

وهناك أمران آخران يستحقان الملاحظة فيما يتعلق بهذه الشركات العاتية ، أولهما ان كبار الأغنياء كان لهم فضل فى تكوينها وارساء قواعدها أكثر من فضل الشركات التى اشتركت فى تكوينها ، وكان ذلك بدرجة لا يمكن حدوثها اليوم ، لأن الصناعة والتجارة الأمريكية لم تكن خاضعة للتنظيم كما هى فى الوقت الحاضر ، ولذا كان للرجل الغنى نفوذ أكبر من نفوذ المؤسسة الغنية .

والأمر الثانى يتعلق بنوع الرجال الذين أظهرتهم تلك الشركات الضخمة ورفعتهم الى القمة ، ويتبين ذلك من حالة شركة الصلب على سبيل المثال ، فعلى الرغم من أن أندروكارنيجى كان أول المشتغلين بصناعة الصلب وأكثرهم أهمية فيها ، الا انه لم يكن له ضلع كبير فى تكوين هذه الشركة الضخمة ، اذ كان المحرك لها والمسيطر عليها هو رجل المصارف مورجان J.P.Morgan الذى لم يشتغل قط بصناعة الصلب ، كما كان ساعده الأيمن رجلا غير مشتغل بصناعة الصلب بدوره ألا وهو محامى الشركات المشهور ، القاضى ألبرت جارى Albert H. Gary .

وقد سبق أن قلنا انه فى هذا العصر الذى شهد الرأسمالية غير المقيدة ، كانت الشركات خاضعة تماما للرجل الذى يملكها ويتصرف فيها تصرف المالك فى ملكه . غير ان هذا الرجل كان مهددا على الدوام بالوقوع تحت نفوذ أصحاب المصارف ، الا اذا كان من الأفراد الناجحين فى أعمالهم نجاحا فذا مثل هنرى فورد فيما بعد ، والذين يعلمون بذكائهم الفطرى ضرورة اضافة الأرباح الى رأس المال حتى يسير العمل فى توسع وازدياد

على مدى الزمن . وقد استمد رجال المصارف نفوذهم من انهم كانوا يتحكمون فى مد رجال الصناعة بما يحتاجون اليه من قروض فى السنوات العجاف . واذا كان رجل الأعمال بحاجة الى اعادة تنظيم شركته أو بيع أسهمها وسنداتها فى السوق ، فقد كان لرجال المصارف القدرة على تسهيل هذه العملية أو تصعيبها ، ولهذا كانت السيطرة على رؤوس الأموال أكثر أهمية فى ذلك الوقت من امتلاك رأس المال نفسه .

ولقد كان « مورجان » من رجال المصارف ومروجى الشركات فى نفس الوقت ، كما كان « جارى » محاميا للشركات الضخمة ومروجا لها أيضا ، مما جعل من رجل المصارف ومحاميه قوة كبيرة تهيمن على أكبر الشركات . والواقع ان مورجان كان فى بداية القرن العشرين متجها نحو السيطرة على الصناعة الأمريكية ، حتى أصبح أوسع المواطنين نفوذا فى الولايات المتحدة ، اذ كان يسيطر أو يوجه الشركات الكبيرة التى امتلكت أهم سكك حديد البلاد ، ولم يكن ذلك راجعا الى انه من رجال السكك الحديدية بل لأنه كان لايبارى فى التنظيمات المالية ، مما أدى الى أن شركات الخطوط الحديدية الكبرى عندما اصطدمت بالأزمات المالية ، كما حدث عقب سنة ١٨٩٠ ، كانت تلجأ اليه على اعتبار كونه أقدر الرجال على اقالتها من عثرتها ، نظرا لضخامة رأس مال المؤسسة المالية التى كان يسيطر عليها وبسبب سمعته الكبيرة ونفوذه الأدبى فى وول ستريت Wall Street، كما انه اشتهر بشدة تمسكه بحسن ادارة المؤسسات التى كان يوافق على اقراضها ما تحتاج اليه من مال . وقد كان من المعروف أن « مورجان » اذا أشرف على اعادة تنظيم شركة من شركات السكك الحديدية ، فانه كان منذ البداية يملى عليها سياستها أو على الأقل يتدخل فى تلك السياسة كلما اقتضى الأمر . وكان فوق ذلك قوة يعتد بها بين رجال المصارف اذ استطاع بالاشتراك مع أعوانه أن يصبح بمرور الزمن من العناصر الرئيسية فى توجيه سياسة المصارف الكبرى فى نيويورك ، فلما جاءت سنة ١٩٠١ ، كان مورجان فوق

كل ما سبق الرجل الأول فى صناعة الصلب الكبرى ، وكان متجها للبحث عن ميادين صناعية أخرى ليصول فيها ويجول . والحق ان السلطان الذى كان يتمتع به هذا الرجل كان غير واضح المعالم ولكنه كان كبيرا ومتزايدا .

وكان « مورجان » شديد السخط على الماليين المغامرين الذين كانوا يقتحمون السوق المالية لبيع الأسهم وشرائها دون رعاية لمصالح الشركات التى يتلاعبون بشئونها . فقد كان من مبادئه ألا يهجر الشركات التى يقوم بتمويلها وانقاذها ، لأن هذا فى نظره كان من واجبات الرجل المهذب . والحق أن نزاهته كانت صلبة كالجمود . ومما يحكى عنه أنه قال: «انى اذا كنت لا أثق فى رجل فلن أقرضه مالا ، ولو قدم الى كضمان جميع سندات العالم » ولا مراء فى أن تأثير « مورجان » فى توجيه الشئون المالية نحو الاستقامة والشرف كان تأثيرا بليغا ، ولكنه كان فى الوقت نفسه يدفع دفعا قويا الى تركيز السيطرة على الاقتصاد الأمريكى فى أيدى أقلية ضـئيلة .

وعندما أعلن فى ربيع سنة ١٩٠١ نبأ تكوين شركة الولايات المتحدة للصلب ، ظهرت علامات الأسى فى تعليقات الناس حتى أشدهم تمسكا بالقديم . وقد قال هادلى Hadley مدير جامعة ييل Yale بهذه المناسبة « انه اذا لم توجد وسيلة للحد من هذه المؤسسات الضخمة «الترست» فسنجد امبراطورا فى واشنطن بعد خمس وعشرين سنة » . وكذلك كتب جون بريزبن ووكر J. Brisben Walker رئيس تحرير مجلة كوزموبوليتان Cosmopolitan — وكانت اذ ذاك من المجلات المشتغلة بالمسائل العامة — ان فيما بين سطور الاعلان عن انشاء شركة الصلب الكبرى يستطيع الانسان أن يقرأ العبارة التالية : — « لقد انتهى اليوم عهد المنافسة القديمة بأساليبها المخربة وتعدد أعمالها المتشابهة واسرافها فى استنفاد المجهودات البشرية ، وما نجم عن كل ذلك من كفاح على العيش لا يعرف هوادة ولا رحمة » .

وقد كان الكثيرون يخشون انه اذا استمر الاتجاه نحو التضخم فى الشركات ، فلا يستبعد أن يثور الرأى العام ويعتنق المبادىء الاشتراكية. ومن سخرية الأقدار أن الثورة التى كان يخشاها هؤلاء الناس قد حدثت بالفعل ، ولكن الولايات المتحدة لم تكن ميدانا لها . وفى رأى الكثيرين ان الخطباء فى موسكو ، عندما يهاجمون اليوم الرأسمالية الأمريكية ويصبون جام غضبهم على قلبها النابض فى وول ستريت Wall Street فانهم يتكلمون عن الحالة كما كانت قبل ذلك بجيلين . وقد يقال على وجه الدقة ان رجل الدعاية الشيوعى فى هذه الأيام يعبر عن شعوره كأنه يحس بشعور من يقرأ جرائد الصباح الأمريكية التى صدرت فى ٣ مارس سنة ١٩٠١ معلنة تكوين شركة الولايات المتحدة للصلب .

والحق انه كانت هناك مسوّغات قوية فى ذلك التاريخ للقلق واثارة النفس ، لأن الأمريكيين الذين خضع تفكيرهم الاقتصادى لتعاليم بنيامين فرانكلين B. Franklin وهو رشيو ألجر Horatio Alger وعلماء الاقتصاد القدماء ، أخذوا ينزعجون عندما رأوا سادة المال يستخدمون أسلحة وأساليب جديدة للقضاء على الاقتصاد الحر الذى كان يحدد العلاقات بين الأفراد . ومما زاد فى قلقهم انهم رأوا أولئك السادة يتجهون الى السيطرة على أمريكا نفسها ، ولا يقيمون وزنا لدعائم الحكم الديمقراطى فيهـــا .

الفصل الخامس

حكومة ـ على الهامش

للانسان أن يتساءل عن موقف حكومة الولايات المتحدة من تلك الحوادث الهامة التى كانت تجرى فى طريقها المحتوم .

وانه ليصعب على المرء أن يتصور فى الوقت الحاضر كم كانت الحكومة فى سنة ١٩٠٠ صغيرة وكم كان نفوذها محدودا ونشاطها ضيقا . فلقد بلغ مجموع نفقاتها ٥٠٠ مليون من الدولارات فى العام ، أى ١/٨٠ مما بلغته بعد نصف قرن (وقبل أن تدفع الحرب الكورية بالميزانية الى التضخم) . بل ان الحكومة الفدرالية فى واشنطن كانت تنفق سنة ١٩٠٠ أقل مما أنفقته ولاية نيويورك سنة ١٩٥٠ ، كما ان القرض الوطنى كان لا يزيد على بليون وربع بليون من الدولارات ، أى نحو ١/٢٠٠ من القرض الوطنى سنة ١٩٥٠ ومقداره ٢٥٧ بليونا من الدولارات .

ولم تكن هناك وزارة للتجارة ولا للعمل ولا بنك مركزى ولا لجنة فدرائية لتنظيم التجارة ، ويعزى كل ذلك الى سبب واضح وهو افتراض أن شئون المال والتجارة كانت خارجة عن اختصاص الحكومة ، حتى ان اللجنة المختصة بالاشراف على التجارة بين الولايات ، قصرت اهتمامها على تنظيم المنافسة بين السكك الحديدية ، وكانت سلطاتها صغيرة وغير محددة . ومثل ذلك يقال عن قانون شرمان لتحريم نظام الوصاية ، فانه أخذ يتناقص فى الأهمية بسبب ما أصدرته المحكمة العليا من أحكام متعددة أضعفت من شأنه حتى أصبح نطاقه لا يعدو تنظيم المنافسة بين

الشركات . ولهذا لم يرفع النائب العام الدعوى فى سنة ١٩٠٠ على أية شركة تنفيذا لذلك القانون .

ويمكننا أن نفهم قلة نفوذ الحكومة فى المسائل المالية والاقتصادية فى ذلك العهد من الأمثلة الآتية ، ففى سنة ١٨٩٥ نقص رصيد الحكومة من الذهب الى درجة خطيرة كانت تهدد كيان النقد فى البلاد ، واضطرت الحكومة الى أن تلجأ الى أكبر رجال المصارف فى ذلك العهد وهو بيربونت مورجان اذ كان وحده قادرا ، بفضل ما تمتع به من نفوذ وسمعة مالية عظيمة ، على أن يطمئن رجال المال لكى يثقوا بالحكومة فيقرضوها ما تحتاج اليه من مال ، وهذا يدل على أن حكومة واشنطن لو حرمت من مساعدة وول ستريت Wall Street لكانت عاجزة وضعيفة الحيلة .

وهناك مثل آخر وهو تدخل الرئيس تيودور روزفلت T. Roosevelt فى سنة ١٩٠٢ لوقف اضراب عمال فحم الأنثراسيت ، وذلك باستخدام الوساطة بين مندوبى الشركات ومندوبى نقابة عمال المناجم المتحدة . وقد اعتدنا فى الأزمنة الحديثة أن نرى العمال وأصحاب رؤوس الأموال ينتقلون الى واشنطن — أو يجبرون على الانتقال اليها — لحل مابينهم من مشاكل ، ولذا يتعذر علينا أن نفهم كيف أن التسوية التى قام بها رئيس الولايات المتحدة فى سنة ١٩٠٢ لم تكن لها أدنى سابقة وكانت فريدة فى نوعها . وقد وصفت جريدة نيويورك صن New York Sun تدخل روزفلت بأنه « خارق للعادة وخطير » وكتبت جريدة نيويورك التجارية: « ان تصرف الرئيس يضخم أمام الرأى العام قوة نقابات العمال وأهميتها ويضعف الى درجة لامسوّغ لها مركز أصحاب الأعمال وحقوقهم ، كما يضيف الى المشاكل الاقتصادية والسياسية العديدة ، عنصرا جديدا وهو نقابات العمال . ولا شك أن رغبة الرئيس روزفلت فى أن يزج بنفسه فيما هو ليس من شأنه ، بطريقة تدل على الطيش وعدم ضبط النفس ، لمما يعتبر أكثر ضررا من أى اضراب يقوم به العمال » .

ومما يذكر بهذه المناسبة أنه فى أثناء ذلك الاضراب ، أرسل جورج بير George F. Baer ، وكان الممثل الأول لشركات الفحم ، خطابا الى أحد القاطنين فى مدينة ويلكس بار Wilkes Barre وكان هذا من المتوجسين خيفة من نتائج الاضراب — واشتمل الخطاب على العبارة المشهورة التالية : « ان حقوق العامل ومصالحه لن تكون من شأن المهرجين من زعماء العمال ، فانها أمانة فى عنق أولئك المسيحيين الذين وهبهم الله بفرط حكمته ، مهمة الاشراف على حرمة الملكية وصيانتها » .

— ٢ —

حدث كل ذلك فى سنة ١٩٠٢ عندما كان الرجل المغامر تيودور روزفلت رئيسا للجمهورية . أما سلفه الرئيس ويليام ماكينلى William Mc Kinley فانه امتاز بهيبة طلعته وتغلب الحذر على طبيعته ، وما كان له أن يفكر فى سنة ١٩٠٠ فى أن يحاول التدخل لوقف أى اضراب ، اذ كان يرى فيما يتعلق بواجبات الحكومة الفيدرالية انه ليس من حق تلك الحكومة أن تتدخل فى الشئون الاقتصادية الا اذا اتسمت بعض نواحيها بالاجرام (وكان القانون فى ذلك الوقت يعرف الاجرام فى أضيق حدوده) بل ان من واجب الحكومة فى رأيه أن ترعى مصالح المال والأعمال وتخدمها بقدر ما تسمح به سلطاتها المحدودة .

وكان يسند الرئيس ماكينلى فى موقفه هذا أحد مشهورى الحزب الجمهورى اذ ذاك ويدعى مارك حنا Mark Hanna وهو رجل امتاز بصلابة خلقه وحزمه وصراحته ، كما عرف بسخاء معاملته وتغلب الروح الانسانية عليه . وقد حمله اعجابه بالرئيس ماكينلى على أن يتقدم بالنصح اليه وأن يبين له الطريق العملى الذى يجمل به أن يسلكه . وكان حنا Hanna من أصحاب المصانع الناجحين وعضوا فى مجلس الشيوخ عن ولاية أوهايو ، ورئيسا للجنة القومية للحزب الجمهورى واشتهر بمهارته فى الحصول على التبرعات من الأغنياء وأفراد الطبقة

الممتازة . ونظرا لنشأته وتكوينه فقد سهل عليه التفاهم مع كبار المشتغلين بالصناعة ورجال المصارف ، وبخاصة لأنه كان يؤمن بأن ما يخدم مصالح هذه الطبقات يعود بالنفع على الأمة كلها ، ولهذا اعتبر ذلك الرجل من دعائم الرأسمالية وأكبر المدافعين عنها فى ذلك العهد .

وقد واجه الرئيس ماكينلى فى انتخابات سنة ١٩٠٠ منافسا سبق له أن تغلب عليه فى انتخابات سنة ١٨٩٦ ، ألا وهو ويليام جنجز بريان William Jennings Bryan ، ولم يكن هذا الأخير زعيما يتملق الجماهير بالمعنى المعروف ، ولكنه كان يحب الشعب من كل قلبه ، واتسم خلقه بالطيبة والشرف والحماسة فى الدفاع عن حقوق الانسان . ورغم أن تفكيره كان سطحيا وضيقا الا أن الرجل كان يملك موهبة خطابية سحرية ، وكان لهذه الموهبة أهمية كبيرة فى تلك الأيام ، ولذا لم يكن له منافس فى مقدرته على امتلاك ناصية الجماهير والتأثير فيها كيفما شاء .

وقد اتخذ « بريان » موضوع مكافحة الاستعمار أساسا لمعركته الانتخابية سنة ١٩٠٠ ، وطالب بأن تحرر الجزر التى وقعت فى أيدى الولايات المتحدة نتيجة لانتصارها فى الحرب مع اسبانيا ، وأن تعود تلك الجزر الى حكم مواطنيها . وكذلك هاجم المؤسسات الصناعية الكبرى « الترست » وأعلن ضرورة خضوعها لنظام الترخيص من الحكومة الفدرالية ، وطالب بضرورة فرض ضريبة الدخل عليها . غير أن المام « بريان » بالمسائل الاقتصادية كان محدودا ، ولذلك لم يوفق فى اقناع الرأى العام واكتسابه الى جانبه ، رغم ما كان يشعر به ملايين الأمريكيين من قلق بالنسبة الى « الترست » ، وقد ساعد على عدم توفيقه فى كسب تلك الدعوى رخاء البلاد سنة ١٩٠٠ ووفرة المال فى أيدى الأفراد بدرجة غير مألوفة ، وقد أشار الى ذلك « مارك حنا » عندما قال قبيل المعركة الانتخابية : « ان كل ما نحتاج اليه لكسب المعركة هو أن نقف صامدين » . وذهبت عبارته مثلا يتكرر صداه على مر الأيام وأثبتت الحوادث أن هذا الرأى كان حكيما .

والواقع ان « حنا » عندما استعرض آفق السياسة الأمريكية فى الأيام الأخيرة لسنة ١٩٠٠ لم يجد ما يعكر صفاءه غير سحابة صغيرة كانت تتمثل فى الرجل الذى وقع عليه ترشيح المؤتمر الوطنى للحزب الجمهورى ليكون نائبا لرئيس الجمهورية . وكان هذا الرجل هو « تيودور روزفلت » ، ذلك الشاب الذى كان يتولى وقتئذ منصب حاكم ولاية نيويورك ، واشتهر باندفاعه وسهولة استثارته وتعذر التنبؤ بما قد يقدم عليه من أعمال . والحق ان روزفلت كان مستقلا فى رأيه ولا يمكن بقاؤه مقيدا بأى قيد حزبى ، ولذا كان « حنا » لا يطمئن اليه ، بدليل انه تحدث فى غضب مع أحد زملائه من أعضاء مجلس الشيوخ أثناء المؤتمر قائلا : « ألا يستطيع أحد منكم أن يقدر انه لا يوجد غير شخص واحد يحول بين هذا المعتوه روزفلت وبين رياسة الجمهورية ؟ » مشيرا بذلك الى أن وفاة الرئيس ماكينلى قد تفسح المجال لأن يتولى روزفلت رياسة الجمهورية من بعده .

ولقد كان « التحالف الوثيق بين الحكومة ورجال الأعمال بغرض خدمة هؤلاء على وجه الخصوص » وفق ما قاله ويليام آلن هوايت William Allan White ، تحالفا محببا الى قلب ويليام مارك حنا اذ كان الرجل يعتقد مخلصا أنه اذا أتيح للشركات الضخمة أن ترى السبيل ممهدة أمامها فانها سوف تجمع ثروة طائلة ، ولا شك أن جانبا من تلك الثروة سوف يصل الى الطبقات العاملة الفقيرة ، وعلى ذلك كان الرجل يعتقد ان أية محاولة لتغيير الأوضاع القائمة ، فيما عدا زيادة الفرص المتاحة للشركات الضخمة لتكثر من رخائها وأرباحها ، سوف يؤدى الى استثارة الجماهير ، واخضاعها للزعماء المتهورين ، وما قد ينتج عن ذلك كله من اضطراب وانهيار . أما بالنسبة الى رجال السياسة الآخرين فان التحالف بين الحكومة والصناعة لم يكن قائما فى نظرهم على اعتبارات المصلحة العامة ، بل على أساس المصلحة المادية البحتة ، ولذا كان الأمر شبيها بدعارة حكومية تباع فيها خدمات

الحكومة ويشترى ودها وعطفها مقابل ثمن معلوم . فكانت الشركات الضخمة تسعى لخدمة مصالحها بما تدفعه من مبالغ كبيرة أثناء انتخابات الرياسة ، على أمل أن تكسب مودة أحد الحزبين أو هما معا ، وكانت فضلا عن ذلك لا تمتنع عن تقديم الرشوة الى أعضاء البرلمان بل والى القضاة أنفسهم .

وهذا يفسر لنا ما كانت تمنحه شركات السكك الحديدية من تصريحات مجانية لأعضاء البرلمان وكبار الموظفين والصحفيين وعائلاتهم، وكان فى عاصمة كل ولاية عدد من مأجورى هذه الشركات وجيوبهم ممتلئة بالنقود استعدادا للتدخل اذا كان هناك تهديد باصدار تشريع قد يتعارض مع مصلحة تلك الشركات ، أو اذا كان هناك أمل فى اصدار تشريع يتفق مع مصلحتها . أما فيما يتعلق بمجلس الشيوخ فى واشنطن فانه تحول فى ذلك الوقت الى أكبر معقل للدفاع عن الطبقة الممتازة ، نظرا لأن أغلب الشيوخ كانوا من الأغنياء أنفسهم أو من الذين وقع عليهم الاختيار الدقيق على اعتبار كونهم من حلفاء الطبقة الغنية أو خدامها . ولقد كانوا يتكلمون بألسنتهم عن واجب الدولة نحو العمال ولكن قلوبهم كانت مع كبار حملة الأسهم والسندات .

واذا تبين أن أحدأعضاءمجلسى الشيوخ والنواب كان بحاجة الى زيادة فى الاقتناع لكى يعدل عن معارضته لرجال الأعمال فكانت هناك وسائل كثيرة لاقناعه واجتذابه ، وذلك عن طريق الاتصال به وبغيره من ذوى النفوذ كالموظفين المنتخبين والقضاة ، والايحاء اليهم تلميحا أو تصريحا بأن من مصلحتهم معاونة رجال الأعمال وتسهيل مهمتهم . وكان رجال الأعمال وأعوانهم لا يترددون فى منح الرشاوى على شكل قروض لكى يتمكنوا من الوصول الى أغراضهم . فاذا تحدث رجال الدعاية الشيوعية فى الوقت الحاضر عن رجال البرلمان والحكومة الأمريكية « على انهم خدام وول ستريت » فان ذلك لاينطبق على الوقت الحاضر بل على الحالة كما كانت معروفة سنة ١٩٠٠ . والحق ان الانخراط فى الحياة العامة

الأمريكية فى ذلك الوقت كان أشبه شىء بالوصول الى ظلال شجرة مورقة تحمل ثمارا يانعة قطوفها دانية . وكان من الميسور على أى فرد أن يحصل على هذه الثمار بأقل مجهود ، لأن أحدا لم يعن بمراقبة ما كان يحدث تحت تلك الظلال .

— ٣ —

وهنا تتبادر الى الذهن أسئلة كثيرة . فلماذا كان الناس لايراقبون رجالهم المسئولين ؟ ولماذا لم يتبين أحد أن طبيعة الرأسمالية الأمريكية وأهميتها الكبرى لابد أن يكون لها أثر بالغ فى الحياة السياسية ، مما يستلزم مراقبة أخلاق الممثلين السياسيين وأعمالهم مراقبة دقيقة على الدوام ؟

والاجابة على ذلك تكشف لنا عن أمور كثيرة ، من أهمها ان أغلب المعارضة للشركات الضخمة « الترست » كانت تتخذ شكل دعاية لمذهب الاشتراكية على نمط ما كان متبعا فى أوربا ، ولذا بدت فى نظر الأمريكيين على أنها أجنبية الأصل ولا تتفق مع بيئتهم : والواقع أنهم كانوا يرفضون الدعايات النظرية ولا يرضون بأن يلقبهم أحد بأنهم من الطبقة الدنيا Proletariat مهما اشتد بهم البؤس . وفضلا عن ذلك فان هذه الدعاية كانت مرتبطة فى ذهن الأمريكيين بأولئك المهاجرين من الأجانب الذين كانوا يقطنون الجانب الشرقى من مدينة نيويورك، والأحياء الفقيرة الخاصة بأمثالهم فى المدن الأخرى ، والذين كانوا معروفين بغرابة منظرهم وكثرة تحدثهم بلغات غير مفهومة . هذا الى ان الاشتراكية كانت متهمة بأنها تدعو الى الثورة ، فاذا كانت الثورة لا تستلزم اقامة المتاريس واراقة الدماء ، فانها كانت على الأقل تحبذ انقلابا أساسيا فى نظام المجتمع ، وهذا ما لا يرضى عنه الرأى العام أو يقبله .

وأهم من هذا كله أن نفرا قليلا من المقربين من رجال الشركات الكبرى والملمين بالتشريعات الخاصة بالعمال ، كانوا هم وحدهم الذين

يفهمون كيف تنشأ هذه الشركات وكيف تعمل وكيف تؤثر فى الحياة السياسية ، وأقل من ذلك عددا من كان يستطيع أن يقدر كيف يمكن احداث تعديل فى اتجاه الأمور دون التعرض لاضطراب خطير فى صناعة البلاد وأنظمتها السياسية . أما غالبية الشعب العظمى فلم تكن لديها غير فكرة مبهمة جدا عن كل هذه المسائل ، لأنها لم تتعود النظر الى الشئون الاقتصادية كالصناعة والتجارة والتدريب المهنى على انها من المسائل التى يجمل بالمواطن العادى أن يهتم بها .

فاذا كان المواطن يتحمس لما يشهده من تضارب الآراء أثناء معركة انتخابات الرياسة ، ويستطيع أن يتناقش فى المسائل السياسية على أساس أن ماكينلى كان صنيعة الشركات الكبرى « الترست » وأن بريان كان لايمكن الوثوق بآرائه ، فان المواطن مع ذلك كان يدلى بصوته فى الانتخابات لمصلحة الحزب الذى كان ينتمى اليه آباؤه . أما مقالات الصحف وصورها الهزلية « الكاريكاتورية » التى كانت تمد المواطن بأغلب معلوماته عن التيارات السياسية المعاصرة ، فانها كانت حزبية أكثر منها قومية ، ومثل ذلك يقال عن المجلات الشعبية ، فكان أغلبها لا يعنى بالتعمق فى البحث فيما يتعلق بأمور الصناعة الكبرى وأثرها فى الحياة السياسية . هذا على الرغم من أن الكاتبة ايدا م . تاربل Ida M. Tarbell كانت آخذة فى اعداد تاريخ دقيق لشركة ستاندرد أويل Standard Oil لكى ينشر فى مجلة Mc Clure ، ولكن شيئا منه لم ينشر حتى ذلك الوقت . وفضلا عن ذلك فان المجلات الكبرى التى اكتسبت سمعة كبيرة بسبب قدم عهدها ، كانت تترفع عن بحث طبيعة الحياة الاقتصادية ونتائجها ، لأنها تخصصت فى خدمة الأغراض السامية للثقافة الرفيعة .

ولكن بشائر التغير الحاسم كانت آخذة فى الظهور . ومن الغريب أن أول من مهد الطريق لهذا التغيير ، كان رجلا جاهلا ومعتوها يدعى زولجوز Czolgosz وهو الذى أطلق الرصاص على رئيس الجمهورية

« ماكينلى » وأرداه قتيلا فى ٦ سبتمبر سنة ١٩٠١ عندما كان الرئيس يفتتح معرض Pam American فى مدينة بفلو .

وبهذه الجريمة لم يفقد مارك حنا صديقا عزيزا فحسب ، بل ان السحابة الصغيرة التى تحدث عن رؤيتها فى الأفق حينما اختير روزفلت نائبا لرئيس الجمهورية ، قد انقلبت فجأة الى غيوم كثيفة تحجب أشعة الشمس،حتى أنه صرح لأحد أصدقائه:«والآن فانظر فلقد أصبح هذا اللعين ، الذى كان يرعى الأبقار ، رئيسا للولايات المتحدة » .

الجزء الثاني

الدوافع القوية للتغير السريع

الفصل السادس

ثورة الضمير الأمريكى

– ١ –

عندما تولى تيودور روزفلت رياسة الجمهورية واستقر فى البيت الأبيض فى خريف سنة ١٩٠١ لم يكن هناك أية قرينة أو دليل على أن عهدا جديدا قد بدأ ، فقد أعلن روزفلت انه سوف يقتفى أثر سياسة سلفه الرئيس ماكينلى ، كما أن التصريحات التى أدلى بها فى بداية عهده كانت خالية من كل ما يثير مخاوف رجال المال والصناعة .

غير انه لم تمض مدة طويلة حتى فوجىء الناس بالنذير الأول لبداية عهد جديد ، اذ أقام النائب العام فى حكومة روزفلت الدعوى للمطالبة بحل شركة التضمينات الشمالية استنادا الى قانون شرمان لمكافحة شركات الوصاية Sherman Anti-Trust Act وكان ذلك فى فبراير سنة ١٩٠٢ .

وكانت شركة التضمينات الشمالية هذه شركة قابضة أنشأها بيربونت مورجان وادوارد هاريمان للاشراف المشترك على بعض شركات الخطوط الحديدية . وكان انشاؤها جزءا من اتفاق الصلح الذى تم بين هذين العملاقين بعد الكفاح الشديد للسيطرة على شركة الباسفيك الشمالى . واذا قدر لتلك الشركة القابضة – ألا وهى شركة التضمينات الشمالية – أن تفوز باعتراف المحاكم بقانونية وجودها لأصبحت أنموذجا يحتذى لتمكين بعض رجال المال فى وول ستريت من السيطرة المطلقة على أكبر شركات الخطوط الحديدية فى البلاد . ولهذا كان اقدام روزفلت على تقويض هذه الشركة من أساسها دليلا على ان الحكومة قد اعتزمت الصمود فى وجه أولئك الرجال الذين كانوا يستخدمون

نظام الشركات القابضة ليكونوا لأنفسهم امبراطوريات اقتصادية عظيمة تصدع بأمرهم وتخضع لسلطانهم ، كما انه دل على أن روزفلت قد صمم على مهاجمة مورجان العظيم نفسه، وهدم احدى المؤسسات المحببة الى قلبه.

ولقد كان مورجان يتناول العشاء فى منزله عندما أبلغ تليفونيا نبأ تلك القضية ، فتملكه السخط والغضب ثم اتجه الى ضيوفه وقال لهم انه كان يعتقد أن روزفلت رجل مهذب « جنتلمان » ولكن الرجال المهذبين لا يسارعون الى رفع القضايا فى المحاكم ، وقد كان الأجدى بروزفلت أن يتصل به شخصيا ، أى مورجان ، وأن يطلب اليه فى هدوء أن يعيد تنظيم شركة التضمينات الشمالية أو يعمل على حلها كلية اذا كان ذلك مما تتطلبه المصلحة العامة ويتفق مع رغبات الحكومة .

ولقد كان مقـدرا أن تكون هذه المعركة التى نشبت بين رئيس الجمهورية وأقطاب رجال المال معركة يطول أجلها بضع سنوات وتكون فاترة فى بعض الأوقات .

ولم يكن سبب ذلك ببعيد ، فقد كان روزفلت رئيسا من الحـزب الجمهورى ولذا كان من واجبه أن لا يبتعد كثيرا عن سـياسة الحزب الذى يعتمد عليه ، والذى سوف يحتاج الى تعضيده فى الانتخابات التالية ومن المعروف أن غالبية كبار الأغنياء والمحظوظين كانت تنضم تحت لواء الحزب الجمهورى وتناصره بالتبرعات السخية التى لا غنى للحزب عنها أثناء المعركة الانتخابية ، وعلى هـذا كان مستقبل روزفلت كرجل سياسى يفرض عليه أن يتظاهر بمصادقة الأغنياء، وأن يقنعهم بأنه انما يعمل على الحد من سلطانهم بين الآونة والأخرى لأن ذلك فى مصلحتهم فى نهاية الأمر . وكثيرا ما قيل فى تلك الأيام ان روزفلت كان يتوعد بما لا يقدم على تنفيذه ، وانه كان أكثر اعتدالا حتى فى توعده فى تلك الأعوام التى حل فيها موعد الانتخابات ، كما أنه خلال فترة رياسته التى استمرت سبعة أعوام ونصف عام لم يقم بأى اجراء يضارع فى جرأته هجومه على شركة التضمينات الشمالية . بل ان الرئيس تافت الذى خلفه فى

الحكم ، وكان من المحافظين ، زاد عنه حماسة ونشاطا فى مهاجمته الشركات الكبرى تحت ظل قانونى شرمان . ولا شك ان كل ذلك كان صحيحا ولكنه مع ذلك يغفل ابراز حقيقة الخدمة الجليلة التى أداها روزفلت للتاريخ الأمريكى .

ذلك لأن هذا الرئيس الممتلىء حمية ونشاطا قد لفت الشعب الأمريكى بطريقة واضحة جلية الى وجهة نظر جديدة،بالنسبة الى المصلحة العامة وعلاقتها بالحكومة وبرجال المال والأعمال ، وكان هذا الاجراء من جانبه مثيرا للاهتمام ومشجعا على التوسع فيه والاقتداء به .

والواقع ان الاحتجاج على تصرفات رجال المال واتجاهاتهم كان حتى ذلك الوقت مقصورا على أولئك الأفراد الذين تعرضوا للخسائر والأضرار نتيجة لتلك التصرفات ، أى ان المعارضة كانت فى الواقع هى معارضة المحتاجين للمحظوظين ، كما انها كانت فى الغالب تتسم بنزعة اشتراكية ان لم تكن ثورية . هذا فضلا عن وجود معارضة أخرى من جانب بعض الأغنياء من المواطنين ، كرجال الكنيسة والمشتغلين بالخدمة الاجتماعية وبعض الأحرار ، الذين أصبحوا يتهمون فيما بعد بأن لهم لونا سياسيا ضاربا الى الحمرة — أى ميالا الى الشيوعية — ولكن معارضة هؤلاء كانت ضعيفة فاترة . أما فى عهد روزفلت فقد أصبح رئيس الولايات المتحدة معارضا لكبار الأغنياء ، وهو الذى لا يجوز بأى حال الادعاء بأنه كان ينتمى الى احدى الطوائف السابقة .

والحق ان الرجل كان لا يمكن أن يوصف بكونه من طبقة المحرومين أو ممن أصابهم الأذى بسبب نشاط رجال المال وتصرفاتهم ، فقد كان غنيا منذ مولده ، وكان من أسرة أمريكية عريقة ، ولذا لا يعقل أن يتهم بالنزعة العاطفية أو بالميل الى المبادىء النظرية التى يتعذر تطبيقها، وهو الرجل الذى جعل من حياته مثلا يحتذى لما يجب أن تكون عليه الحياة المغامرة ، بسبب ميله الى العمل المضنى والى صيد الوحوش المفترسة وتجشم الصعاب بعزيمة لا تعرف حدا . ولقد كانت كل صفات

روزفلت ومميزاته مما يرغم الشعب على الاعجاب به ، حتى ان الكاتب جون مورلى John Morley قال عنه بأن شخصيته تعتبر ظاهرة طبيعية تشبه فى ضخامتها شلالات نياجرا .

ولم تكن الخطب العديدة التى بدأ فيها بالحملة على المسيئين من رجال المال ، وطالب فيها بالعدالة فى توزيع الثروة خطبا اقتصادية بقدر ما كانت مواعظ خلقية ، فقد أعلن أنه يهدف الى تكوين وعى خلقى بين رجال الأعمال ، واقامة المعايير الخلقية للمعاملات بين الناس ، وكانت الفكرة المسيطرة عليه هى انه من الخطأ بل والاجرام أن يسيطر بعض الناس سيطرة مطلقة على ميادين السياسة أو الصناعة ، ويستخدمون للوصول الى ذلك مختلف الحيل والألاعيب ، وبذا يحرمون غيرهم من نصيبهم العادل من فرص الحياة . ولقد كان هذا الأسلوب فى الحديث أسلوبا يفهمه ويستجيب اليه ملايين الأمريكيين من مختلف نواحى الحياة، وأغلبهم من الأفراد الذين لا يميلون الى النظريات والذين يضيقون ذرعا بالمسائل الاقتصادية ، ولكنهم يستجيبون استجابة قوية الى الدعوة الخلقية ، ويؤمنون ايمانا عميقا بفكرة تكافؤ الفرص بين الناس . والحق ان ثمرة التشريعات التى أصدرها « تيودور روزفلت » كانت ضئيلة بالنسبة الى الأثر الذى تركته شخصيته ودعوته فى نفوس جيل كامل من الأمريكيين،فكأنه عزف لحنا جديدافتردد صداهفى جميع أنحاء البلاد.

ولا شك أن الظروف كانت مواتية لكل ذلك ، ولنذكر على سبيل المثال بعض التواريخ المناسبة ، ففى فبراير سنة ١٩٠٢ هاجم روزفلت شركة التضمينات الشمالية ، وفى نوفمبر من تلك السنة بدأت مجلة ماكلور تصدر تباعا بحثا ضخما أعدته منذ سنوات الآنسة ايدا تاربل عن تاريخ شركة ستاندرد للبترول،وفى الشهر السابق — أكتوبر — ظهرت المقالة الأولى فى نفس المجلة عن الفساد المتفشى فى المجالس البلدية ، وكانت بقلم الكاتب لنكلن ستيفنز ، ولا شك أن هذين الصحفيين بدءا نزعة جديدة فى الصحافة الأمريكية ، نزعة الى البحث الدقيق

القائم على تحرى الوقائع والبعد عن العواطف ، والعناية بالكشف عن العلاقة الحقيقية بين رجال المال ورجال السياسة فى الولايات المتحدة . وفى سنة ١٨٩٧ انتخب رجل المبادىء جونز ليبدأ عهد اصلاح كبير كمحافظ لمدينة توليدو ، كما انتخب فى سنة ١٩٠٠ روبرت لافولت الكبير ليقوم باصلاح واسع النطاق كحاكم لولاية وسكونسن ، وفى سنة ١٩٠١ انتخب توم جونسون محافظا لمدينة كليفلاند . ولقد كان كل أولئك الرجال بمثابة طلائع لجيل كامل من المصلحين لنظام الحكم فى الولايات والادارات المحلية . وما كان روزفلت الا زعيما لأولئك المصلحين والموجه لهم والمتحدث بلسانهم ، مما جعل الناس ينظرون نظرة جديدة الى ما حولهم ويدرسون الأمور المحيطة بهم ، بحثا وراء علاج عملى سريع لما يلمسونه فيها من نقائص .

وبهذا بدأت تلك الثورة فى الضمير الأمريكى التى كانت أهم ما يميز الحياة الأمريكية حتى سنة ١٩١٥ ، عندما جاءت أحداث الحرب العالمية الأولى وغمرت كل شىء سواها حتى سنة ١٩٢٠ ، غير أن تلك الثورة خلقت اتجاهات فكرية جديدة ما زلنا نشهد أثرها حتى اليوم .

— ٢ —

وقد أثبت المؤرخان هاكر وهندريك أن ثورة الضمير الأمريكى لم تكن حركة منظمة ، بل كانت مبهمة الى حد كبير ، فلم يكن لها برنامج محدد ، وكان المشتركون فيها يشملون الأغنياء والفقراء على حد سواء ، وكانوا فيما بينهم على خلافات شديدة فى كثير من الأمور ، غير انهم أجمعوا على أمر واحد ألا وهو تعضيد كل ما يؤدى الى اقامة حكومة شعبية متحررة من نفوذ المسيطرين على شئون المال والأعمال ، فاتجه بعضهم الى تعضيد مبدأ الانتخاب المباشر لأعضاء مجلس الشيوخ ومبدأ الاستفتاء العام ومبدأ استئناف قرارات المحاكم ، واتجه البعض الآخر الى تطهير نظام ادارة البلديات والمطالبة بتكوين اللجان الحكومية لبحث

شئون المدن والاستعانة بالخبراء فى وضع الميزانيات ، وعنى البعض بالدعوة الى استصدار التشريعات الخاصة بتعويض العمال ، وتنظيم العمل فى المصانع ، وعنى غيرهم بالمحافظة على تراث الثروة الأهلية وبخاصة بعدم التوسع فى اتلاف الغابات ، وتحمس آخرون فى المطالبة بحقوق المرأة السياسية أو ضرورة استصدار التشريعات لضمان نقاوة الأغذية والأدوية ، أو لمحاربة المضاربين والمتهورين فى الشئون المالية . ولذا كانوا من المطالبين بعد أزمة سنة ١٩٠٧ بضرورة انشاء نظام البنك المركزى .

ويلاحظ أن الشعور العام الذى استولى على الحكومة وعلى الشعب فى ذلك الوقت وكان يستهدف توجيه شئون البلاد نحو منفعة ساكنيها أجمعين ، بدلا من منفعة طبقة صغيرة محظوظة من الناس ، قد استأثر أيضا بمشاعر كثير من الأفراد الذين كانوا لايعنون كثيرا بالمسائل التشريعية ، ولذا زاد عدد الرجال والنساء الذين ساروا فى خطى الأولين من المصلحين الاجتماعيين ، وكان لهم الفضل فى أن يجعلوا من الخدمة الاجتماعية مهنة شريفة . فأخذ الكثيرون من رجال الكنيسة يستخدمون مركزهم الدينى فى تنظيم الخدمات الاجتماعية فى الأحياء التى توجد فيها كنائسهم . ولعله لم يكن من سبيل المصادفة أن رئيس تحرير مجلة السيدات المشهورة باسم Ladies Home Journal بدأ فى تلك السنوات يعلم ملايين الأمريكيات ، كيف يعشن عيشة كريمة على رغم دخلهن المحدود ، كما أخذت مجلات أخرى تقفز فى توزيعها قفزا كبيرا وبخاصة مجلة Saturday Evening Post وتفسح المجال بين صفحاتها لاعلانات رجال الأعمال،حتى يعرف جمهور القراء مزايا السلع التى تنتجها الصناعة بالجملة ، وهى السلع التى كان استخدامها مقصورا حتى ذلك الوقت على الموسرين من الشعب . وفى الوقت نفسه بدأ هنرى فورد فى انتاج سيارته المشهورة التى لم تكن ألعوبة للأغنياء بل أتاحت لجمهرة الشعب وسيلة رخيصة ومفيدة للانتقال بها من مكان الى آخر . وفى هذه الأثناء

أيضا ، لفت ولفرد كنج أنظار رجال الاقتصاد الى فكرة الدخل القومى التى لم تكن محل بحثهم قبل ذلك الوقت .

وعلى الرغم من الاختلاف البين الذى كان يفصل بين أولئك المصلحين من حيث ثقافتهم ومشاربهم وأعمالهم الا انهم ارتبطوا فيما بينهم بعقيدة جديدة،وهى أن الأمة ليست ميدانا يعمل فيه كل فرد كما يشاء دون رعاية لمشاكل غيره وبؤس حالته ، بل ميدان يرتبط فيه الناس بمصير واحد ، وتشتبك فيه مصالحهم ، ولذا يصبح التفكير الحكيم والسياسة الرشيدة مما يساعد على توفير الأسباب التى ترفع من شأن الناس جميعا وتعود عليهم بالسعادة والنفع .

ولقد وصلت عدوى الاصلاح حتى الى داخل معاقل أكثر النـاس ثروة وسلطانا ، فهناك على سبيل المثال هارى دافيسون،من بيت مورجان وبول واربرج وغيرهما من كبار رجال المصارف الذين أخذوا فى وضع نظام البنك المركزى ، وهناك السيدة بلمونت التى كانت تعقد اجتماعات للدفاع عن حقوق المرأة السياسية ويحضرها أغنى سيدات المجتمع فى نيويورك . وهناك بطبيعة الحال جون د . روكفلر John D. Rockefeller ذلك الرجل الذى كان ينظر اليه كأنه ابليس الرأسمالية الفاجرة ، ولكنه أخذ منذ ذلك الوقت يغدق بملايينه العديدة على مختلف الأعمال التى تعود بالخير على الانسانية جمعاء .

— ٣ —

غير انه من الخطأ أن نبالغ فى أهمية هذه الثورة التى حركت الضمير الأمريكى فى ذلك الوقت . فمن الواجب أن نذكر على سبيل المثال أن التحسن التدريجى الذى كان من نصيب النقابات العمالية — وكانت آيته انشاء وزارة العمل سنة ١٩١٣ واستصدار قانون كليتون سنة ١٩١٤ وهو القـانون الذى اعترف ، من الوجهـة النظرية على الأقل ، بحق النقابات فى التكلم باسم العمال والدفاع عن مصالحهم — لم يمنـع

وجود صناعات كثيرة لا يعرف العمال فيها أى نوع من أنواع التنظيم ، كما كان هناك صناعات أخرى تقوم الحرب فيها بين أصحاب الأعمال ومن يستأجرونهم من الأشرار الأشداء من جهة ، وبين العمال الذين لا يتحرجون عن القتل والمعاداة بالثورة من جهة أخرى . والدليل على صحة ذلك ، تلك المعركة التى قامت أثناء تشييد احدى العمارات فى نيويورك سنة ١٩٠٦ وكانت بين العمال التابعين لنقابة البنائين ، وبين عمال درجات السلم من غير التابعين لنقابة ، فقد كانت الآلات والأحجار والقطع الحديدية تتساقط بكثرة من الطوابق العليا على رؤوس العمال المشتغلين بصنع درجات سلم العمارة ، مما اضطر الشركة المشرفة على البناء الى استخدام عدد من الخفراء لحفظ النظام بين الجانبين . وقد ذهب أحد أولئك الخفراء ضحية للمعركة اذ ضرب فيها حتى مات ، ثم ألقى بجثته من الدور الثامن واستقرت فى الدور الخامس .

ويمكننا أن نشير أيضا الى تأليف الجمعية الدولية لعمال العالم فى سنة ١٩٠٥ ، فقد جاء فى مقدمة القانون الأساسى لها : « انه لا توجد أدنى علاقة تربط بين طبقة العمال وطبقة أصحاب الأعمال » . ولم يكن نشاط هذه الجمعية مخالفا للقانون على الدوام ، غير ان الاضرابات الكبيرة التى قام قادتها بتنظيمها كاضراب لورانس سنة ١٩١٢ واضراب باترسون سنة ١٩١٣ ، امتازت بفظاعة الأحداث التى شهدتها الى درجة لم تبلغها اضرابات أخرى فى السنوات الأخيرة . وكان قادة هذين الاضرابين من غير شك ممن يضمرون الثورة ويعملون على قلب النظام .

ويلاحظ فضلا عن ذلك ، ان الحزب الاشتراكى الذى كان يرمى بلا ريب الى العمل على تغيير الادارة القائمة على الصناعة الأمريكية ، كان فى تلك السنوات آخذا فى النمو والقوة ، بدليل أن مرشحه فى انتخابات سنة ١٩١٢ وهو يوجين دبز حصل على ما لا يقل عن ٨٩٧٫٠٠٠ صوتا فى تلك الانتخابات .

ويتبين من كل ذلك ان الذين كانوا يعملون على تغيير وجه الحياة

الأمريكية وأوضاعها المالية والاقتصادية بنحو خاص ، لم يكونوا جميعا من المؤمنين بنظام التطور الهادىء الذى ينتقل بالمجتمع خطوة فخطوة ، ويقنع بادخال اصلاحات تفصيلية صغيرة على النظام القائم فى ذلك الوقت، الى أن يتحقق التغيير المرغوب فيه مع مرور الزمن ، بل كان البعض يرى ضرورة استخدام العنف والالتجاء الى القوة اذا اقتضت الحال ، ولو أدى ذلك الى قلب الأوضاع وقيام الثورة .

ومن الواجب أن نذكر انه خلال هذه التيارات المتضاربة والاتجاهات المتعارضة كان بيربنت مورجان مسيطرا بفضل قوته وعظيم شخصيته على مركز المال والأعمال فى وول ستريت . وعندما تقدمت به السن ، تحولت سيطرته الاقتصادية العظيمة الى منظمات وهيئات متعددة ولكنها غير واضحة المعالم ، وكانت جميعها خاضعة له ولأعوانه من الذين اتخذوا مركزا لنشاطهم تلك المنطقة التى يلتقى فيها طريق برود ستريت مع طريق وول ستريت ، ومن هنا امتدت الى المراكز الرئيسية لعشرات من كبار البنوك والشركات الضخمة الأمريكية ، ويلاحظ بهذه المناسبة أن اللجنة البرلمانية التى تكونت سنة ١٩١٢ — ١٩١٣ لبحث موضوع احتكار المال ، أوضحت برسوم بيانية على جانب كبير من الأهمية مقدار سيطرة وول ستريت على أقسام كبيرة من الاقتصاد الأمريكى ، فقد أظهرت هذه الرسوم بطريقة تلفت النظر مدى الاشراف الدقيق الذى كانت تستخدمه البنوك الكبيرة بالنسبة الى الصناعة الأمريكية . وكان هذا الاشراف مركزا فى مورجان والمصرف الذى يحمل اسمه ، وفى بيكر رئيس مصرف فيرست ناسيونال وستلمان رئيس مصرف ناسيونال سيتى وغيرهم من أمراء المال فى ذلك العهد ، وكانوا يتمتعون بسلطة فعلية وان كانت غير محدودة أو واضحة ، واستمرت هذه السلطة كبيرة وبعيدة المدى حتى بعد وفاة مورجان فى سنة ١٩١٣ .

وقد ظل المسيطرون على شركة ستاندرد أويل ، وأغلبهم من الماليين المغامرين ، يعملون بنجاح — خلال السنوات الأولى من القرن الحالى

— على كسب الملايين من الدولارات بوساطة أساليبهم المتقنةووسائلهم المحكمة فى التلاعب بالبورصة ، كما استمر المضاربون — الذين كانوا أكثر منهم جرأة وأشد جشعا — يتلاعبون بالأسهم والسندات لمنفعتهم الخاصة دون هوادة أو رادع من القانون أو الضمير ، ولذا كثرت ضحاياهم بين جمهور المشتغلين بالتجارة والصناعة ، مما يستدل منه على أن رجال وول ستريت كانوا ينظرون الى أعمال الاصلاح التى أخذت فى الظهور فى ذلك العهد ، نظرة فزع واشمئزاز ، ولذا اشتد تحاملهم على « تيودور روزفلت » وعظم سخطهم على خليفته ، ويلسون Wilson ، ولكنهم مع ذلك لم يغفلوا عن مد روزفلت بالمال أثناء الانتخابات العامة ، خوفا من أن يكون خلفه أسوأ منه صنعا وأكثر اندفاعا نحو الاصلاح ، ولم يمنعهم ذلك من دعم سلطتهم والاستزادة من ثروتهم طوال ذلك العهد ، واستخدموا أنجع الأساليب فى تحقيق أهدافهم مع الحرص الشديد على عدم لفت الأنظار اليهم . وبعبارة أخرى ، كان رجال المال فى وول ستريت يسعون الى الاستزادة من سيطرتهم على حياة الشعب، فى الوقت الذى كان فيه المصلحون يعملون على تخفيفها أو القضاء عليها .

— ٤ —

ورغم كل ذلك فقد كشفت انتخابات الرياسة لسنة ١٩١٢ عن أن تيار الاصلاح قد بلغ حدا يصعب الوقوف فى وجهه ، فقبل ذلك بأربع سنوات قرر تيودور روزفلت عدم التقدم مرة أخرى لاعادة انتخابه ، ورشح نيابة عنه وزير حربيته وليام تافت وكان رجلا طيبا بدينا ، وأعتقد روزفلت ان خليفته سوف يقتفى أثره فى الاصلاح ، غير أن تافت بعد انتخابه أثبت أنه من المحافظين الذين يسهل التأثير عليهم وصرفهم عن السير فى ركاب المصلحين . فلما عاد روزفلت من رحلته فى أفريقية ، حيث كان يقضى الوقت فى صيد الحيوانات المفترسة ، قام بهجوم شديد على تافت ، وتقدم لكى يكون مرشح الحزب الجمهورى بدلا منه فى

انتخابات سنة ١٩١٢ ، فلما أخفق فى ذلك، أنشأ بسرعة فائقة حزبا جديدا أسماه حزب الاصلاح وتقدم باسم ذلك الحزب للانتخابات .

غير أن مرشح الحزب الديمقراطى فى تلك الانتخابات كان هو ولسن ، ذلك الأستاذ الجامعى السابق الذى عرف بنشاطه وعبقريته وميله الى التقشف ، وكان نجاحه فى انتخابات الرئاسة فى تلك السنة نذيرا بوصول حركة الاصلاح الى ذروتها .

ولم يمض غير عام ونصف على اقامة « ويلسن » فى البيت الأبيض حيث أخذ يعمل فى هدوء واصرار على حمل البرلمان على اقرار كثير من التشريعات المتتالية تنفيذا لبرنامج «الحريةالجديدة» الذى كان يتزعمه ، حتى قامت الحرب العالمية الأولى دون سابق تمهيد أو انذار ، وعندما اشتد سعير تلك الحرب واتسع نطاقها ، طغت المسائل التى برزت فى أثنائها على الحياة الأمريكية بأكملها وغمرت حركة الاصلاح التى كانت قائمة فيها . وبعبارة أصح ، ان الولايات المتحدة بعد ما دخلت الحرب ضد ألمانيا فى سنة ١٩١٧ انقلبت من الكفاح فى سبيل تحقيق الاصلاح الداخلى الى الكفاح فى سبيل الحرية — وهو الكفاح الذى أسماه ولسون : « كفاح ليكون العالم آمنا حتى ينعم بالديمقراطية » . وقد كانت غالبية الأمريكيين من الرجال والنساء تؤمن ايمانا صادقا بأن تلك الحرب سوف تكون آخر حرب يصطلى العالم بنارها ، وان النصر فيهاسوف يكون بمثابة اشراق فجر جديد ترفرف فيه الحرية على جميع البقاع ويعم السلام العالم بأسره ، ولذا اندفع الأمريكيون فى المساهمة فى تلك الحرب بحماسة شديدة كأنهم قد وهبوا أنفسهم لله .

غير ان هذه الحماسة لم تلبث طويلا حتى خفت حدتها ونضب معينها كما ينضب معين المصرف الذى تزيد مصروفاته على ايراداته ، وفى نهاية الحرب ، استطاعت أمريكا تحت تأثير هذه الروح الجديدة ، أن توافق على قانون بتعديل الدستور وبمنح المرأة حق الانتخاب ، وعلى تعديل آخر كان يعتبر غاية ما تصبو اليه نفوس المصلحين ، ألا وهو تحريم

المسكرات ابتداء من يناير سنة ١٩٢٠ ، وكان الناس أجمعون يعتقدون انه سوف يقضى قضاء مبرما على تعاطى المسكرات فى الولايات المتحدة. غير ان النزعة الدافعة الى اصلاح أمريكا والعالم أجمع تلاشت فجأة عقب انتهاء الحرب وتبدلت معالمها ، ذلك لأن المبادىء الجميلة وروح التضحية النبيلة التى جمعت بين الناس زمنا طويلا ، قد تركتهم مرهقين وراغبين فى أن يعيشوا حياة سهلة ممتعة ، ولذا وجد المتحمسون للمثل العليا والمتمسكون بأهدابها ، انهم رغم شعورهم أيضا بالاجهاد والارهاق قد تحولوا الى أقلية ضئيلة ، ولهذه الأسباب كلها ضعفت حدة ثورة الضمير الأمريكى وأفل نجمها .

— ٥ —

غير ان هذه الثورة خلفت من ورائها آثارا عميقة فى حياة الشعب وتفكيره ، وبخاصة فى وجهة نظره نحو المشاكل العامة سواء أكانت سياسية أم اقتصادية ، مما كان له نتائج خطيرة الأثر فى مستقبل البلاد . فقد أثبتت الحوادث صحة النظرية القائلة بأن الاصلاح التدريجى يستطيع أن يصمد أمام التجارب القاسية ، بمعنى انه اذا كانت سفينة الدولة لا تسير سيرا منتظما فليس هناك ما يدعو الى تحطيمها واستبدالها بغيرها اذ يكفى اصلاحها وتحسينها أثناء سيرها ، وذلك بشرط واحد وهو أن يكون بحارتها يقظين على الدوام ، ولا يغفلون لحظة واحدة عن السهر عليها واصلاح ما يحتاج الى الاصلاح من شئونها ، وكذلك يقال عن الآلة الاقتصادية ، فاذا كانت هذه تنتج سلعا غير مرغوب فيها ، فلا داعى الى اتلافها وتهشيمها بل يكفى اصلاح بعض أجزائها وتجديدها أو استبدالها بغيرها بين آونة وأخرى ، حتى يتحسن انتاج تلك الآلة دون أن تتوقف عن العمل ولو لبرهة قصيرة . وبعبارة أخرى ، كان الهدم والاتلاف وما اليهما من مظاهر الثورة ومستلزماتها من الأمور التى يمكن الاستغناء عنها ، لأنها تقضى على المواهب وتذهب بالدوافع التى بدونها

لا يمكن للآلة أن تسير فى سرعة ودقة وانتظام ، ولذلك لا تكون هناك حاجة الى تكليف المهندسين بتصميم آلات جديدة لم يسبق تجربتها ، اذ أن عددا قليلا من المشرفين ومن الأخصائيين فى تعديل بعض أجزاء الآلة وفقا لمقتضيات الأحوال يكفى لاصلاحها وتمكينها من متابعة الانتاج على أكمل وجه ، وبخاصة اذا تحققت النية الحسنة بين جميع المشرفين على تلك الآلة والمسئولين عن حسن سيرها وعدم توقفها عن العمل .

والواقع ان أعمال الاصلاح الكثيرة التى تمت فى ذلك العهد كانت بمفردها لا تخرج عن كونها محاولات صغيرة ومؤقتة لتحقيق الاصلاح فى أضيق حدوده . ومن الغريب أن القانون الذى كان مقدرا له أن يكون أكثر قوانين هذا العهد الاصلاحى فائدة وأبعدها أثرا فى الحياة الاقتصادية الامريكية ، ألا وهو قانون ضريبة الدخل التصاعدية ، كان قانونا لا تكترث به الكتب التاريخية كثيرا ، لأن اصداره لم يكن مصحوبا بنزاع كبير أو مناقشات حامية ، ولأن آثاره الأولى على الحياة العامة كانت ضعيفة وغير واضحة .

ولقد فرضت ضريبة الدخل بناء على تعديل فى الدستور وافق عليه الكنجرس فى عهد الرئيس « تافت » ، وهو الذى كان ينظر اليه فى العادة على أنه من الرؤساء المحافظين ، وكانت موافقة الكنجرس على هذا القانون ، كما كانت موافقة برلمانات الولايات المختلفة عليه ، بدون معارضة كبيرة ، لأن الرأى العام كان يعتبر أن الوقت قد حان لمثل ذلك القانون ، وعندما بدىء فى تنفيذه سنة ١٩١٣ فى عهد الرئيس «ويلسن» كان معدل هذه الضريبة منخفضا جدا ، حيث بلغ واحدا فى المائة من صافى الدخل السنوى للأفراد الذين لا يزيد دخلهم على ٢٠٫٠٠٠ دولار وارتفعت الضريبة ارتفاعا ضئيلا على ما زاد على ذلك من الدخول ، هذا فضلا عن أن العَزَب كان لا يدفع ضريبة على الدخل الذى يقل عن ٣٫٠٠٠ دولار ، كما أعفى المتزوج من الضريبة اذا قل دخله عن ٤٫٠٠٠

دولار . وقد لا تصدق اذا عرفت أن مجموع الضريبة التى كان يدفعها الرجل المتزوج عن دخل قدره ١٠٫٠٠٠ دولار فى السنة كان ٦٠ دولارا فقط ، أما عن دخل قدره ٢٠٫٠٠٠ دولار فكانت الضريبة ١٦٠ دولارا (يخيل الى أنى أسمع هنا أنين القراء الأمريكيين وحنينهم الى الأيام السعيدة الغابرة) . ولم تتعادل حصيلة ضريبة الدخل مع حصيلة الضرائب الجمركية الا فى عام ١٩١٧ ، فلما جاءت سنة ١٩٢٠ كانت الأولى تفوق الثانية بعشرة الأمثال ، وذلك بسبب البدء فى رفع ضريبة الدخل التصاعدية ، حتى أصبحت أهم مورد لتمويل الحكومة،فى الوقت الذى أقبلت فيه على التوسع فى تنفيذ المشروعات ، كما صارت هذه الضريبة من أهم الوسائل التى تستخدمها الحكومة لاعادة توزيع الثروة بين الأمريكيين .

غير انه من الخطأ أن يركز المرء اهتمامه فى أى تشريع معين من تشريعات الاصلاح التى تمت فى ذلك العهد ، أو فى دراسة الأعمال الهامة التى تحققت أو الأخطاء الجسيمة التى حدثت وقتئذ ، اذ يفوق كل ذلك أهمية فهم الفكرة الأساسية التى سيطرت على ذلك العهد ، وأوحت بكل تلك الأعمال .

فلقد ساد الاعتقاد بين كثير من الناس فى ذلك الوقت،وما زال يسود بين البعض منهم حتى اليوم ، أن الأحزاب فى الولايات المتحدة يجب أن تقتصر على حزب للمحافظين وحزب للأحرار (أو للاشتراكيين اذا أردت) لكى يكون لكل منهما برنامج منطقى واضح يميزه عن الآخر ، بدلا من الحزبين الحاليين ، فهما متشابهان الى أبعد الحدود ، ويتنافسان على كسب تأييد الجمهور بمجرد الدعاية والارتجال والحلول النصفية ، وكذلك ساد رأى آخر بين الكثيرين فى الماضى كما هو فى الحاضر ، بأن الاصلاح الاقتصادى اذا كان غير قائم على خطط موضوعة ومدروسة فهو اصلاح ضعيف غير مجد ، وان الاصلاح الحقيقى يتطلب ثورة الجماهير الساخطة واحداث انقلاب كلى فى نظام التجارة والصناعة .

وقد عاشت هاتان الفكرتان جنبا الى جنب زمنا غير قصير الى أن انتابهما الضعف والوهن ، ثم رسخت فى النفوس فكرة أخرى وانتصرت فى نهاية الأمر ، وهذه الفكرة قائمة على أن انقسام المجتمع الى طبقات اقتصادية واجتماعية واضحة الحدود ليس من الأمور المرغوبة ، بل انه على العكس من ذلك يعتبر من الأمور التى تجب مقاومتها ومنعها ، لأنها تتنافى مع المبادىء الأولية للديمقراطية الأمريكية . فقد أثبتت التجارب ان العلاقة بين الأفراد تكون على أحسن حال اذا ساهموا على اختلاف طبقاتهم ونحلهم فى العمل لخير الجماعة ، كما أثبتت أن خير وسيلة لمواجهة مشكلة الطبقات الدنيا Proletariat ليست هى مقاومتها أو الضغط عليها ، أو تخليصها ممن يستغلونها ويتحكمون فيها ، بل هى تمكينها من زيادة نصيبها من التعليم ومن فرص الحياة ، كتيسير حصولها على السيارات وغيرها من المعدات الحديثة ، ثم تعويدها تدريجيا على أسلوب الحياة الذى تتبعه الطبقات المتوسطة ، وتشجيعها على الاستزادة من نعم الحياة المادية . وبهذه الوسائل تتطور الطبقات الدنيا مع الزمن حتى تتحول الى جماعة من المواطنين الأشداء الذين يحترمون أنفسهم ولا يشعرون بضغن نحو المجتمع ، وعندئذ يمكن الاعتماد عليهم فى المحافظة على كيان الدولة ونظامها الاقتصادى والاجتماعى . ومن مبادىء الديمقراطية الأمريكية أيضا أنك اذا وجدت خطأ أو عيبا فى النظام القائم أو فى أية ناحية من نواحيه ، فانك تكتفى ببحث أسبابه وادخال ما يستلزمه الموقف من تعديل فى الأوضاع . والواقع ان الأفراد الذين يعتقدون بأن الآلة سوف تتوقف عن العمل اذا بدىء فى تعديل بعض أجزائها ، يخطئون خطأ جسيما بقدر خطأ الأفراد الذين يفكرون فى امكان انشاء آلة جديدة خالية من كل عيب . ولهذا كله كان المواطن الأمريكى يؤمن بفائدة التطور الدائم الذى يقوم على التعاون والتجارب والبعد عن النظريات الخلابة .

والحق أن أمريكا ، التى بدت لكثير من الناس منذ عهد غير بعيد

كأنها متجهة الى نظام رأسمالى بحت ، تتركز فيه السلطة فى أيدى كبار الأغنياء دون غيرهم ، قد استطاعت أن تتحول تدريجا الى نظـام يكاد يحقق أحلام الديمقراطيين ، وتم لها ذلك بوساطة التعاون الحـر بين الأفراد الأحرار .

الفصل السابع

ثمرات الإنتاج الكبير

فى سنة ١٩٠٣ ، قرر أحد سكان مدينة دترويت ، وهو هنرى فورد وكان قد بلغ وقتئذ الأربعين من عمره ، أن يترك العمل فى شركة صغيرة للسيارات وأن يبدأ العمل لحسابه الخاص فى تصميم وانتاج سيارة قوية وضخمة تستخدم فى السباق . وللانسان أن يتساءل عن سبب اهتمامه بانتاج سيارة للسباق ، فمن المعروف أنه لم يكن كثير العناية بالسرعة ، وكان هدفه الحقيقى أن ينتج سيارة خفيفة وصغيرة لتكون فى متناول أغلب الناس ، غير أنه اتجه أولا الى انتاج سيارة للسباق بسبب حاجته الى رأس المال ، اذ كان لا يستطيع أن يجتذب اليه ثقة الممولين الا اذا أصبح مشهورا ، وهذا بدوره يستلزم نجاحه فى انتاج سيارة تستطيع أن تفوز فى سباقات عديدة ، لأن السيارات فى ذلك العهد كان ينظر اليها على أنها من وسائل الترف والتسلية للأغنياء ، يلهون بها بالانتقال فى سرعة وصخب على الطرق المتربة التى كانت معروفة فى ذلك الوقت .

وقد نجحت السيارة الجديدة فى الفوز بالسباق الأول بسهولة واضحة،وبذا حصل فورد على الشهرة التى كان يبتغيها وتمكن تبعا لذلك من الحصول على رأس مال نقدى مقداره ٢٨٫٠٠٠ دولار ، واستطاع أن ينشىء به شركة فورد للسيارات . وقد تولى فورد منصب نائب الرئيس لهذه الشركة وكذلك مناصب المدير العام ورئيس المصممين ورئيس العمال الفنيين والمشرف على العمال .

ونجح فورد فى السنوات القليلة التالية فى انتاج أنواع مختلفة من

السيارات واتسع العمل أمامه بدرجة فائقة . فلما جاءت سنة ١٩٠٨ أخرجت مصانعه سيارته المشهورة من طراز حرف ت ، وكانت فى نظر فورد أحسن الأنواع التى أنتجها حتى ذلك الوقت . وبعد قليل أصدر فورد قرارا سبَّب دهشة كبيرة لمعاونيه . وقد أشار اليه بالعبارة الآتية : « أعلنت فى صبيحة أحد الأيام فى سنة ١٩٠٩ — ومن غير سابق انذار — أننا فى المستقبل سننتج طرازا واحدا وهو طراز «ت» وأن هيكل هذا الطراز سيكون واحدا لجميع السيارات» ، وكان غرضه من ذلك أن ينتج سيارة بعيدة عن الوجاهة التى يميل اليها الأثرياء ، وتمتاز بكونها عملية وسهلة القيادة حتى تكون فى متناول الأفراد العاديين مثله . وقد تعمد أن تكون السيارة خفيفة ليثبت فساد الفكرة القائلة اذ ذاك بأنه كلما زاد وزن السيارة زادت قوتها ، كما تعمد أن تكون سيارته رخيصة بدرجة تلفت النظر ، وقد أشار الى ذلك فى مؤلفه الذى سجل فيه تاريخ حياته اذ قال : « يجب أن يبقى الجمهور مندهشا على الدوام من أنه يحصل على مثل هذه السيارة بمثل ذلك الثمن المنخفض » . وكان فورد يعتقد أن المنتجين يخطئون اذ يركزون اهتمامهم فى مجرد جمع الأرباح ، كما اعتقد بأن رجال المصارف أساءوا الى المنتجين بتوجيه عنايتهم نحو تحسين الأرباح بدلا من تحسين الانتاج ، وكان على العكس من ذلك يرى أنه لا داعى للقلق على الأرباح اذا تناسب الانتاج مع السعر ، ولذا آمن بأن تركيز الاهتمام بانتاج طراز واحد فقط من السيارات سوف يمكنه من تخفيض نفقات الانتاج الى درجة عظيمة ، مما يغرى العدد الغفير من الأفراد العاديين على اقتناء تلك السيارة .

وعندما زادت المبيعات من السيارة طراز « ت » عمد فورد الى تخفيض سعرها فقفزت المبيعات بدرجة ملموسة . وفى عام ١٩١٣ أنشأ فورد فى مصنعه أول خط للتجميعات[١] . وفى بداية العام التالى كانت

(١) سير متحرك توضع عليه أجزاء السيارة وتنتقل من عامل الى الى عامل ليضع كل منهم الجزء الخاص به ، وفى ذلك اختصار كبير فى الوقت وتناسق تام فى قطع الغيار .

السيارة بأكملها تتكون على أساس مبـدأ خـط التجميعات ، بحيث لا يقوم العامل الا بتأدية عمل معين واحد . وكان كل جزء من أجزاء السيارة يوضع على سير متسع يتحرك بطريقة آلية ويمر أمام عدد من أولئك العمال ، وكان على كل منهم أن يضيف الى هيكل السيارة أو يثبت فيه الجزء الخاص به ، وكانت خطوط التجميعات تلتقى فى خط رئيسى ينتقل معه هيكل السيارة حتى يتم تكوينها فى وضعها النهائى .

ولم يكن هذا الأسلوب فى الصناعة جديدا من حيث المبدأ أو من حيث الفكرة ، ولكن الجديد الذى أدخله فورد هو التوسع فى استخدام خطوط التجميعات الرئيسية والفرعية ، بدرجة لم يسبقه اليها أحد ، ولذا كان انتاج سيارته آليا الى أبعد حد .

وعندما تم لفورد تحويل صناعته على هذا النحو ، وكان ذلك فى يناير سنة ١٩١٤ ، أعلن قرارا رنّ صداه فى كل أنحاء العالم ألا وهو رفع الأجر الأدنى لعامل السيارات من ٢ دولار و ٤٠ سنتا عن العمل تسع ساعات يوميا الى خمسة دولارات عن العمل ثمانى ساعات فى اليوم ، ويعزى ذلك الى أن فورد كان يدفع لعماله مكافآت سخية فى نهاية كل عام ، فلما زادت الأرباح رأى أن يحول هذه المكافآت السنوية الى زيادة ثابتة فى الأجور ، أملا فى أن يؤدى ذلك الى تحسين الروح المعنوية بين العمال ، وكانت غير مرضية قبل ذلك ، واعتقادا منه بأن رفع أجور العمال يؤدى بطبيعة الحال الى توسيع السوق أمام المصنوعات ومنها سيارات فورد.

وقد نجح فورد بما أدخله من تحسينات على صناعته ، وبتعمده خفض الأسعار ورفع أجور العمال ، فى أن يظهر للملأ بطريقة مباشرة منقطعة النظير مبدأ من المبادىء الأساسية للصناعة الحديثة ، وهو مبدأ المنطق المتدفق للانتاج الكبير ، ويتلخص هذا المبدأ فى أنك كلما أكثرت من الانتاج انخفضت النفقات بالنسبة الى السلعة الواحدة ، وكلما زادت النقود فى أيدى الأفراد ، زادت مقدرتهم على الشراء ، مما يسمح بالانتاج فى أوسع نطاق وبأقل نفقة .

وقد كان سعر سيارة فورد سنة ١٩٠٩ — ١٩١٠ ٩٥٠ دولارا ثم انخفض ذلك السعر تباعا الى ٧٨٠ ، ٦٩٠ ، ٦٠٠ ، ٥٥٠ ، ٤٩٠ ، ٤٤٠ ، ٣٦٠ دولارا ، وبعد أن ارتفع قليلا أثناء الحرب العالمية الأولى بسبب التضخم ونقص بعض لوازم الانتاج ، عاد سعر سيارة فورد الخالية من آلة بدء الحركة self-starter الى ٢٩٠ دولارا وكان ذلك سنة ١٩٢٤ . وفى هذه الأثناء زاد انتاج سيارات فورد تدريجيا من ١٨٫٦٤٤ سيارة فى السنة الى ١٫٢٥٠٫٠٠٠ سنة ١٩٢٠ — ١٩٢١ .

وقد استمر فورد متبعا لهذه السياسة حتى سنة ١٩٢٧ عندما اصطدم بحقيقتين هامتين : أولاهما أن الجمهور كان لايقتصر طلبه على السيارات الرخيصة ، بل اشتمل أيضا تلك التى أدخلت عليها التحسينات بين عام وآخر ، وقد تبين ذلك للمنتجين المنافسين لفورد اذ لاحظوا أن ادخال تحسينات على السيارات عاما بعد عام ، يجعل السيارات السابقة من طراز قديم،ويحمل أصحابها على استبدالها بسيارات حديثة.والحقيقة الثانية هى أن الطلب على السيارات الحديثة كان يخلق بدوره طلبا على السيارات المستعملة التى تبادلتها الأيدى مرات متعددة ، ولذا كان ثمنها يتناقص فى كل مرة ، مما حرم سيارة فورد طراز « ت » من ميزة كونها أرخص السيارات .

ومع ذلك فان تجربة فورد قد أثبتت فائدة مبدأ التوسع فى الانتاج لما ينجم عنه من انخفاض فى أسعار السلع وزيادة فى أجور العمال ، وقد أصبح كل منتج يعتنق هذا المبدأ فى الوقت الحاضر ، وان كان لا يقوم بتنفيذه على الدوام . ولا مراء فى أن اكتشاف هذا المبدأ والتوسع فى تطبيقه كان من أقوى العوامل التى ساعدت على تكوين الولايات المتحدة كما نعرفها فى القرن العشرين ، وقد تفرع عن ذلك بعض النتائج الهامة الآتية وهى :

أولا ان الأمة التى لا يشعر أبناؤها بالخوف من الاستغلال

أو من الفقر المدقع انما هى أمة يلذ لأبنائها الاقبال على شراء مختلف السلع ، مما يعود بالخير على الجميع .

وثانيا أن مصلحة المنتجين أن يخرجوا للناس ألوانا من الأغذية والملبوسات وغيرها من مختلف لوازم الحياة مما يقبل على اقتنائه الأفراد مهما اختلفت مراتب ثروتهم ، بدلا من أن ينتجوا سلع الترف التى لا تستهلكها الا أقلية ضئيلة .

وثالثا ان من النتائج المترتبة على ذلك تخفيض الفوارق بين الطبقات وتوفير الربح للمنتجين ، وهذا هو الرد المفحم لمبادىء كارل ماركس ، ولكنه ليس ردا نظريا بل عمليا ، لأنه فى الواقع هو منطق الصناعة الراقية نفسها ، أو بعبارة أخرى ، منطق الرأسمالية اذا اتجهت الى خدمة أهداف الديمقراطية .

ولم تكن التجربة العظيمة التى قام بها فورد الا جانبا من التقدم الصناعى العظيم الذى شهدته الولايات المتحدة فى العشرين سنة الأولى من القرن العشرين ، اذ كانت الصناعة والتجارة فى مجموعهما فى سبيل التوسع والتطور التدريجى ، ايذانا بأن الأمة قاربت النضوج والرشد .

وقد كان هذا العصر هو العصر الذهبى لانشاء السكك الحديدية ، فتم انشاء شبكة الخطوط الحديدية التى ربطت أنحاء البلاد من المحيط الى المحيط ، وأدت الى زيادة هائلة فى النشاط الاقتصادى وفى أرباح السكك الحديدية نفسها ، ذلك لأن السكك الحديدية كانت فى سنة ١٩٢٠ تشتغل بنقل حمولة من البضائع تزيد أضعافا عما كانت تنقله سنة ١٩٠٠ . كما تضاعف عدد ركابها وكانوا يسافرون الى مسافات أبعد كثيرا مما مضى ، حتى بلغ متوسط الأميال التى يقطعها المسافر ثلاثة أمثال ما كان عليه من قبل .

وقد شهد هذا العهد أيضا تقدما كبيرا فى استخدام الترام ، نظرا للتوسع فى استخدام الكهرباء ، ومما يذكر أن الدهشة أخذت هنرى آدمز عندما رأى لأول مرة مولدا كهربائيا Dynamo فى معرض باريس

سنة ١٩٠٠ وأسماه رمز اللانهائية . وقد تزايدت المولدات الكهربائية والتوربينات بعد ذلك بقليل وأنشئت الأسلاك لنقل هذه القوة السحرية الى أبعد نطاق ، كما يستدل على ذلك من أن استخدام الكهرباء كقوة محركة للصناعة كان سنة ١٨٨٩ لا يزيد على ٢٪ ، أما سنة ١٩١٩ فقد بلغ ٣١٪ .

وكذلك تقدمت صناعة الصلب تقدما كبيرا على أثر استبدال طريقة « بسمر » بطريقة المواقد المفتوحة ، كما يتبين ذلك من أن انتاج الحديد والصلب زاد بالنسبة للفرد الواحد فى سنة ١٩٢٠ ثلاثة أمثال ما كان عليه فى سنة ١٩٠٠ ، تلك السنة التاريخية التى تكونت فيها شركة الولايات المتحدة للصلب . ونتج عن ذلك أن ناطحات السحاب أخذت تشيد بكثرة فى مدن عديدة ، وكان أغلب الناس الذين يتطلعون الى ارتفاعها الشاهق لا يرون فيها الا مظهرا خلابا للنزعة الأمريكية المعروفة نحو انتاج كل ما هو أضخم وأكبر مما تنتجه الدول الأخرى . والحقيقة أن ناطحات السحاب كانت دليلا ناطقا على نجاح صناعة الصلب ، مما جعل من الممكن تشييد تلك المبانى الشاهقة بما فيها من قوة وجمال ، كما أن نجاح الصناعة الكهربائية ساعد على توفير المصاعد التى لا يمكن بحال الاستغناء عنها فى مثل تلك المبانى .

واذا كانت ناطحات السحاب تشبه أبراج الكنائس الكبيرة « الكاتدرائيات » فى جمالها وارتفاعها ، فان المتاجر الجديدة كانت تشبه القصور فى سعتها وفخامتها . وقد ظهر فى الميدان اذ ذاك منافس خطير للمتاجر القديمة التى كان يشرف عليها أصحابها بأنفسهم ، وانتشرت المتاجر المتسلسلة التى بدأت بمتاجر ولورث وتخصصت فى بيع ما لايزيد ثمنه عن خمسة سنتات أو عشرة ، ومتاجر ا ، ب A&P التى كانت تدير ٢٠٠ متجر فى سنة ١٩٠٠ ثم زادت الى ٤٠٠ فى سنة ١٩١٢ والى ١١٫٤١٣ سنة ١٩٢٤ . وهنا أيضا يتضح مرة أخرى المنطق المتدفق للانتاج الكبير ، لأنك اذا أنشأت عددا كافيا من المتاجر المتشابهة تماما فى طرازها الخارجى والداخلى

والتى تستخدم أساليب موحـــدة للبيع ، فانك تستطيع تخفيض نفقات المبيع الى حـــد كبير بفضل امكـــان اجتـــذاب الملايين من المشترين والحصول على البضائع بالجملة وبكميات كبيرة ، ممـــا يساعد على تخفيض الأسعار وزيادة الأرباح فى نفس الوقت .

ولقد أخذت صناعة السيارات فى هذا الوقت تمر فى المرحلتين الأولى والثانية من مراحل التطور الذى أصبح لزاما على كل صناعة رئيسية أن تمر بها ، ففى البداية كانت مرحلة المنافسة الشديدة عندما اهتم مئات من أصحاب المشروعات الصناعية خـــلال العشرين سنة الأولى من القرن الحالى بالحصول على رأس المال اللازم لانشاء مصانع صغيرة لانتاج السيارات .

وبينما كانت هذه المنافسة الشديدة فى أوجها ، بدأت المرحلة الثانية باتجاه مروجى الشركات الذين يملكون رأس مال كبير أو يتمتعون بمقدرة خاصة لبيع الأسهم والسندات ، نحو شراء شركات السيارات التى كان يرجى لها النجاح ، والعمل على ضم بعضها الى بعض تحت ادارة موحـــدة .

وفى سـنة ١٩٠٨ ، أى فى الوقت الذى أخـــذ فيه هنرى فورد يستعد لانتاج سيارته من طراز « ت » ، كون وليام دورانت شركة قابضة كبيرة فى نيوجرسى باسم شركة جنرال موتورز ، وكانت تتألف من انضمام شركات بويك وألدز وبعض الشركات الأخرى ، وكان مقدرا لهـــذه الشركة القابضة الجديدة أن تكون احـــدى عمالقة صناعة السيارات عندما بدأت تلك الصناعة فى مرحلتها الثالثة من التطور ، بالقضاء على كل منافسة ، مع استثناء أقلية ضئيلة من الشركات القوية التى صمدت لتلك المنافسة .

وفى هذه الأثناء أخذت صناعة السيارات فى انتاج نوعين آخرين من المنتجات كان لهمـــا أبلغ الأثر فى حياة الملايين من النـــاس ، ألا وهما سيارات النقل الكبيرة « لورى » التى صارت فيما بعد منافسا خطيرا

للسكك الحديدية ، والجرارات الزراعية على اختلاف أنواعها . وقد صنعت أول جرارة فى سنة ١٩٠٢ ، ثم بلغ عدد ما أنتج من الجرارات فى سنة ١٩١٠ : ٤٠٠٠ ، ولم يأت عام ١٩٢٠ حتى قفز هذا العـدد الى ٢٠٠،٠٠٠ ، وهكذا انتقلت الزراعة الأمريكية الى التوسع فى استخدام الآلات ، فأدخلت مساحات واسعة من المراعى الطبيعية فى نطاق الزراعة بسرعة فائقة .

وقد شجع على هذا النمو الكبير وما صاحبه من تنوع عظيم وتفتح لأبواب المستقبل ، ظهور فكرة جديدة ألا وهى أهمية الاعلان فى أوسع نطاق وجدارته بالتقدير والاحترام ، اذ قام فى العشرين سنة الأولى من القرن الحالى رئيس تحرير مجلة «ستردای ایفننج بوست» ورئيس تحرير «ليديزهوم جورنال» باظهار مدى مايصل اليه الاعـلان الصحفى من اتقان وبراعة ، على اعتبار كون ذلك لونا آخر من ألوان المنطق المتدفق للصناعة ذات الانتاج الكبير ، ويستدل على ذلك من الأرقام الآتية التى تنطق بسرعة انتشــار مجلة «ستردای ایفننج بوست» ورواجها فى تلك السنوات . ففى سنة ١٩٠٢ بلغ متوسط ما بيع من العـدد الواحـد ٣١٤،٦٧١ نسخة ، وكانت حصيلة الايراد من الاعلان فى ذلك العـام ٣٦٠،١٢٥ دولار ، أما فى سنة ١٩٢٢ فقد بلغ المباع من العدد الواحد ٢،١٨٧،٠٢٤ نسخة ، أى نحو سبعة مرات ماكان يباع سنة ١٩٠٢ ، بينما زاد الايراد من الاعلان الى ٢٨،٢٧٨،٧٥٥ دولارا ، أى أكثر مما كان عليه سنة ١٩٠٢ بمقدار ثمان وسبعين مرة .

فما الذى يستخلص من تلك الأرقام ؟ لا شك أن ملايين الأمريكيين كانوا يحصلون فى كل أسبوع أو فى كل شهر بوساطة تلك المجلات التى يبلغ ثمن العدد منها نحو ٥ سنتات على دروس جديدة فى أساليب الحياة والتفكير التى تتبعها الطبقة المتوسطة — أى تلك الغالبية العظمى من الأمريكيين الذين لا ينتمون الى الطبقة الأرســــتقراطية أو طبقـة الأثرياء أو الطبقة الدنيا « البروليتاريا » — وأنهم كانوا يتعرفون بهذه

الوسيلة على ما كانت تعده الصناعة الأمريكية من ملذات الحياة لكى تستفيد منها غالبية الشعب ، بدلا من أن تستفيـد منها أقلية ضئيلة ، ومن هذه الملذات ما كان يزيد الحياة بهجة أو يقلل من متاعبها كالسيارات والآلات الكاتبة والأنواع المختلفة من الأغـذية الجديدة ومن ملابس الرجال والنساء والأطفال .. الخ .

ولا شك فى أن ذلك الانتاج الصناعى الكبير وجد فرصة مواتية خلال الحرب العالمية الأولى ، وكذلك خلال الحرب العالمية الثانية ؛ ذلك لأن المشتغلين بالصناعة واجهوا دفعة واحدة حاجة ملحة الى سد الطلب الذى لا حد له ، فكان كل همهم انتاج المدافع والقذائف والسفن بأكبر قدر وفى أقصر وقت ، ولم يكن هناك أدنى خوف من اغراق الأسواق بالبضائع ، كما لم يكن هناك ما يدعو الى التخوف من هبوط الأسعار . ونظرا الى أن مهمة الصناعة الأولى لم تخرج عن توفير أكبر قـدر من الانتاج وبأقصى سرعة ، فان الزيادة الهائلة فى الانتاج التى ترتبت على ذلك كانت فوق كل حسبان [1] .

وقد بذرت فى هذه السنوات أيضا بذور عدد كبير من الصناعات التى كان لها شأن عظيم فى المستقبل ، ففى ١٠ يناير سنة ١٩٠١ كشفت أولى آبار البترول بولاية تكساس ، وبهذا بدأ عهد جديد من الرخاء فى الجنوب الغربى من الولايات المتحدة ، كما اطمأنت صناعة السيارات — وكانت اذ ذاك فى المهد — على أنها ستجد عند نموها وفرة كبيرة من البترول اللازم لحياتها .

---

(١) من النتـائج غير المنظورة لهـذا التوسع العظيم فى الصناعة تراكم الارباح لدى المشتغلين بها بدرجة لم يسبق لها مثيل ، وبخاصة لعدم وجود التشريع الذى يلزم أصحاب الصناعة برفع أجور الصناع فى مثل هذه الاحوال . فلما أعلنت بعد سنة ١٩٣٠ مكاسب الصناعة فى ذلك العهد اعتقد كثير من النـاس أن العالم لن يتحرر من الحروب ، بسبب جشـع المشتغلين بانتاج المعدات الحربية ورغبتهم الشـديدة فى الاسـتزادة من أرباحهم .

وفى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٠٣ وفق أورفيل رايت فى البقـاء بطائرته فى الجو مدة ٢٥ ثانية ، ثم استطاع شقيقه ولبور الطيران لمدة ٥٩ ثانية وكان ذلك بوساطة طائرة قام الاثنان بصنعها بعد جهد شديد ، وتمت هذه التجربة على رمال كيتى هوك الواقعة على ساحل ولاية كارولينا الشمالية . وقد انقضت بضعة أعوام قبل أن يفهم الجمهور مغزى هذه التجربة التى قام بها الأخوان رايت ، غير أنه بعد انقضاء أربع سنوات ونصف على هذه التجربة الأولى ، أى فى مايو سنة ١٩٠٨ ، أخذ مراسلو الصحف المدربون يلاحظون ما يقوم به الأخوان ، وبدأ رؤساء التحرير المخضرمون ينشرون رسائل محرريهم وما احتوت عليه من حقائق تثير الدهشة وعدم التصديق ، واستيقظ العالم آخر الأمر الى أن طـيران الانسان قد أصبح حقيقة واقعة ، ذلك لأن الأخوين رايت قاما بعدة تجارب ناجحة ، وكانت أطول مدة لبقائهما فى الجو لا تقل عن ٣٨ دقيقة! ولذا وضعت بذرة صناعة الطيران الضخمة فى سنة ١٩٠٣ ولم تبدأ فى الانبات الا فى سنة ١٩٠٨ .

وكذلك نجح الايطالى ماركونى فى كشف التلغراف اللاسلكى فى سنة ١٨٩٥ ، ولكن الامكانيات المترتبة على هذا الاختراع لم تكن معروفة فى سنة ١٩٠٠ عندما استطاع رجلبند فسندن Reginald A. Fessenden أن ينقل صوت الانسان باللاسلكى ، ولا فى سنة ١٩٠٤ عندما وفق فلمنج Sir John Ambrose Fleming الى صنع أول صمام للراديو المعروف باسم صمام فلمنج ، ولا فى سنة ١٩٠٧ عندما تمكن الدكتور لى دى فورست Dr. Lee De Forest من تصميم مكبر للصوت ، ولا فى سـنة ١٩١٢ عندما كشف ارمسـترونج Edwin H. Armstrong المولد الكهربائى اللفاف الذى يمكن بوساطته التقاط التموجات الضـعيفة التى تأتى باللاسلكى ، وتحويلها الى تموجات قوية تفوق ما كانت عليه بعشرات المرات . وقد استمر هذا الجهل بامكانيات اللاسلكى زمنا طويلا ، حتى أنه فى سنة ١٩١٥ عندما استطاع دافيـد سـارنوف David Sarnoff

مساعد مدير الحركة فى شركة ماركونى للتلغراف اللاسلكى ، أن ينتج ما أسماه صندوق الموسيقى اللاسلكية Radio Music Box وألمع الى امكان التوسع فى الاذاعة اللاسلكية فيما بعد ، فانه كان كأنما يتحدث الى آذان صماء ، ومع ذلك فان بذور صناعتى اللاسلكى والتلفزيون كانت قد بذرت بالفعل ، ولم يبق الا وقت قصير حتى تورق وتثمر .

وفى سنة ١٩٠٣ ظهرت أول صورة متحركة لرواية كاملة عنوانها « سرقة القطار الكبرى » ، وفى سنة ١٩٠٥ ظهرت أولى مسارح للسينما ، وكانت فى كثير من الأحيان لاتخرج عن كونها مخازن للبضائع حولت لاستخدامها كصالات لعرض السينما . وهكذا بدأت صناعة السينما فى نموها البطىء حتى وصلت الى أهميتها الحالية .

وفى سنة ١٩٠٩ ، ظهرت فى الأسواق سلعة من انتاج ليو بيكلاند Leo H. Baekeland وكانت من الباغة المصنوعة كيمياويا ، وسميت باسم صانعها بيكليت Bakelite ولم تكن هذه المادة أول ما عرف من انتاج البلاستيك ،فقد سبقتها الى ذلك مادة السيلولويد ، ولكنها تعتبر مع ذلك البذرة التى نبتت منها صناعة البلاستيك،فكانت مادة البابيكليت بالاضافة الى الحرير الصناعى أو الرايون الذى صنع قبيل سنة ١٩٢٠ ، بداية ظهور فكرة جديدة تعتبر فى ذاتها من أهم مخترعات القرن العشرين ، ألا وهى أنه يمكن انتاج مختلف السلع وفق طلب الانسان وحاجاته ، على ألا تكون هذه السلع مجرد تقليد لما تنتجه الطبيعة بل كثيرا ما تكون أحسن وأرقى مما تنتجه الطبيعة ، وهنا تظهر معجزة النايلون Nylon التى عرفت فيما بعد .

والواقع أن المرء الذى يحاول فهم أمريكا كما هى فى الوقت الحاضر، يجب عليه أن يقدر الأهمية الحيوية لعاملين رئيسيين ، وهما ثورة الضمير الأمريكى ، والنتائج التى لامفر منها للصناعة ذات الانتاج الكبير ، فقد أنبتت ثورة ذلك الضمير الاعتقاد بأنه من الممكن اصلاح الاداة الاقتصادية والسياسية للبلاد لتكون أقدر على خدمة غالبية السكان مما

كانت عليه ، دون أن تصاب الأداة فى الوقت نفسه بتعطل أو توقف . غير أنه كان من الجائز أن لا يؤدى كل ذلك الا الى مجرد اعادة توزيع الثروة بدلا من زيادتها فى مجموعها ، لولا العامل الثانى الذى سبقت الاشارة اليه ، ألا وهو منطق الانتاج الكبير ، ذلك لأن الهدف لم يكن مجرد عدم اصابة الآلة بالتوقف أثناء اصلاحها فحسب ، بل أصبح يشمل أيضا التوسع فى استخدامها والاستفادة منها بأساليب جديدة متنوعة،حتى يصبح انتاجها كبيرا ومتزايدا .

الفصل الثامن

الثورة الناجمة عن استخدام السيارات

صرح ودرو ويلسن فى سنة ١٩٠٦ ، وكان اذ ذاك رئيسا لجامعة برنستون ، بأن « السيارة ساعدت أكثر من أى شىء آخر على نشر الشعور بالاشتراكية فى الولايات المتحدة » وأوضح ذلك بقوله : « ان السيارة صورة لكبرياء الأغنياء وغطرستهم » . ومع ذلك فلم ينقض عشرون عاما على هذا التصريح حتى أعربت سيدتان عن آراء مخالفة له تماما ، وكانتا من ذوات الدخل المحدود ، وقد سجل تصريحهما هذا فى كتاب « مدل تاون » وهو من أحسن ما أخرج من بحث لدراسة المجتمع الأمريكى فى ذلك العصر . فقالت السيدة الأولى وكانت والدة لتسعة أطفال : « اننا نفضل أن نستغنى عن الملابس الجديدة بدلا من أن نستغنى عن السيارة » . وقالت الثانية : « انى أفضل أن أستغنى عن الغذاء بدلا من أن أستغنى عن السيارة » . وأشار الكتاب الى ربة بيت أخرى أجابت عندما سئلت : « كيف تملك أسرتها سيارة مع أنها لاتملك حوضا للاستحمام بمنزلها ؟ » فكانت اجابتها بمثابة أنشودة يتلخص فيها مغزى الثورة التى أحدثتها السيارة فى حياة المجتمع اذ قالت : « اننا لانستطيع أن ننتقل الى المدينة ونحن راكبون فى حوض استحمام ! » .

ولقد كان هذا التحول فى مركز السيارة ، من أداة ترف للأقلية الى حاجة ماسة للأغلبية ، ذا أثر بالغ فى قلب الحياة الأمريكية رأسا على عقب ، وتغيير عادات الناس وآرائهم خلال نصف القرن الماضى ، ولم يحدث هذا التغيير فجائيا اذ كان يتوقف على ثلاثة أمور : أولها ، توافر السيارات

المعتدلة الثمن والتى كانت من الجودة فى الصنع بحيث يمكن الاعتماد عليها ويسهل استخدامها ، وثانيا : توافر الطرق الجيدة ، وثالثا : وجود العدد الوافر من حظائر السيارات «الجراجات» ومحطات البنزين . وكان من الطبيعى أن هذه الشروط الثلاثة تتحقق تباعا وعلى مهل ، نظرا لارتباط بعضها ببعض ، فان الرجل الذى كان يملك فى سنة ١٩٠٦ محطة للبنزين قائمة على طريق مترب وغير ممهد ، كان معرضا من غير شك للافلاس فى وقت قصير . أما بعد سنة ١٩٢٠ فان مغزى كل ذلك أخذ يظهر بوضوح للناس من عام الى عام .

ولقد كان لهنرى فورد فضل تخفيض أسعار السيارات بدرجة ملحوظة مما حبب الى كثير من الناس اقتناءها ، غير أنه كانت هناك عوامل أخرى ذات أهمية كبرى فى تشجيع الناس على شراء السيارات ، وفى طليعتها ما أدخل على السيارات نفسها من تحسينات أساسية ، كاستخدام آلة بدء الحركة Self Starter والاطار الذى يمكن فصله عن العجلة ، واستخدام القطن « التيلة » فى صنع الاطارات ، وفوق كل ذلك وفرة السيارات المقفلة .

والواقع أن السيارات المقفلة امتازت بعدد غير قليل من الميزات التى شجعت المشترين على اقتنائها ، فقد كانت أثمانها معتدلة وكان هيكلها متينا غير مخلخل ، كما كان من الميسور دهن السيارة بدهان ثابت سريع الجفاف . وفى الوقت نفسه ، تبين للراغبين فى اقتناء السيارات أن السيارة المقفلة كانت متعة كبيرة بعكس السيارات القديمة التى كانت بمثابة عربات بدون خيل ، فقد كانت السيارة المقفلة غير معرضة للتغيرات الجوية لكونها كالحجرة المتحركة على عجلات وتدفعها آلة متينة وقوية ، كما كان من السهل اقفالها وتركها على جوانب الطرق ليل نهار مهما كانت حالة الجو . ومن مزايا السيارة المقفلة أيضا أن المرء يستطيع أن يشبع شهوته للسرعة دون أن يطيح به الريح المتدفق ، كما يستطيع اقفال النوافذ منعا لدخول الأتربة والأمطار . ولتلك السيارة فضلا عن

ذلك منافع لاتعد ولا تحصى ، اذ يستطيع الانسان أن يجلب فيها ما يشتريه من أنواع البقالة وأن يذهب بها الى نادى الجولف أو محطة السكة الحديدية ، وأن يخرج فيها فى أمسية الأيام الحارة لينعم بالهواء العليل ، وأن يذهب بها الى عمله مهما بعد عن مسكنه ، ولولا السيارة لما أمكنه الوصول اليه . كما تيسر السيارة للمرء أن يصطحب أسرته معه الى رحلة طوال النهار أو فى نهاية الأسبوع . ولهذا أصبحت السيارة من ضرورات الحياة التى لاغنى عنها رغم ما تسببه من ضحايا كثيرة ، ومن صرف الناس عن الذهاب الى الكنيسة ، ورغم ما تثيره فى نفوس البعض من غيرة شديدة ، وما تتسبب فيه من مخاطر عديدة اذا قام بقيادتها المتهورون والسكارى ومن لايقدرون المسئولية ، وكذلك رغم فائدتها الكبيرة للمجرمين الذين يستطيعون بوساطتها الهروب من وجه العدالة بعد ما يقترفون من آثام .

ونتج عن كل هذه التطورات أن أقدم عدد لا يحصى من الناس على شراء السيارات ،مع أن مجرد التفكير فى شرائها كان لايدور بخاطرهم قبل ذلك ببضع سنوات . فبينما كان عدد السيارات المرخص باستعمالها فى الولايات المتحدة فى سنة ١٩١٥ لايزيد على ٢ ½ مليون سيارة ، بلغ عددها فى سنة ١٩٢٠ أكثر من ٩ ملايين وفى سنة ١٩٢٥ نحو ٢٠ مليونا وفى سنة ١٩٣٠ أكثر من ٢٦ ½ مليون سيارة .

ومن ذلك يتبين أنه فيما بين سنة ١٩١٨و١٩٣٠ تعرفت أمريكا على كثير من السلع والخدمات الجديدة التى أصبح استخدامها عاديا جدا فى الوقت الحاضر،بدرجة تحمل على الظن بأنها كانت معروفة على الدوام، ومن أمثلة ذلك الأنوار الأوتوماتيكية لضبط المرور ، والطرق المختلفة فى أنواعها وأغراضها واتساعها ، كتلك المصنوعة من الأسمنت ذات المنحنيات المدرجة ، وتلك التى تحتوى فى طولها على ست أقسام متوازية لمرور السيارات ، والطرق التى لا تستخدم الا فى اتجاه واحد أو التى تحمل أرقاما رسمية تعرف بها . هذا فضلا عن المساكن المعدة لاقامة المسافرين،

والمبانى الأخرى المقامة على جوانب الطرق الرئيسية لخدمة السيارات وراكبيها ، والتى تشبه المدن الصغيرة من حيث اشتمالها على مطاعم الى جانب الطرق ومحال لبيع المأكولات الخفيفة وأنواع الخضر والفواكه ومحطات للبنزين ولخدمة السيارات ، وحظائر لبيع السيارات المستعملة ... الخ .

وبدىء فى ذلك الوقت فى الاهتمام بالخلاص من الجلبة والضوضاء التى يسببها ازدحام المرور فى المدن القائمة فى شرق الولايات المتحدة ، نظرا لضيق طرقاتها وكثرة مبانيها وسكانها ، فلقد انقضى وقت غير قصير كان فيه المسئولون عن جهة وست تشستر بنيويورك يشعرون بانزعاج متزايد بسبب الحـالة القذرة التى كان عليهـا نهر برونكس الصغير وكثرة تعرضه للفيضان ، ولذا وضعوا تصميما لتحديد مجراه والتحكم فى جريانه وذلك بانشاء طريق طويل الى جانبه يمكن استخدامه فى الوقت نفسه للمرور الرئيسى « الطوالى » للسيارات ، وعندما افتتح هذا الطريق للمرور سنة ١٩٢٥ وجد فيه أصحاب السيارات والمشرفون على حركة المرور والمهتمون بتنظيم الشئون البلدية والقروية ، العلاج الناجع لكل ما كانوا يشكون منه من متاعب ، فقد كان طريقا متسعا ، يشتمل على عدة أقسام متوازية ومنفصلة أحيانا تمام الانفصال بعضها عن بعض ، ولا يعطل الطريق شيئا من حركة المرور المحلية ، بل ينســاب متعرجا وسط مناظر خلابة وبعيدة عن صخب المدن ، ولذا كان من اليسير قيادة السيارات بسرعة كبيرة دون خطر أو انزعاج . ولم يمض وقت طويل حتى أنشئت طرق أخرى فى مختلف المناطق ، وكانت فى الغالب أكثر اتساعا واستقامة من ذلك الطريق ، وأدخلت تعديلات على الطرق الأخرى لتتجه حول المدن بدلا من أن تخترقها ، مما حمل أحد الكتاب على أن يقرر : « أن السيارة أصبحت أكثر شبها بقطار العائلة منها بعربة العائلة ، وان الزمن ليس ببعيد عندما يستطيع قائد السيارة أن يستخدم الطرق الكبرى التى لاتمر بأية مدينة وأن يشعر بزيادة الأمان والاطمئنان وهو يسير بسرعة

٦٠ ميلا فى الساعة عما كان يشعر به وسط فوضى طرق المدينة وان كانت سرعته لاتزيد على ٢٥ ميلا » .

غير أنه فى سنة ١٩٣١ لم تكن هذه الأمور قد تحققت بعد ، فلم يكن طريق مريت Merritt قد أنشىء بعد ، ولا طريق بنسلفانيا ، ولا طرق التقاطع المتفرعة من الطريق الرئيسى بأساليب فنية بارعة ، كما لم يوجد الازدواج الكبير للخطوط المتوازية لتنظيم المرور فى الطريق الواحد ، كما نراه فى ممر كاهيونجا Cahuenga بالقرب من لوس انجيليس Los Angeles حيث يوجد ما لا يقل عن ١٤ حارة للسير فيها جنبا الى جنب فى هذا الطريق وحده . وقد كانت سيارات الأوتوبيس متوافرة فى ذلك العهد ولكن عملية خلع قضبان الترام فى طرقات المدن كانت فى بدايتها ، وكذلك بدأت منافسة سيارات النقل الضخمة للسكك الحديدية فى نقل البضائع ، ولكن حركة المرور طوال الليل التى تقوم بها الآن سيارات النقل الضخمة والجرارات بين المدن الكبرى بعضها وبعض ، لم تكن معروفة بعد . وكذلك لم يكن معروفا ذلك الرمز الكامل لمدنيتنا المتنقلة ألا وهو المسكن الخفيف القائم على عجلات ، والذى تجره السيارات الخاصة الى حيث يريد صاحبه الاقامة ، فقد بنى أول مسكن من هذا الطراز سنة ١٩٢٩ ليستخدمه عالم بكتريولوجى أثناء اجازته ، غير أن تلك المساكن القائمة على عجل لم تتوافر الا بعد سنة ١٩٣٥ .

— ٢ —

لم يكن من الميسور أن يحدث مثل ذلك التغيير الشامل فى حياة الناس وعاداتهم دون أن يكون له آثار بعيدة المدى فى الحالة الاجتماعية ، ولذا يجمل بنا أن ندرس بعض تلك الآثار :

١ — تشجيع نمو الضواحى التى تعتمد اعتمادا كليا على السيارات ، فقد كانت الضواحى فيما مضى معتمدة على السكك الحديدية ، وكان اتساعها محدودا لما يلقاه الانسان من صعوبة اذا ابتعد

عن محطة السكك الحديدية أكثر من ميل ، ولكنها بعد التوسع فى استخدام السيارات أخذت فى النمو بسرعة فائقة ، فأخذ البعض يقتنون المساحات الكبيرة من الأراضى ويقومون بتقسيمها ومد الطرقات فيها ، لتنشأ عليها مدن ينعم فيها الأطفال بنعمة الضوء والهواء والملاعب الفسيحة ، كما يستمتع آباؤهم وأمهاتهم بالمناقشات المستمرة فى مجلس ادارة المدرسة المحلية ، حول السياسة التعليمية الواجب اتباعها ، وحيث تستطيع الزوجة أن تنتهى من تناول الأفطار السريع فى الساعة ٧٫٥٢ صباحا ثم تأخذ زوجها فى السيارة ليركب قطار الساعة ٨٫٠٣ من المحطة ، ثم تصحب أولادها بالسيارة الى المدرسة ، كل ذلك قبل أن تذهب لشراء الحاجيات اللازمة للأسرة .

أما فى الضواحى التى كانت فيما مضى بعيدة عن السكك الحديدية ، فقد ظهرت نفس الأعراض مع تغير طفيف فى التفاصيل ، فقد كان رب الأسرة يقود سيارته من مسكنه الريفى الى مكان عمله بالمدينة ، حيث يجد صعوبة كبرى فى ايجاد المكان المناسب لوقوف السيارة فى انتظاره، فلما زاد عدد الأفراد الذين هرعوا الى الاقامة فى الريف مع استمرار عملهم فى وسط المدينة ، أخذ المسئولون عن تنظيم المدينة يلاحظون مع الأسف كآبة المناطق القريبة من وسط المدينة ، حيث أخذت أسعار الأراضى والمبانى فى الهبوط وبدت أعراض الاضمحلال واضحة جلية .

٢ — وقد أدى ظهور عصر السيارة الى كثير من التغيرات الأخرى كانتقال مراكز التجارة والنشاط الاقتصادى والاجتماعى من المدينة المجاورة للسكك الحديدية الى المدينة البعيدة عنها ، ومن القرية التى لاتبعد عن السكك الحديدية أكثر من أربعة أميال ، ولكنها محاطة بأراض ضعيفة ، الى القرية القائمة فى منطقة خصبة وان كانت تبعد عشرين أو خمسين ميلا عن الخط الحديدى ، كما انتقلت التجارة من قلب المدينة الصغيرة الى أطرافها .

وقد أدى ذلك الى أن الفندق القائم فى وسط المدينة وفى أهم طريق

فيها ، والذى كان المكان الوحيد الذى يستطيع التاجر المتنقل الاقامة فيه، خسر جزءا كبيرا من عملائه بعد أن صاروا يفضلون عليه معسكر السياح القائم على احدى الطرق الرئيسية . وبمرور الوقت تعدل هذا المعسكر الى فندق من نوع جديد ، يمنح القاطنين فيه متعة الخلوة والعزلة ، وجانبا من الترف أيضا ، وذلك بأجور زهيدة نظرا لأن الفندق لايتحمل عبء ثمن فادح للأرض التى أقيم عليها أو نفقات انشاء وصيانة مطعم وحجرات عامة كثيرة ، وكذلك انتشرت المتاجر المنسقة الجديدة القائمة على حافة المدينة حيث توجد المساحات الواسعة لانتظار السيارات . كما عنيت المتاجر الكبرى فى المدن بفتح فروع لها فى الضواحى ، بعد ما شعرت بتدهور تجارتها نتيجة لأعراض سكان الضواحى عن الانتقال اليها ، فلما جاء منتصف القرن الحالى ، ظهر كثير من المراكز التجارية الهامة فى المناطق الريفية حيث يتحقق شرط هام من شروط اقبال الناس على المتاجر، ألا وهو المساحة الكافية لانتظار السيارات .

وكذلك فقدت الفنادق الصيفية الكبيرة جانبا لا يستهان به من عملائها بعد أن أتاحت السيارة لعدد كبير من الناس فرصة الانتقال الى فنادق أخرى أو الاقامة فى مساكن صيفية خاصة بهم ، فيقضون فيها جانبا من الصيف وبعض اجازات نهاية الأسبوع فى أثناء العام ، عندما تنتقل الأسرة اليها فى سيارة مليئة بالأفراد والحقائب واللوازم المنزلية المختلفة.

وقد هبط عدد المسافرين بالسكك الحديدية الى النصف تقريبا فيما بين ١٩٢٠و١٩٣٠ ، الا أن عدد أصحاب تذاكر الاشتراك « الأبونيهات » لم يتأثر كثيرا (شهدت السكك الحديدية فى ضواحى نيويورك نقصا كبيرا فى عدد حملة تذاكر الاشتراك بعد سنة ١٩٣٠ لأن ما أدخل من تحسين على طرق المواصلات التى تربط قلب المدينة « مانهاتان » بالضواحى ، من حيث وفرة الطرق الجديدة والانفاق والجسور .. الخ أدى الى زيادة عدد حملة تذاكر الاشتراك فى الأوتوبيسات ، وعدد الأفراد الذين يستخدمون سياراتهم الخاصة فى انتقالاتهم) .

٣ — وقد خلق عصر السيارات مشكلة جديدة ، ألا وهى مشكلة توفير الأمكنة اللازمة لوقوف السيارات وانتظارها ، وهى مشكلة لا تكاد تحل حتى تتجدد مرة أخرى . فبعد سنة ١٩٢٠ بقليل كان المشتركون فى السكك الحديدية يتركون سياراتهم فى ساحة محطات الضواحى ، وعندما تكاثرت العربات تبينت الحاجة الى توسيع تلك المساحات مرة وثانية وثالثة ، وكلما اتسعت زاد عدد العربات المنتفعة منها ، وكذلك أنشئت طرق جديدة وعريضة ومعدة بأمكنة لانتظار العربات عند مدخل المدن الكبيرة ، مما شجع عددا متزايدا من أصحاب السيارات على استخدامها ، بحيث أنه فى منتصف القرن استمر البحث شديدا عن مكان لانتظار السيارة كما كان فى أى وقت منذ ظهور السيارات .

٤ — وكان من النتائج الخطيرة لعهد السيارات كثرة الوفيات المفاجئة الناتجة عن حوادث السيارات ، فقد زاد عدد ضحايا تلك الحوادث من ١٥٫٠٠٠ سنة ١٩٢٢ الى نحو ٣٢٫٠٠٠ سنة ١٩٣٠ ، غير أنه بعد سنة ١٩٤٨ بقى عدد الضحايا كما كان سنة ١٩٣٠ . وتعزى كثرة الضحايا الى ما أدخل على السيارات من زيادة فى القوة والى ما تغرى به الطرق الممهدة المستقيمة من زيادة فى السرعة ، غير أن كثرة الضحايا فى عطلة آخر الأسبوع ، حملت المسئولين على زيادة التشدد فى منح رخص القيادة وفى فحص السيارات قبل الترخيص بسيرها ، وعلى الاكثار من علامات التحذير المقامة على جوانب الطرق . وكذلك عنيت بعض المؤسسات كمجلس الأمان الأهلى National Safety Council ومجلس أمان السيارات Automotive Safety Council ببحث أسباب كثرة حوادث السيارات ووسائل الوقاية من تلك الحوادث ، ومع ذلك فانك فى الوقت الحاضر تستطيع أن تتنبأ وأنت على ثقة بأن عطلة نهاية الأسبوع المقبلة ستدفع بمئات من الرجال والنساء والأطفال الى نهاية دموية مفاجئة .

٥ — وقد ساعد عصر السيارات، بمعاونة التليفون والراديو ، وغيرهما من وسائل الاتصال بين الناس ، على القضاء على عزلة سكان الريف .

وقد وصف أحد الكتاب فى سنة ١٩٠٠ حالة المزارع عندما يصيبه الرخاء فى منطقة الغرب الأوسط فقال : « عندما يشعر المزارع ببعض الثراء ، يسارع أولا الى تجديد طلاء بيته وملحقاته ، ثم يضيف ركنا أو مدخلا جديدا الى مسكنه ، ثم يشترى بيانو ، وأخيرا يرسل أبناءه الى الجامعة ». ولا شك أن هذا المزارع اذا عاش حوالى سنة ١٩٢٥ كان يجعل اقتناء السيارة أول ما يقدم عليه قبل طلاء المسكن ، كما أن اقتناء البيانو يصبح أمرا بعيد الاحتمال . ونظرا الى أن التوسع فى استخدام الجرارات ساعد على توسيع الرقعة الزراعية ، فضلا عما أحدثته كثرة المعلومات العلمية التى نشرتها وزارة الزراعة وعملاؤها فى الريف من تحسين أساليب الزراعة ، فقد قل اعتماد المزارع على العمل اليدوى ، وعلى استخدام الأساليب الزراعية القديمة ، وتحول المزارع تدريجا الى ما يشبه رجل الأعمال الذى يستغل المزرعة استغلالا علميا ويستخدم فى سبيل ذلك مختلف الآلات ، ويلم بتفاصيلها الفنية . ولذا انتهى الوقت الذى كان المزارع فيه يبدو أضحوكة للناظرين عندما يقوم بزيارة المدينة ، كما كانت زوجته وبناته يبدون فى ملبوسات لاتتفق مع الذوق العام .

٦ — وكذلك ساعدت السيارة على توسيع الآفاق الجغرافية ، وبخاصة لأولئك الأفراد الذين كانوا على درجة من الفقر لاتسمح لهم بالأسفار ، وقد يوجد حتى الآن بعض الرجال أو النساء الذين لم يبتعدوا كثيرا عن المنطقة التى يقيمون فيها ، ولكن عددهم فى تضاؤل سريع ، ذلك لأن الأسرة التى كانت تقضى يوم العطلة بمنزلها صارت الآن تنتقل الى ساحل البحيرة أو البحر ، وتستطيع أثناء العطلة الطويلة أن تنتقل الى مسافات بعيدة ، لترى مناظر جديدة وتتعرف بأفراد كثيرين ، وتشترك فى ألوان من الرياضة لم يسبق لها ممارستها من قبل .

وفضلا عن ذلك ، فان السيارة قد أضعفت الروابط التى تربط بين الأسرة وبين مكان معين . ولقد كان الأمريكيون على الدوام أكثر ميلا الى التنقل من الأوربيين ، ولكنهم فى الوقت الحاضر أصبحوا أقدر على تتبع

التيارات الاقتصادية وما تسببه من مد وجزر منهم فى أى عصر مضى فينتقلون بالسيارات التى تجر وراءها أحيانا المساكن المتحركة الى حيث يجدون الطلب على أعمال المبانى أو جمع الفاكهة أو بناء الطائرات . ولقد كان بعض المفكرين يعربون عن أسفهم لما يعتبرونه نقصا فى هدوء الأمريكيين وزيادة فى ميلهم الى الحركة الدائبة ، فكانوا يمتدحون الرجل الذى يستمسك بالأرض التى استقر فيها آباؤه وأجداده . غير ان السيارة أصابت هوى فى نفوس الأمريكيين ولاءمت مشاربهم ، اذ أن الطباع الأمريكية لاتميل الى الاستقرار ، بل تفضل المغامرة ، وتؤمن بأن الحركة الكثيرة تزيد من التجارب وتهذب النفس ، كما أنها تفسح المجال لفرص جديدة قد تكون مصدرا لخير وفير .

٧ — ولقد ساعدت الثورة التى تسببت فى خلقها السيارة على زيادة تقدير الناس لأنفسهم ، ولست أقصد بذلك روح المباهاة التى تحمل بعض الرجال والنساء على اقتناء سيارة من طراز فاخر ، لكى يستثيروا بذلك حسد جيرانهم ومعارفهم ، وانما أقصد أمرا آخر لا يسهل تحديده وان كان الشك لا يتطرق الى حقيقته ، ولقد أشار البعض الى أن الرجل الآسيوى الذى احتمل المهانة من الأوروبى زمنا طويلا لا يستطيع احتمالها بعد أن يتولى بنفسه قيادة الجرار أو الآلة الضخمة التى تستخدم فى تمهيد الأرض Bulldozer فكذلك حال الأمريكى الذى انحط تقديره لنفسه بسبب فقره أو ضآلة مكانته فى المجتمع أو لون بشرته ، أو غير ذلك من العوامل التى تحمله على أن يبخس نفسه حقها ، فانه رغم ذلك يشعر بمزيد من الكبرياء والاعتداد بالنفس عندما يمسك بيده عجلة قيادة السيارة ، فيجد السيارة تسرع طبقا لأمره وتنقله حيثما يريد ، وعندما يقود سيارة كبيرة ، يزيد تقديره لنفسه لأنه يشعر بمسئوليته فى توجيه آلة على جانب كبير من القوة .

وقد بدا أثر الثورة التى احدثتها السيارات فى المجتمع واضحا فى جنوب الولايات المتحدة بوجه خاص ، حيث بدأ الانسان يسمع شكوى

السكان البيض من « الزنوج المتبجحين » على الطرقات العامة . غير أن هذا الشعور الجديد بالاعتزاز بالنفس كان أبعد أثرا من كل ذلك ، فانه أصاب الى حد ما كل انسان يقود سيارة ، ففى سنة ١٩٥٠ قدر عدد العمال فى الولايات المتحدة بنحو ٥٩ مليونا من الرجال والنساء ، وفى نفس ذلك العام ، كان عدد الذين يقودون السيارات فى الولايات المتحدة يزيد قليلا على ذلك ، أى يبلغ ٥٩٫٣٠٠٫٠٠٠ ، بمعنى أن عدد السائقين كان يزيد قليلا على عدد جميع العمال . ولا شك أن التاريخ البشرى لم يسبق له أن سجل هذه النسبة العالية لسكان قطر من الأقطار ، الذين شعروا بالانتعاش المعنوى الذى ينتج عن السيطرة المطلقة على القوة الآلية الضخمة .

الفصل التاسع

النظام القديم فى صحوة الموت

شهدت السنوات الثلاث التالية لعقد الهدنة فى سنة ١٩١٨ تغيرا كبيرا فى شعور الأمريكيين وعواطفهم ، فقد خبت شعلة المثل العليا التى أضاءت الطريق لثورة الضمير الأمريكى ، وظهرت على الناس علامات الضجر والارهاق ، وبخاصة فيما يتعلق بآمالهم واهتمامهم بالشئون العامة .

ويعزى ذلك الى أن الجنود عادوا من ساحة القتال وقد خابت آمالهم فى جدوى ذلك القتال ، فضعفت حماسة الأمريكيين للفكرة التى أنبتت عصبة الأمم ، مما دعا الى تقرير الامتناع عن الاشتراك فيها — وقد يكون هذا القرار نكبة كبيرة ، ولكنه فى ذلك الوقت كان قرارا لامفر من اتخاذه، وأخذ الناس يشعرون بحاجتهم الى الاسترخاء والى أن يعنوا بشئونهم الخاصة ، بدلا من أن يعنوا بشئون غيرهم وبشئون العالم أجمع . وأصبح هدفهم فى الحياة هو الاستمتاع بها ، ولذا أخذوا فى مخالفة قانون منع تعاطى المسكرات مخالفة علنية صريحة ، مع أنه لم يمض وقت طويل على صدوره ، وهو القانون الذى يعتبر آخر مظهر من مظاهر ثورة الضمير الأمريكى ، وقد بلغ تبدل شعور الناس حدا أن المهتمين بشئون الاصلاح أنفسهم والمكافحين فى سبيله ، بدءوا يتساءلون عن جدوى هذا الاهتمام وذلك الكفاح .

وفى هذا الجو الذى ساد فيه انصراف الناس عن مثل الاصلاح العليا، فاز فى انتخاب رياسة الجمهورية سنة ١٩٢٠ وارن هاردنج من أعضاء مجلس الشيوخ ، وكان أهم ما يمتاز به أنه جميل الطلعة ومشهور

بسماحته وتواضعه وميله للخير ، وكان هذا الرجل الطيب على قدر محدود من الذكاء والكفاية ، ولذا لم يشعر بالحاجة الى أن يقدم على أصلاح أى أمر من الأمور . وقد تبين فيما بعد أن عددا من أخصائه المقربين منه كانوا من النفعيين المرتشين ، ولكن ذلك الأمر الذى أثار ضجة كبيرة عقب كشفه ، لم يعرف الا بعد وفاة هاردنج وتولية خلفه كالفين كولدج ، وكان هذا الأخير رجلا نزيها دقيقا مشهورا بالحذر فى كل أعماله ، ولكنه كان سلبيا فى خلقه وتفكيره الى حد لم يسبقه اليه أى رئيس للجمهورية ، فكان لايعنى بأية مشكلة من مشاكل الدولة الا اذا أصبح اهتمامه بها أمرا لا مفر منه .

وقد أخبرنى أحد الأصدقاء أنه عندما كان صغيرا فى سنة ١٩١٨ وعلم من والده أن الهدنة قد عقدت ، سأل والده : « الآن وقد توقفت الحرب ، ما الذى ستجده الصحف للكتابة فيه والتحدث عنه ؟ » . وقد أثار هذا السؤال ضحك والده ، ولكن السنوات التالية أثبتت أنه كان سؤالا ذا مغزى كبير ، فقد حدث بالفعل أن الصحافة الأمريكية تحولت تدريجا من الاهتمام بشئون المسائل الحربية ومسائل السياسة الداخلية والخارجية ، الى اهتمام زائد بشئون الجرائم والنكبات والفضائح والمآسى الانسانية ، وفوق كل ذلك الاهتمام بشئون الرياضة . ولم يكن هذا التحول مقصورا على الصحافة الشعبية الرخيصة ، بل شمل أيضا الصحف الكبرى المعروفة بالرزانة والبعد عن المهاترات . وعندما نجح الشاب لندبرج فى الطيران بمفرده ومن غير توقف من نيويورك الى باريس ، نظرت الصحافة كما نظر سائر الناس الى هذا الحادث كأنه أهم الأحداث التى ارتجت لها أركان المعمورة منذ بدء الخليقة .

وظهرت فى ذلك العهد نزعة قوية الى التحرر من التقاليد ومن القيود الاجتماعية والدينية التى سيطرت على المجتمع فيما مضى ، وكانت هذه الرغبة قائمة فى الوقت الذى اتجهت فيه الصحافة الى العناية بالأمور الثانوية التى لاجدوى من ورائها .

وقد نبتت طلائع هذه الثورة على التقاليد فى نواح مختلفة ، فنذكر على سبيل المثال أنه فى سنة ١٩١٢ اجتاحت الشعب موجة من الجنون بالرقص ، جعلت المسنين يشاركون الشباب فى حضور حفلات الشاى الراقصة فى مناسبات لا تعد ولا تحصى ، ليستمتعوا فيها برقص « الفوكستروت » و « التانجو » على نغمات موسيقا الجاز من تأليف ارفنج برلين، كما افتتح معرض للصور سنة ١٩١٣ أذهل جمهور المشاهدين بما احتواه من صور الفن الحديث ، وكانت هذه الصور لاتتفق أصلا مع ما اعتاد الناس رؤيته فى مثل هذه المعارض . ومن طلائع تلك الثورة أيضا خروج كثير من الشعراء على أنظمة الشعر كما كانت معروفة من قبل ، من حيث أوزانه وموضوعاته ومعانيه . هذا فضلا عن أن الحرب دفعت بملايين الشبان والشابات الى الخروج من الأوساط التى ألفوها ، وتذوق الحرية فى أوسع معانيها ، فلما جاءت سنة ١٩٢٠ كانت الثورة على التقاليد وعلى الحياة الجامدة المحافظة ثورة واضحة قوية ، وزادت قوتها واتسع نطاقها على مر السنين .

وكانت الفتيات على رأس هذه الثورة ، فعلى الرغم من أن الأمهات كن يرين أن تعاطى المسكرات لا يتفق مع خلق البنات المهذبات ، الا أن بناتهن كن يشعرن بلذة كبيرة عند رشف الويسكى من الزجاجة التى يحملها فى الجيب الخلفى الشبان المرافقون لهن ، وذلك أثناء جلوس الفتاة مع الشاب فى سيارة مقفلة واقفة على جانب الطريق . واذا كانت الأمهات يعتقدن بأن السيدة المهذبة لاتتحدث فى بعض الموضوعات الا تلميحا لا تصريحا ، فان بناتهن كن يتحدثن بكل صراحة عن الجنس والعلاقات الجنسية ، استنادا الى ما أشيع من قول فرويد بأن الكبت شديد الضرر بالانسان ، واذا كانت الأمهات قد عشن فى عصر الملبوسات الطويلة ، عندما كان الكشف لأنظار الناس حتى عن رسغ القدم يعتبر خروجا عن قواعد الآداب ومثيرا لشهوة الرجال ، فان بناتهن كن يباهين بالتجرد من كل ذلك ، وكن يرحبن باستخدام الأزياء الجديدة التى رفعت حافة

الثوب الى مستوى الركبة .

وبعد سنوات قلائل تغير منظر المرأة الأمريكية عما كان عليه فيما مضى، فقد عمدت الى قص شعرها — اما قصا أفقيا أو قصا متدرجا على نمط الشبان — وأكثرت من زيارتها محلات التجميل التى ذاع انتشارها بعد انتشار عادة تجعيد الشعر . ومنذ سنة ١٩٢٠ أخذت فى استخدام الجوارب التى تشبه البشرة فى لونها ، وأصبحت هذه الجوارب أكثر أنواع الزى الحديث انتشارا وبقاء على مر السنين . وقد اضطرت المرأة المتقدمة فى السن الى مجاراة هذا التيار على مضض منها ، اذ كانت لا تستطيع الوقوف فى وجه تيار الشباب الجارف .

وقد صحب كل ذلك تغير ملحوظ فى العلاقة بين الجنسين ، فأصبح الرجال يسلمون بحق المرأة فى العمل المستقل ، سواء أكانت فى حاجة اليه أم فى غير حاجة ، وذاعت عادة التدخين بين النساء ، وانتشر تعاطى المسكرات بين الجنسين ، كما كثرت حفلات « الكوكتيل » وأصبحت من الأنظمة الاجتماعية المعترف بها . ومن علامات ذلك العهد أن أفل نجم مارى بكفورد النجمة السينمائية التى تمثلت فيها براءة الفتاة وطهارتها ، وحلت محلها نجمة أخرى تتمثل فيها مفاتن الانوثة واغراؤها ألا وهى كلارا بو. ويعلل ذلك بأن المرأة الأمريكية دخلت طورا جديدا ، فقد نجحت فى الحصول على حق الانتخاب ولكنها لم تغز ميدان السياسة بدرجة ملحوظة كما كان منتظرا ، ولذا تحولت الى استخدام حريتها الجديدة فى الاستمتاع بحياتها الى أقصى حد . وهنا يجمل بنا أن نشير الى بعض الملاحظات العابرة التى نستخلصها من تجاربنا فى سنة ١٩٥٠ : والملاحظة الأولى أن الأخلاق والأنظمة الاجتماعية لم تكن فى ذلك العهد أكثر خلاعة أو أقل استمساكا بالآداب المرعية منها فى الوقت الحاضر ، بل ان ما يثير دهشتنا اليوم ونحن ندرس الحالة فى ذلك الماضى القريب ، هو وجود تلك التقاليد التى أثارت الشباب بعد سنة ١٩٢٠ ، بسبب غلوها فى المحافظة والتقيد .

والواقع أن ما شهده ذلك العهد من تغير خطير فى الأنظمة الاجتماعية ، لم يخرج عن كونه اقرارا للأوضاع التى أصبحت سائدة فيما بعد ، ولكن جو الحياة كان مختلفا فى الحالين ، ففى الماضى القريب كانت روح التجديد والخروج على التقاليد تثير حماسة المشتركين فيها ، فى نفس الوقت الذى كانت تثير فيه جزع غيرهم ممن كانوا عاجزين عن مسايرة الجيل الجديد فى أهوائه ، أو فهم ما يرمى اليه من أهداف .

والملاحظة الثانية ، هى أن الباحثين الاجتماعيين أمثال دكتور كنزى يؤكدون أن المجتمع لايتغير كثيرا من جيل الى جيل ، فيما يتعلق بمسائل الآداب العامة ومن حيث التمسك بها أو الخروج عليها .

والملاحظة الثالثة ، أن الاتجاه العام فى ذلك العهد لم يكن نحو الانحلال الخلقى بل نحو التحدى الصاخب لمعايير الأخلاق وقتئذ . فاذا نظرنا الى أزياء السيدات وجدناها تغير مظهر السيدة الكاملة النمو ، الى فتاة صغيرة تلبس الملابس القصيرة وتقص شعرها وتقلل من بروز صدرها ، وكذلك كانت النزعة الى الرقص ، فان رقصة « الشارلستون » كانت أقرب الى التهريج العنيف منها الى الحركات المثيرة للشهوات .

والملاحظة الأخيرة ، هى أننا يجب أن نذكر أن عددا كبيرا من الأمريكيين ، يعد بالملايين ، لم تكن له أدنى يد فى هذه الثورة على التقاليد ، بل كان لا يتصور أنه سوف يتأثر بها ويجرف فى تيارها يوما من الأيام .

والى جانب هذا التحرر من القيود الاجتماعية ، ظهرت نزعة أخرى نحو التشكك فى صحة التعاليم الدينية ، على زعم أن العلم الحديث قد أطاح بكثير من تعاليم الدين ، كما ظهرت نزعة الى عبادة اللذة والسرور ، فكان الكثير من الشبان والفتيات الذين يباهون بعقليتهم المجددة ، ينظرون الى كل اهتمام برفع المجتمع أو الذهاب الى الكنيسة أو الاشتغال بالخدمة الاجتماعية ، كأنها أمور لاتحتمل وتدخّل لا مسوغ له فى حياة الأفراد الخاصة ، اعتقادا منهم بأن من حقهم الاستمتاع بالحياة ، وأن النزهة فى السيارة صباح الأحد ، كانت أدعى الى السرور من الذهاب الى

الكنيسة . أما الأفراد الذين يميلون بطبعهم الى المثل العليا ، فانهم اتجهوا بكل جوارحهم نحو التحليل النفسانى ، فقد بدا ذلك لهم كوسيلة مستساغة لرفع حالتهم النفسية ، واصلاح عيوبها بطريقة علمية وغير دينية . كما اتجهوا الى النهوض بالتعليم والثورة على القيود التى فرضتها التقاليد عليه فيما مضى ، أو اتجهوا الى خدمة الانسانية على اعتبار أن ذلك دين لا يرتبط بشعائر معينة .

ولم ينج الكتاب فى ذلك العصر من الشعور بالغضب وخيبة الأمل الذى ساد المجتمع فى ذلك الوقت ، وكان شعورهم مزيجا من الغضب على القيود والتقاليد التى أفسدت عليهم حياتهم وقت شبابهم ، ومن الاحتقار لمظاهر الابتذال التى ميزت المدنية المادية فى ذلك العهد ، كما كانت خيبة أملهم راجعة الى عدم تحقيق الأهداف الروحية التى دفعت بالولايات المتحدة الى دخول الحرب العالمية الأولى . وهذا يفسر لنا الاقبال المدهش على مؤلفات مينكن الذى تعود السخرية بالدين والتقاليد والآداب المرعيه والنزوع الى العاطفة من جانب المصلحين والسياسيين ورجال الفن، أماسنكلير لويس فقداختص بالكتابة عن المدينة الأمريكية الصغيرة ، وعن بابيت ذلك الرجل الخيالىالذى كان يصوره الكاتب على أنه من رجال الأعمال الذين يشعرون بالامتعاض من ظروف الحياة ، كما يشعرون بالعطف على ضحاياهم ، وهناك أيضا ارنست همنجواى ، ذلك الكاتب المقل فى نثره ، الذى اتجه فى كتابته الى اقناع الشباب المتعلم — وهو الشباب الذى كان يعتقد أن موطنه الروحى هو فى حى مونبارناس فى باريس — بأنه فى الواقع شباب قد أوصدت الأبواب فى وجهه ، ولم يبق أمامه الا أن يستمتع بالملذات كالمسكرات والنساء . أما الكاتب أوجين أونيل فانه استخدم فرويد وتعاليمه الخاصة بالضمير الباطنى فى انتاج روايات كثيرة عنيفة ، تنهج كلها على نحو يعتبره الجيل السابق نهجا فظيعا مخجلا .

ولقد بلغ شعور بعض الكتاب بخيبة الرجاء حدا جعلهم يفقدون

الأمل فى كل شىء ، ويقفون موقفا سلبيا من كل شىء .ومع ذلك فلم يكن الشعور المسيطر على المجتمع اذ ذاك شعورا بخيبة الأمل ، بل شعورا بالانتعاش الكبير بسبب اتساع الفرص فى المستقبل ، ولذا شهد هـذا العهد نهضة علمية وفنية كبيرة ، تعزى الى انتشار العقيدة بين الناس بأن الوقت قد حان للخلاص من القيود التقليدية ، وللافصاح عن الصـدق والحقيقة المجردة ، ولذا شهد هذا العهد ازدهار عدد كبير من الشعراء والكتاب ومؤلفى الروايات والمسرحيات [1] . وعلى الرغم من تقـدم السينما حتى ارتقت الى مرتبة صناعة من أكبر الصناعات ، وكانت تجتذب ملايين المشاهدين الى مسارحها فى كل أربع وعشرين ساعة ، فان مسارح التمثيل لم تشهد اقبالا كما شهدت فى ذلك العهـد . وفى عام ١٩٢٧ وحده ، افتتحت ٢٦٨ مسرحية فى مسارح برودواى — وهذا رقم كبير جدا اذا قيس بأرقام السنوات الحديثة — وصحيح أن الكتاب والفنيين الأمريكيين كانوا يقدسون فى ذلك الوقت أمثالهم من البارزين فى القارة الأوروبية مثل بروست وجويس و ت . س . اليوت وجرترود شتاين وفريق الرسامين الفرنسيين المحدثين وغيرهم . غير أن الأدلة أخـذت تتضاعف على أن الولايات المتحدة قد بلغت سن الرشـد من الناحية الثقافية .

— ٢ —

وقد كان بعض الأمريكيين المحدثين والمتعالين ينظرون نظرة احتقار الى الشخصية الخيالية التى خلقها الروائى سنكلير لويس فى شخص بابيت، اذ كانت فى نظرهم شخصية فجة مبتذلة . غير أن هذا العهد كان فى الواقع عهد بابيت وأمثاله ، اذ كانت النهضة الصناعية والتجارية التى نعمت بها أمريكا فى السنوات السبع السمان التى امتدت من عام ١٩٢٣ الى أكتوبر

(١) من أمثال : Lewis, Hemingway, O'Neill, Dreiser, Dos Passos Sherwood Anderson, Maxwell Anderson, Willa Cather, Edna St. Vincent, Millay, Ellen Glasgow, F. Scott Fitzgerald.

سنة ١٩٢٩ تفوق بمراحل ما صادفها من نهضة فكرية أو فنية .

ولقد شهدت هذه السنوات رخاء عظيما يرجع — فيما يرجع اليه — الى النمو السريع فى صناعة السيارات ، والى النهضة الفجائية فى صناعة الراديو ، والاقبال الشديد على صناعة المبانى بسبب الطلب المتزايد من جانب المشتغلين بالأعمال للحصول على مبان لمكاتبهم تكون أوسع وأفخم مما كانت عليه ، والى رغبة سكان المدن المتزايدين فى عددهم فى الحصول على مبان سكنية جديدة ، كما ظهرت حاجة الضواحى والمناطق السكنية الجديدة التى نشأت بظهور السيارات الى التوسع فى توفير المساكن للراغبين فى الاقامة بها . وبالاضافة الى ذلك ، فقد كانت هناك نهضة فى صناعة الرايون وانشاء المتاجر المتناسقة Chain Stores ، هذا بالاضافة الى الزيادة العامة فى مجموع الانتاج ، بسبب تنبه المنتجين الى الفائدة العظيمة التى تعود عليهم من استخدام الآلات الحديثة ، ووضع الخطط الدقيقة لتحسين انتاجهم ، بدليل أنه فيما بين عامى ١٩٢٢ و١٩٢٩ زاد الانتاج الفعلى للزراعة والصناعة والتعدين والمبانى بمقدار ٣٤٪ — وهو رقم يثير الدهشة — كما أنه فيما بين عامى ١٩٢٠ و١٩٣٠ زاد انتاج العامل فى الساعة بمقدار ٢١٪ !! .

ولقد كان كل ذلك أمرا محمودا من غير شك ، اذ أثبت أنه فى الامكان انتاج كل ما يحتاج اليه الشعب بسهولة واضحة ، وكان الأمر الذى يثير التساؤل هو المقدرة على بيع ما تنتجه البلاد . وقد أجمع الرأى اذ ذاك على أنه يمكن حل المشكلة اذا وجد البائع الماهر القدير ، ولذلك ارتفع قدر ذلك البائع بعد سنة ١٩٢٠ وأصبح ينظر اليه نظرة تبجيل وتقدير ، على اعتبار أنه خير أمل لأمريكا فى الاحتفاظ بنهضتها وتقدمها .

ولقد كان المنتجون يفرضون على الشبان المكلفين ببيع منتجاتهم نسبا محددة يجب عليهم تصريفها ، وكانوا يفرضون على هؤلاء البائعين اختبارات عملية شاقة ، ليستحثوهم على العمل أو ليتخلصوا من غير الأكفاء من بينهم ، كما كان رؤساء الأعمال يُفهمون المشتغلين تحت ادارتهم أن عهد

انتظار الطلبات قد زال ، وأنه بدلا من انتظار المشترى ، يجب عليهم أن يخرجوا الى الميدان ويبحثوا عنه . وكذلك افتنت شركات الاعلان فى اظهار الاعلانات المغرية ، التى جعلت الاعلانات التى كانت معروفة من قبل تتضاءل بالنسبة اليها . وكانت العبارات والصور والألوان التى اشتملت عليها تلك الاعلانات تكاد تلزم الجمهور بالشراء ، وتتحدث الى غرائزه القوية للظهور بمظهر لائق فى المجتمع .

— ٣ —

ولكن للانسان أن يتساءل : ما الذى كان يمنع الصناعة والتجارة الأمريكية من التقدم السريع المطرد ؟ الواقع أن الحكومة لم تكن عائقا فى سبيل ذلك ، فان الادارات الحكومية ولجانها كانت اذ ذاك تشبه رئيس الجمهورية كوليدج من حيث ميله الى النعاس ، ولم تكن هناك عقبة من جانب العمال ، اذ هبط نشاط نقابات العمال بعد موجة من الاضرابات العنيفة عقب انتهاء الحرب مباشرة ، بل هبط عدد المشتركين فيها ، فبعد أن كان عددهم أكثر من ٥ ملايين سنة ١٩٢٠ نزل الى أقل من ٤ ملايين سنة ١٩٢٧ والى ½ ٣ مليونا سنة ١٩٣١ (من الجائز أن يعلل هذا الهبوط بأن الاشتراك فى النقابات كان يتطلب مجهودا كبيرا ، فى الوقت الذى شعر فيه العمال كبقية أبناء الشعب بالحاجة الى الاسترخاء) .

وقد كان مقدرا أن يصطدم الاقتصاد الأمريكى بعامل جديد لم يكن فى الحسبان ، ألا وهو التضخم المصطنع الذى أحدثته المضاربات ، فأنشأت منه ثروة وهمية لا يربطها شىء بعملية الانتاج نفسها ، اذ كان رجال الأعمال فى أمريكا قد بالغوا فى الاهتمام بالأرباح والأسعار التى لا وجود لها الا فى دفاترهم . ففى الوقت الذى كانت فيه البلاد فى مسيس الحاجة لاستنباط الأساليب التى تساعد على توزيع ثمرات الانتاج الصناعى فى أوسع نطاق وبأعدل وسيلة ، دون الاضرار بالبواعث التى تدفع العمال ومديرى الأعمال وأصحاب رؤوس الأموال الى زيادة الانتاج

والعمل ، ظهرت فى البلاد نوبة المضاربات التى كانت فائدتها لا تعـدو الأقلية التى تملك رأس المال ، كما ظهرت وسائل مختلفة لتوزيع ثمرات هذا الرخاء المصطنع على جيوب الأقلية المترفة .

وكان من أهم هذه الأساليب الأخيرة اندماج بعـض الشركات فى بعضها على أساس أسعار بالغة الارتفاع ، مما عاد بالفائدة على قليل من الأفراد الذين كانت لهم سابق معرفة بمثـل ذلك الاندماج . وكذلك المبالغة فى انشاء الشركات القابضة ، واحدة فوق أخرى على نظام هرمى، كما حدث فى شركات انسول Insull وفان سفيرنجن Van Sweringen المتضخمتين ، وقد بلغت هذه الشركات الكبرى المتداخلة بعضها فى بعض خمسا أو ستا أو سبع شركات ، وكان من نتائج ذلك أن الأرباح التى كانت تجنيها الشركات الأساسية التى توجد عند قاعدة ذلك الهـرم ، كانت لاتصل الا الى أيدى أصحاب الشركة الرئيسية الواقعة فى القمة . ومن الأساليب الأخرى التى أدت الى تفاقم الحالة اقدام البنوك على تكوين شركات ضمان من باطنهـا ، وبذا تستثمر الودائع الموجودة بالبنوك فى شراء الأسهم أو الأراضى ، وهذه أعمال يحرم القـانون على البنوك ممارستها . وكذلك العمل على رفع أرباح شركات التضـامن بوسائل مفتعلة ، كتبادل بيع وشراء ممتلكاتهـا فيما بين مجموعة من الشركات ، وتكون كل عملية من بيع أو شراء مصحوبة برفع فى الأسعار وأخيرا تكوين حلقات فى داخل بورصة الأوراق المالية يشترك فيها كبار موظفى شركة معينة مع بعض السماسرة والمضاربين المختارين ، وذلك بغرض رفع أسهم تلك الشركة ، ثم بعدذلك تباع تلك الأسهم للمشترين، فيعود الكسب الكبير على موظفى الشركة ، وتقع الخسارة على حملة أسهمها الجدد .

ولقد كانت هذه بعض الوسائل التى انتشر استخدامها فى ذلك الوقت، وكان من نتائجها التلاعب بالمبادىء الأساسية لاصدار النقد ، ثم توثيق الروابط بين المضاربات وما تنتجه من أسـعار مصطنعة ، وبين الكيان

الاقتصادى للدولة ، الى درجة جعلت هبوط الأسعار اذا تحقق عظيم الضرر بالمصارف والشركات بعضها تلو بعض ، وكذلك بموظفيها وحملة أسهمها . ومن هذا يتبين أن نشاط بعض الأفراد غير المسئولين الذين لم يتدبروا عواقب ما أقدموا عليه من قلب لأوضاع النظام الرأسمالى السليم كان خير تمهيد لوقوع الكارثة التى انتابت البلاد .

ولا يعرف بالضبط عدد الأفراد الذين كانوا يتجرون بالأسهم والسندات فى تلك السنوات التى تفشى فيها الاستهتار بكل شىء ، وكان يقدر فى الغالب بحوالى المليون من الذين تخصصوا بالشراء بالحد الأدنى – أى بدفع جانب صغير من ثمن الأسهم التى يشترونها – وبمليون أو مليونين من الذين يدفعون الثمن كاملا عند الشراء ، ثم يتابعون باهتمام بالغ تقلبات أسعار الأسهم فى الصفحات التجارية بالصحف اليومية . ولم تكن هذه المضاربات مقصورة على رجال المال والأعمال فحسب،بل شملت أيضا سيدات المنازل والمزارعين والعاملات على الآلة الكاتبة ورجال الكنيسة ، وكل من يستطيع الحصول على مبلغ من المال لشراء أسهم جنرال موتورز أو راديو كرمان أو مونتى وورد ... الخ الخ . ويحكى بهذه المناسبة أن أحد الشبان سأل أحد كبار رجال المال عن رأيه فى خير طريقة للحصول على تعليم تجارى ، فنصحه المالى بأن يشترى أسهما من شركة كذا ، وينتظر ليرى النتيجة ، وبعد أسبوعين عاد الشاب الى المالى يسأله فى سرور ودهشة : «كم مضى من الزمن على هذه الحالة ؟» . ولاشك أن شراء الأسهم فى سنة ١٩٢٨ وفى جانب من سنة ١٩٢٩ كان شبيها بالمضاربة على الخيل ، فى سباق تفوز فيه جميع الخيول بطريقة عجيبة غير مفهومة ، فكانت الأسعار فى تصاعد مستمر ، وقد دلت الاحصاءات الرسمية ، على أننا اذا أخذنا أسعار الأسهم فى سنة ١٩٢٦ على أساس المتوسط ١٠٠ فانها بلغت فى يونية ١٩٢٧ : ١١٤ ، وفى يونية ١٩٢٨:١٤٨، وفى يونية ١٩٢٩ : ١٩١ ، وفى سبتمبر ١٩٢٩ بلغت الارتفاع الجنونى وقدره ٢١٦ !!

وكان لهـذا الصعود المستمر فى الأسعار تفسيرات مختلفة ، ففى رأى البعض كان ذلك يعتبر بداية عهد جديد ، تصل فيه الأسعار الى مستويات عالية دائمة على نمط الهضبة المرتفعة ، وفى نظر البعض الآخر كان الشعب كله سوف يغتنى اذ يصبح مالكا للأسهم والسندات ، وفى رأى الآخرين أن ما حدث فى ذلك الوقت كان لايخرج عن كونه مضاربة جنونية ، قد تؤدى الى افلاس البعض عند انهيار الأسعار ، ولكن الأمور لا تلبث بعد قليل أن تعود الى نشاطها الطبيعى . غير أن أولئك الناس كانوا يجهلون أن سوق المضاربة قد بلغت من الاتساع حدا أدى الى شل الضوابط التى وضعت لضمان بقاء التوازن فيها ، وأهمها اقبال بعض المشترين على بيع ما لديهم من أوراق مالية ، مما يؤدى الى هبوط الأسعار ، وهذا بدوره يشجع المشترين الجدد على الشراء فتعود الأسعار الى الارتفاع — ولقد تحولت هذه الضوابط الى عوامل لزيادة استفحال الأزمة عند حدوثها ، هذا فضلا عن أن جانبا كبيرا من الشركات الأمريكية ارتبطت فى شئونها المالية بعجلة هذه الأسعار المتضخمة ، فاذا حلت الكارثة فانها بلا شك سوف تهز الاقتصاد القومى من أساسه .

ومنذا الذى كان يستطيع منع تلك الكارثة من الوقوع ؟ لقد أصبح هربرت هوفر رئيسا للولايات المتحدة فى مارس سنة ١٩٢٩ بعد كلفين كولدج ، فهل كان فى استطاعته وقف التيار ؟ انه عندما وصل الى البيت الأبيض ، كان الوقت قد أزف للتدخل فى الأمر من غير احداث ذعر مالى شديد ، ولو كان فى حدود ضيقة . ولم يكن مما ينتظر من رئيس جمهورية نجح فى الوصول الى مركزه العظيم نتيجة لحملة انتخابية شعارها « أربع سنوات أخرى من الرخاء » أن يتسبب فى احداث مثل ذلك الذعر .

وهل كان فى مقدور أساطين المال مثل بنك مورجان أن يقفوا فى طريق الانهيار ؟ كان ذلك بعيد الاحتمال ، فان بنك مورجان نفسه كان متورطا فى أكبر مشروعات الشركات القابضة ، وكان النجاح فيها متوقفا على بقاء

الأسعار مرتفعة ، وعلى كل فقد كان البنك وقتئذ لا يتمتع بالسلطة العظيمة التى كان ينعم بها فى عهـد بيربونت مورجان الكبير ، فالواقع أنه لم توجد فى الولايات المتحدة فى ذلك الوقت أية سلطة مسئولة تستطيع بما لها من عزيمة قوية ونفوذ كبير أن تمنع حدوث الكارثة ، وهكذا مرت أيام صيف سنة ١٩٢٩ الى غاياتها وحل فصل الخريف .

والآن لنقف برهة قصيرة لندرس بعض الأرقام . فقد نشر معهد بروكنجز — وهو المشهور بالدقة الشديدة فى بياناته وعدم المبالغـة فيها — أنه خلال سنة ١٩٢٩ نفسها ، كانت الأسر التى زاد دخلها على ١٠٫٠٠٠ دولار فى العام تبلغ ٢٫٣٪ من مجمـوع الأسر الأمريكية ، والأسر التى زاد دخلها على ٥٫٠٠٠ دولار فى العام كانت تبلغ ٨٪ ، والأسر التى نقص دخلها عن ٢٫٥٠٠ دولار بلغت نحو الـ ٧٠٪ ، منها ٦٠٪ ذات دخل أقل من ٢٠٠٠ دولار ، و ٤٢٪ ذات دخل أقل من ١٥٠٠ دولار ، و٢١٪ ذات دخل أقل من ١٠٠٠ دولار فى السنة .

وقد ذكر أحد الاقتصاديين بمعهد بروكنجز أنه : « قياسا على أسعار سنة ١٩٢٩ ، كانت الأسرة التى دخلها ٢٠٠٠ دولار فى العام تستطيع أن تفى بحاجاتها الأساسية » . ويفهم من ذلك أن ما دون ذلك من الدخل يدل على الفقر فى صورة من صوره ، ولذا كان نحو ٦٠٪ من الأسر الأمريكية فى فقر ، وذلك فى العام الذهبى سنة ١٩٢٩ . وقد أضاف ذلك الاقتصادى ملاحظة أخرى لا تخلو من مغزى كبير : « كان هناك اتجاه فى العشر السنوات الأخيرة الى زيادة عدم المسـاواة فى توزيع الدخـل بين الناس » .

فاذا كانت السنوات العشر السابقة لسنة ١٩٢٩ تشبه صحوة الموت بالنسبة للنظام القديم ، عندما كان وول ستريت هو المحور الذى يدور حوله الاقتصادى الأمريكى ، وعندما كان رجال المصارف والسماسرة يمشون فى الأرض كأنهم أنصاف آلهة ، وتوهم الناس أن الرخاء قائم على أسس متينة ، وأنه يزيد من ثروة الأثرياء ويسمح للفئات بأن تصل الى

الطبقات الدنيا من المجتمع ، فان صحوة الموت هذه كانت مع ذلك صحوة جدية خطيرة ، اذ أن ما بدا فيها من نشاط ويقظة ، كان قائما على أسس متداعية ، سوف تنهار بعضها تلو بعض ، كما أن تلك الصحوة زادت من الجفوة الشاسعة التى تفصل بين الأثرياء المحظوظين وبين غالبية الشعب من المعدمين .

الفصل العاشر

الأزمة الاقتصادية الكبرى

هوى صرح الرخاء الاقتصادى الأمريكى دفعة واحدة فى صباح يوم ٢٤ أكتوبر ١٩٢٩ ، ولقد كانت الأسعار فى بورصة الأوراق بنيويورك تهبط هبوطا سريعا قبل ذلك بأيام ، ولكنها فى ذلك الصباح انهارت بسبب انتشار حالة ذعر شديد ، ولم تستقر السوق الا فى يوم ١٣ نوفمبر .

وفى هذه الأسابيع القليلة تبخرت ثروة قدرها ٣٠ بليونا من الدولارات ، وكانت هذه الثروة لا توجد الا فى الدفاتر والمستندات ، وان كانت تفوق فى مجموعها مجموع الدين الأهلى فى ذلك الوقت ، وانهار تبعا لذلك نظام الائتمان الذى قام عليه الاقتصاد الأمريكى ، وبلغ انهياره حدا كان لا يخطر لأحد على بال ، ومن ثم تلاشت أسطورة سيطرة وول ستريت على مالية البلاد ، ودخلت الأزمة الاقتصادية الكبرى فى أول مراحلها .

ولم يتضح لأول وهلة ان الصناعة والتجارة الأمريكية قد تأثرت كثيرا بما حدث ، فقد كان الناس يؤكدون بعضهم لبعضهم أن شيئا خطيرا لم يحدث ، حتى ان السوق المالية فى ربيع سنة ١٩٣٠ سجلت ارتفاعا ملحوظا ، غير انه لم يأت شهر مايو ، حتى تبينت الأمور على حقيقتها وتلاشى ذلك الانتعاش المفتعل ، وعندئذ أخذت الأسعار فى هبوط لايكاد ينقطع لمدة عامين كاملين ، ولم يكن الهبوط مقصورا على أسعار الأسهم والسندات ، بل كان أبعد مدى من ذلك ، اذ أصاب الصناعة والتجارة الأمريكية فى مجموعها . ولقد حاول الرئيس هوفر فى بداية الأمر أن يرفع الروح المعنوية فى الشعب ، وأن ينظم حملة للتفاؤل القومى ،

فاستدعى مديرى الأعمال الى واشنطن حيث أعلنوا أن الحالة لم تتغير تغيرا جوهريا ، وأن الأجور لن تنخفض عما كانت عليه ، ولكن ذلك لم يأت بنتيجة ، ولهذا عمد الرئيس بعدئذ الى أن يقف موقفا سلبيا ، أملا منه فى أن السوق سوف تصلح نفسها بنفسها ، ولكن ذلك بدوره لم يكن مجديا . وعندئذ اقتنع الرئيس بأن الذعر المالى الذى شمل أوربا أيضا فى ذلك الوقت كان هو أس المتاعب ، ولذا قام بتنظيم الأساليب الدولية لوقف السداد فى التعويضات وديون الحرب « موراتوريوم » ، وكانت هذه خطوة سياسية طيبة ولكنها لم تؤد الى تحسين الحالة الا لمدة قصيرة ، وبعد ذلك أنشأ الرئيس شركة الانعاش المالى ، وكان الغرض منها تقديم مساعدة الحكومة الفدرائية للبنوك والمؤسسات الصناعية التى تشعر بخطورة موقفها ، (مع استثناء مبدأ تقديم المساعدة المالية من قبل الحكومة للأفراد المعرضين للافلاس) . وعندما بدا للناس ان الحالة وشيكة التحسين ، وذلك فى شتاء سنة ١٩٣٢ — ١٩٣٣ ، تبين فجأة أن شركة الانعاش المالى غير كافية لانقاذ الموقف ، وانهار نظام المصارف الأمريكية بدرجة لم يسبق لها مثيل ، ونتج عن ذلك مصادفة من أعجب المصادفات فى تاريخ الولايات المتحدة ، ففى ٤ مارس ١٩٣٣ ، أى فى اليوم الذى خرج فيه هوفر Hoover من البيت الأبيض ليحل محله فيه فرانكلين روزفلت Franklin D. Roosevelt ، توقفت المصارف الأمريكية عن العمل ، وهكذا كان هوفر — رغم ما عرف عنه من ذكاء عظيم ومقدرة كبيرة ، ورغم ايمانه بصحة النظريات الاقتصادية التى كانت دعامة هذا العهد — أكبر ضحية لانهيار تلك النظريات وتقوض النظام الاقتصادى الذى كان قائما عليها .

وقد أعلن روزفلت فى خطابه الافتتاحى الذى امتاز بالتفاؤل والثقة بالمستقبل : « ان الأمر الوحيد الذى نخافه هو الخوف نفسه » . ثم بدأ العمل فى عاصفة من النشاط الذى لا حد له ، فاستطاع أن يحمل البنوك على اعادة فتح أبوابها ، وأخذ فى تنفيذ برنامج واسع من الاعانة والمساعدة

والاصلاح ، وكان ذلك لايخلو من كثير من التناقض والاضطراب ، ولكنه رغم ذلك شغل الأمة فى السنوات الأولى من رياسته ، وأعاد اليها جانبا غير قليل من الانتعاش .

ومن الطبيعى أن ينسى الانسان ما قد يحدث من الأخطاء الكبرى ، سواء أكانت شخصية أم قومية ، وأن يحاول اقصاءها عن ذاكرته ، ولذا لم يكن بمستغرب أن يحاول الحزب الجمهورى فيما بعد أن يخفف من المتاعب التى عانتها البلاد فى السنوات الأخيرة من عهد الرئيس هوفر . غير انه ينبغى للمرء أن يذكر بعض الحقائق الخاصة بهذه الأزمة الاقتصادية الكبرى ، اذا أراد أن يفهم ما كان لها من أثر بالغ فى حياة الشعب الأمريكى منذ ذلك الوقت .

١ — كان الانهيار خطيرا فى شدته وفى مدته ، ففى منتصف سنة ١٩٣٢ — أى بعد عامين ونصف عام من بدء الأزمة — كان دولاب الصناعة الأمريكية يسير بأقل من نصف سرعته فى سنة ١٩٢٩ ، وقل مجموع الأجور التى دفعت بمقدار ٦٠٪ عن مجموعها فى تلك السنة .

وكذلك بلغ عدد العمال العاطلين فى أمريكا فى سنة ١٩٣٢ ، ١٢ مليونا وكانت نسبة البطالة بين سكان المدن الصناعية خطيرة مذهلة ، ففى مدينة « بفلو » مثلا ، مر الباحثون الاجتماعيون على كل منزل من المنازل التى يقطنها ١٥٫٠٠٠ من السكان القادرين على العمل والراغبين فيه ، فتبين لهم أن ٣١٪ منهم كانوا عاجزين عن ايجاد أى عمل ، وأن أقل من نصف مجموعهم ، كانوا لا يعملون عملا كاملا ، وفى هذه الأثناء كان المزارعون أيضا فى ضيق شديد بسبب هبوط أسعار القطن الى أقل من ٥ سنتات ، وأسعار القمح الى أقل من ٥٠ سنتا ، وأسعار الذرة الى ما لايزيد عن ٣١ سنتا .

٢ — ان الأزمة الاقتصادية كانت جزءا من أزمة كبرى شملت العالم بأسره ، وهى الأزمة التى سماها أحد الكتاب بحق « تدهور النظام الاقتصادى القائم على رواج الأسواق » ، وهو النظام الذى استقرت أقدامه خلال القرن التاسع عشر .

٣ – ان تلك الأزمة ، تركت أثرا خفيا فى نفوس الملايين من الأمريكيين وظل هذا الأثر باقيا مدى حياتهم ، ولم يكن ذلك راجعا الى أنهم أو أصدقاءهم فقدوا أعمالهم ، وشهدوا بأعينهم انهيار أطماعهم ، واضطروا الى تغيير مجرى حياتهم ، أو أنهم عانوا فى كثير من الأحيان آلام الجوع ، وكان الخوف لايفارقهم من مستقبل مظلم لا أمل فيه ، وانما كان ذلك الأثر بالغا لأن أولئك الملايين كانوا لايفهمون لهذه النكبة معنى أو مبررا ، فأصبح الأمريكيون منذ ذلك الوقت – الكبار منهم والصغار على السواء – ينظرون نظرة سخرية وامتعاض الى نظرية هوريشيو ألجر عن النجاح فى الحياة ، ويتشككون فى جدية اقدام الانسان على المجازفة بغرض تحقيق أطماع معينة ، كما بدءوا يفضلون العمل المضمون الذى لا مخاطرة فيه ، والاستمتاع بالمعاشات وأنظمة التأمين الاجتماعى ، بعد أن علمتهم التجارب القاسية فوائد الحياة المستقرة التى لا تعرف المغامرة اليها سبيلا .

٤ – تسببت الأزمة الاقتصادية الكبرى فى اقالة وول ستريت من مركز الصدارة الذى كان يحتله فى أواخر القرن التاسع عشر ، وهو المركز الذى دعمته شخصية بيربونت مورجان ، واستقرت أنظمته بعد وفاته فى سنة ١٩١٣ . اذ كشفت الأزمة عجز كبار رجال المصارف عن وقف الذعر المالى وتدهور الأسعار ، وقضت على الثقة فى النظريات الاقتصادية التى كانت نبراس حياتهم ، بل ان تصدع النظام المصرفى نفسه كان خير اعلان على اخفاقهم وعجزهم .

٥ – وكذلك أدت الأزمة الى هبوط مكانة رجال الأعمال فى المجتمع ، وبخاصة رجال البنوك والسماسرة ، فقد وجد هؤلاء أنفسهم محل احتقار الشعب وامتهانه بعد أن كانوا ينعمون بتقديره واكباره . وزاد الشعور بعدم الثقة بهم عندما كشف التحقيق الذى قامت به لجان متعددة من الكونجرس عن وجود أدلة كثيرة على التلاعب المالى

والأساليب التى لا تمت الى الشرف بصلة ، ولهذا هبطت مكانة مديرى الأعمال بوجه عام الى حد يصعب عليهم الخلاص منه لمدة طويلة ، وأصاب هذا الهبوط الطيبين منهم والمسيئين على السواء .

٦ — غير ان الأزمة الاقتصادية العالمية — التى رفعت هتلر الى مركز الحكم فى ألمانيا وآذنت بزوال الرأسمالية فى كثير من الدول الأخرى — لم تسبب فى الولايات المتحدة أية حركة تشبه الثورة من بعيد أو قريب . صحيح انها أنتجت سيلا من الاقتراحات لتحقيق الرفاهية الاقتصادية ، وسمحت للحاكم هيوى لونج Huey Long بأن يسيطر سيطرة دكتاتورية على ولايته « لويزيانا » ، وتسببت فى معارك دموية فى المزادات الناشئة عن افلاس المزارعين ، وساعدت على نشر نفوذ الشيوعية بين الطبقة المتعلمة ونقابات العمال ، وان كان ذلك النفوذ لم يصل الى حد التأثير فى أصواتهم وقت الانتخابات ، ولكن الواقع انه لم تقم ثورة فى أمريكا ، رغم شعور عدد لا يحصى من الأمريكيين بالسخط والغضب على ما آلت اليه حالتهم . وكل ما حدث أن السلطة انتقلت من حزب الى حزب ، وفقا للتقاليد السياسية المرعية .

ومما يذكر أن الاقتصادى الانجليزى الشهير جون مينارد كينز John Maynard Keynes نشر خطابا مفتوحا إلى الرئيس روزفلت ، فى جريدة نيويورك تيمز فى ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٣ ، أى بعد أن قضى روزفلت فى الحكم أقل من عام واحد ، وقد جاء فى ذلك الخطاب : «انك قد أقمت من نفسك وصيا على أولئك الذين يحاولون فى كل دولة اصلاح مساوىء هذا العهد بوسائل مدروسة ، لا تخرج عن اطار النظام الاجتماعى القائم ، فاذا قدر لك الاخفاق ، فان التغير الذى يهتدى بالعقل والروية سوف يتصدع فى كل أنحاء العالم ، وسوف يترك الثورة والأنظمة المقررة وجها لوجه للنزال والتطاحن » . وقد أثبتت الحوادث فى أمريكا أن الثورة والأنظمة المقررة لم يقفا وجها لوجه للتطاحن والنزال ، لأن تغيير النظام القائم دون الخروج عليه ، كان هو الأساس الذى بنى عليه

الاصلاح ، وبذا أثبتت أمريكا مرة أخرى — كما سبق لها أن أثبتت ذلك ابان ثورة الضمير الأمريكى — نجاح طريقتها الخاصة فى معالجة ما يظهر من عيوب فى آلة الحياة القومية ، وذلك بعمل اصلاحات فى الآلة أثناء سيرها ودون توقفها لحظة واحدة عن العمل ، وذلك باستخدام نظام الحكم التقليدى القائم على وجود الأحزاب والبرلمان .

ولسنا فى حاجة الى أن نوضح هنا بالتفصيل سياسة الانعاش الاقتصادى New Deal من يومها الأول فى ربيع سنة ١٩٣٣ ، عندما رددت البلاد كلها صدى روح التفاؤل العظيم الذى أشاعه روزفلت فى خطابه الافتتاحى المشهور ، ومع ذلك فيجمل بنا أن نلاحظ الحقيقة الواقعة ، وهى أن سياسة الانعاش لم تؤد فى أى وقت الى اعادة الرخاء كاملا للبلاد ، لأن ذلك لم يعد الا بعد سنة ١٩٤٠ عندما بدأ الانفاق الواسع على التسلح بسبب قيام الحرب العالمية الثانية .

غير ان سياسة الانعاش استطاعت رغم كل ذلك أن تحدث تغيرات دائمة فى الاقتصاد الأمريكى .

فمن الناحية الأولى ، عدلت هذه السياسة الكثير من المبادىء التى سار عليها الاقتصاد الأمريكى حتى ذلك الوقت ، ومثال ذلك أنها فصلت فصلا نهائيا بين البنوك التجارية ومؤسسات الضمانات المالية ، وذلك منعا لتكرر المغامرات والمضاربات التى شهدتها البلاد بعد سنة ١٩٢٠ ، وأصبح محظورا على المصارف أن تمنح الضمانات من غير أن توضح توضيحا كاملا كل ما يتعلق بها من بيانات وحقائق ، وحرم التحكم فى البورصة بوساطة عدد قليل من المتعاملين يتفقون فيما بينهم على البيع أو على الشراء ، كما أنشئت ادارة حكومية خاصة لمراقبة بورصات الأوراق المالية ، وحلت بعض الشركات القابضة التى كانت تسيطر على المرافق العامة من غير مبرر . ولهذا عدلت كثير من المبادىء والأنظمة الاقتصادية القائمة وأقامت الحكومة من نفسها رقيبا على تفسير تلك المبادىء وتنفيذها .

ومن الناحية الثانية تدخلت سياسة الانعاش تدخلا كبيرا فى الحياة



الاقتصادية بغرض معاونة الضعفاء فيها وحمايتهم . ومن الأدلة على ذلك تدخلها للحد من تأثير قانون العرض والطلب ، وهو القانون الذى يعتبر من المبادىء الاقتصادية المسلم بصحتها ، فبعد أن أثبتت التجارب ضرره البالغ بالنسبة الى المزارع الأمريكى تدخلت الحكومة لرفع أسعار بعض الغلات الزراعية ، وضمان بقائها مرتفعة دون النظر الى قانون العرض والطلب ، (ونتج عن ذلك نتيجة غير منتظرة ، وهى أن المزارعين فى الولايات المتحدة ، وهم أشد السكان محافظة على القديم ، أصبحوا يعتمدون اعتمادا كليا فى حياتهم اليومية على ما تتخذه الحكومة من قرارات لصالحهم) ، وكذلك تدخلت سياسة الانعاش لمساعدة بعض الشركات الضعيفة بوساطة شركة الانعاش الاقتصادى .R.F.C التى سبق أن أنشأها هوفر ، واتخذت الاجراءات لمنع بعض الشركات من الوقوع فى الافلاس الذى كان محدقا بها ، وساعدت بعض أصحاب المساكن والمزارع على سداد ما عليهم من أقساط الديون العقارية ، وضمنت تمويل انشاء مشروعات المساكن الجديدة ، كما ضمنت الودائع فى البنوك ، ومنحت بعض الاعانة المالية للعاطلين والمسنين بوساطة نظام الضمان الاجتماعى ، وأصدرت قانونا لتحديد مستوى أدنى للأجور ومستوى أعلى لساعات العمل .

ومن الناحية الثالثة ، تدخلت سياسة الانعاش فى الانتاج نفسه لتشجيع توظيف العمال ، وقامت بنشاط كبير فى انشاء الخزانات والجسور والطرق الرئيسية وساحات الألعاب الرياضية ، كما استخدمت كثيرا من العمال العاطلين الذين كانوا يحصلون على اعانات من الحكومة ، فى القيام بعدد كبير من الأعمال المتنوعة التى لا تتعارض مع الأعمال التى يقوم بها الأفراد . وفوق كل ذلك أنشأت هذه السياسة مؤسسة تنسى Tennessee Valley Authority لتقوم بمنافسة الشركات الخاصة بتوليد الكهرباء وبيعها فى تلك المنطقة ، ومكافحة فياضانات الأنهار ، وتفهيم المزارعين أحسن الوسائل للمحافظة على خصب التربة .. الخ .

ومن الناحية الرابعة ، شجعت سياسة الانعاش نقابات العمال تشجيعا كبيرا ، ذلك لأن القوانين التى كانت قائمة لتشجيع تلك النقابات ، مثل قانون كليتون،كانت كثيرا ماتصطدم ببعض تفسيرات من المحاكم تؤدى الى عدم تطبيقها ، أما فى ذلك الوقت فقد أصبح تكوين النقابات صريحا وواضحا ، فاشتد اقبال العمال على الاشتراك فيها ، وزاد عدد أعضائها من نحو ٣ ملايين فى سنة ١٩٣٣ الى نحو ٩ ملايين فى سنة ١٩٤٠ . هذا فى الوقت الذى نجحت فيه النقابات ، بسبب نفوذها المتزايد ، فى تخفيض ساعات العمل فى الأسبوع من ٤٩ ساعة الى ٤٤ ساعة ، كما أصبحت اجازة يومين فى الأسبوع حقا ثابتا مقررا للعمال .

ونظرا لهذا العطف الكبير الذى أسبغته سياسة الانعاش الاقتصادى على الحركة العمالية ، فانها قد ساعدت بذلك على انشاء قوة جديدة لتحقيق التوازن فى الاقتصاد الأمريكى ، وهى قوة أخذت فى معارضة قوة مديرى الأعمال ، وسببت الكثير من الاحتكاك احيانا ، ولكنها فى النهاية استطاعت اعادة توزيع الثروة القومية ، بزيادة نصيب الطبقة العاملة من تلك الثروة .

وأخيرا حاولت سياسة الانعاش أن تقوم بادارة الاقتصاد القومى كوحدة لا تتجزأ فحررت العملة من التقيد بأساس الذهب ، لأنه أساس لا يمكن للحكومة أن تتدخل فى شأنه ، واستبدلته بنظام يمنح الحكومة سلطة كبيرة فى مسائل النقد ، كما نبذت الفكرة التقليدية بأن أول واجب على الحكومة هو موازنة الميزانية ، واعتنقت فكرة كينز القائلة بايجاد عجز فى الميزانية عن طريق الانفاق الواسع ، اعتمادا على الرأى الموغل فى التفاؤل والذى يقول ان العجز فى سنوات يقابله رواج فى سنوات الرخاء .

وقد كان هذا التدخل — الذى اتجه الى اصدار تشريعات اصلاحية كثيرة ومنح المساعدات والضمانات المالية والتوسع فى الأعمال العامة ، وتشجيع نقابات العمال ، وتوجيه الاقتصاد كله كوحدة لا تتجزأ —

سببا فى ظهور نظام اقتصادى جديد ، ولكنه ليس نظاما اشتراكيا بالمعنى المعروف،ألا وهو تأميم الصناعة والتجارة وسيطرة الحكومة عليهما،فقد ظل الاشراف على هذه النواحى فى أيدى الأفراد (وان كانت حرية تصرف أولئك الأفراد قد نقصت كثيرا ، بسبب كثرة اللوائح وتعقد نظام الضرائب وقوة نقابات العمال ، مما كان يحمل مديرى الأعمال على الشعور بأنهم أسرى فى أيدى الحكومة والنقابات) . ولم يكن هذا النظام هو النظام الاقتصادى الحر بمعناه التقليدى ، وهو أن مصير الأفراد الاقتصادى يتوقف على أعمال البيع والشراء فى السوق الحرة ، بينما تقف الحكومة على الهامش دون تدخل ، كما فعلت حكومة هربرت هوفر فى سنة ١٩٣٠ — ١٩٣١ ، وانما كان هذا النظام الجديد وسطا بين هذين النظامين ، ويصح أن يوصف بأنه نظام رأسمالى أدخلت عليه تعديلات واصلاحات كثيرة ، اذ كانت الحكومة تتدخل على الدوام لتمنع احداث الضرر بفريق من الشعب أو لتمنح اعانة لفريق آخر .

ولم يكن هذا النظام الجديد نتيجة خطة مدروسة قام بتنفيذها روزفلت وأعوانه من المفكرين والأخصائيين ، بل كان نتيجة عدد كبير من التشريعات التى صدرت لمعالجة مشاكل خاصة ، دون وجود أى ارتباط بين بعضها وبعضها الآخر . ولهذا كان الاقتصاد الأمريكى بعد بضع سنوات لا يشبه قصرا جديدا متناسق الأجزاء ، ولكنه كان يشبه منزلا قديما أدخلت عليه اصلاحات واسعة ، فجدد السقف فى مكان ما ، وأضيف جناح جديد فى مكان آخر وجددت الدعائم تحت الأرضيات ، وزاد عدد الخدم زيادة كبيرة .

ولا شك أن العشر السنوات الرهيبة التالية لسنة ١٩٣٠ قد خلفت للشعب الأمريكى تراثا على جانب كبير من الأهمية . ولعل أهم ما خلفته ظهور الارتباط بين مصير الأمريكيين أجمعين كأنهم « يركبون فى سفينة واحدة » ، فلم يحدث قبل ذلك أن أزمة اقتصادية تحدت مقدرة علماء الاقتصاد والاجتماع والسياسة ومقدرة المواطن المستنير الى هذا الحد

فقد عنى كل منهم بأن يفهم ما قد ألم بمواطنيه ، وأن يعرف الى أى حد يتوقف رخاؤه على نشاط رجال المصارف فى وول ستريت ورجال الصناعة فى ديترويت ورجال البرلمـان والحكومة فى وشنطن ، وكيف يؤثر كل ذلك فى حياة الناس من يوم الى آخر . وكذلك انبعث فى ذلك الوقت فى نفوس كثير من الرجال والنساء — ولم يكن عددهم مقصورا على المتعلمين — ايمان قوى بقوة الشعب الأمريكى وسلامة معدنه ، ولكنه كان ايمانا غير مفهوم ، اذ أنه تولد فى وقت كانت فيه مقدرة هذا الشعب على الخلاص من ورطته محل شك كبير . فكأن الرجال والنساء الذين يختلفون كل الاختلاف فى ماضيهم ونشأتهم وظروفهم القـائمة ، قد عرفوا أن مصيرهم مرتبط بعضه ببعض ، فبدأ كل منهم يفهم الآخر لأول مرة ، وتبين له أنه يستحق التقدير والمحبة .

وقد خلفت تلك السنوات العشر ، اعتقـادا راسخا بأن من واجب الشعب — عن طريق الحكومة — أن يسارع الى نجدة أى فريق من الأمريكيين يحدق به الخطر أو يحتاج الى المساعدة ، كما أن من واجب الحكومة والشعب معا أن يعملا على عدم عودة الأزمة الاقتصادية بأية حال . وقد ولدت هذه العقيدة ابان الأزمة الاقتصادية الحالكة المليئـة بالمصاعب والكفاح ، ولكنها أصبحت عقيدة الشعب كله فى سنة ١٩٤٠ وستكشف الأيام المقبلة عن مدى تمسك الشعب بها فى المستقبل .

الفصل الحادى عشر

دولة عظمى رغم أنفها

حفلت السنوات الأولى من حكم الرئيس روزفلت بأدلة خطيرة على أن العالم فيما وراء البحار كان يشمل بعض الدول التى تبغى الغزو والعدوان . ولقد كان الأمريكيون شديدى السخط على ذلك ، ولكن الغالبية العظمى منهم كانت تشعر بأنه ينبغى على بلادهم أن تبعد عن هذه المشاكل ، فليس من شأنها أن تتدخل فيها ، اتباعا لسياسة العزلة التى كانت مسيطرة فى ذلك العهد على عقول الناس الى أقصى حد .

وكانت هذه السياسة أشبه بعقيدة اعتنقها الرجال والنساء على اختلاف مشاربهم ، بعد مشاهدات وتجارب كثيرة ومتنوعة ، فهناك مثلا أولئك الذين لا يثقون فى أى شىء أجنبى ، وكان هذا الشعور يلقى قبولا لدى الأفراد الذين كانوا من أصل ايرلندى (ولذا كانوا يبغضون انجلترا) ، أو من أصل ألمانى (ولذا كانوا يخشون حربا جديدة مع ألمانيا) ، كما كان يلقى قبولا من سكان منطقة الغرب الأوسط والسهول الوسطى ، وهم الذين عرفوا بتشككهم فى سكان الأقاليم الشرقية بوجه عام ، اعتقادا منهم بأن هؤلاء يتأثرون تأثرا زائدا برجال السياسة الأوربية الذين عرفوا باللطف والأناقة والدهاء . وهناك أيضا الرجال والنساء الذين أصابهم الضرر البالغ من الأزمة الاقتصادية ، وكانت فى نظرهم نتيجة لجشع الماليين وكبار رجال الصناعة ، ولذا كانوا يعتقدون أن الأمم لا تندفع الى الحرب الا بسبب دهاء « المالية الدولية والمتجرين فى الموت » . وكان هناك فضلا عن ذلك ، الشيوعيون ومن

ساروا على نهجهم ، وهم الذين خضعوا لتوجيه الحزب الشيوعى واشتدوا فى تحاملهم وتهجمهم على منتجى الذخائر والمعدات الحربية وعلى رجال المال فى وول ستريت ، وأخيرا كان هناك الأفراد الذين بلغ بهم عدم الثقة بفرانكلين د . روزفلت حدا جعلهم يتهمونه بمحاولة جر البلاد الى الحرب رغبة فى تمكينه من زيادة السيطرة عليهم .

وفوق ذلك ، كان هناك أولئك الرجال والنساء الذين ذاقوا مرارة الحرب العالمية الأولى ، فتركتهم أشد ما يكونون بغضا للحرب واستنكارا لفكرة الدخول فى حرب جديدة ، وقد كان هؤلاء فى سن الشباب عندما قامت الحرب العالمية الأولى ، ولكنهم بعد سنة ١٩٣٠ كانوا قد نضجوا فى سنهم ، وأصبح الكثير منهم يشغل مركزا هاما فى المجتمع ، وكان الجميع على رأى واحد من أن دخول أمريكا الحرب العالمية الأولى ، كان أكبر خطأ ارتكبه آباؤهم .

وقد تبين هذا التشبث بالعزلة فيما بين سنة ١٩٣٥ و ١٩٣٧ ، عندما اعتمد الكونجرس ثلاثة قوانين متتالية لاعلان حياد أمريكا وتنظيمه، ولمنع الولايات المتحدة من أن تبيع المعدات الحربية لأية دولة محاربة . وقد كان الرئيس روزفلت ورجال وزارة الخارجية غير راضين عن هذه القوانين ، اعتقادا منهم أنها غير عملية وأنها تحد من حرية تصرف أمريكا وتحرم البلاد من حقوقها ونفوذها فى الخارج ، ولكن الرأى العام كان من القوة بدرجة لا يمكن مقاومتها . وعندما أشار روزفلت فى خطاب له فى أكتوبر سنة ١٩٣٧ الى أن المعتدين يجب أن يوضعوا فى الحجر الصحى « الكورنتينة » ، اشتد احتجاج الشعب على هذا التصريح حتى بلغ عنان السماء .

غير أن الحوادث كانت اذ ذاك تسير سيرا حثيثا نحو الهاوية ، وكانت التصريحات السياسة من كل جانب تنذر بالخطر المتزايد ، ونتج عن ذلك — بالاضافة الى مقدرة روزفلت الكبيرة على استمالة الشعب الأمريكى واقناعه بحقيقة مغزى زحف هتلر وتوسعه — أن تنبه الأمريكيون

تدريجا حتى اقتنعوا تماما بأن بلادهم قد لاتستطيع العيش لنفسها وبنفسها ، ولهذا بدأت تتلاشى الاعتراضات المعنوية القوية التى كانت قائمة فى العقد التالى لسنة ١٩٣٠ — كالاعتقاد بأن منتجى المعدات الحربية هم الذين يعملون على اثارة الحرب — وساعد على ذلك التحول فى الرأى العام تلك الأنباء المزعجة التى كانت ترد على الدوام من الخارج.

وعندما انهارت فرنسا فى يونيو سنة ١٩٤٠ ، كانت الصناعات الحربية فى الولايات المتحدة قد بدأت فى زيادة انتاجها بدرجة ملحوظة ، وكان جميع الأمريكيين متفقين على أن أمريكا فى حاجة ملحة الى تسليح نفسها بأقصى سرعة ، ولم تمض أسابيع كثيرة حتى منح روزفلت انجلترا بعض مدافع وطرادات قديمة . وفى بداية خريف سنة ١٩٤٠ بدىء فى تنفيذ قانون التجنيد الاجبارى فى الولايات المتحدة ، ومع ذلك فقد كان كلا المرشحين لرئاسة الجمهورية فى ذلك الوقت — وهما روزفلت الذى خالف كل التقاليد بترشيح نفسه للمرة الثالثة ، ووندل ويلكى Wendell Willkie الذى اختاره الحزب الجمهورى فى اللحظة الأخيرة مرشحا عنه — متفقين على ضرورة تقديم المساعدة لأوربا ، ولكنهما كانا يصران فى معارضتهما لدخول الولايات المتحدة فى الحرب . وفى العام التالى ، عندما استطاع هتلر أن يدمر كثيرا من المدن البريطانية بقنابله وأن يكتسح البلقان ويغزو روسيا ، وعندما بدأ اليابانيون يلوحون باعتزامهم السيطرة على الشرق الأقصى ، تحول الرأى العام الأمريكى تدريجا الى اعتناق فكرة التدخل المباشر ، ولذا وافق الكونجرس بأغلبية كبيرة على قانون الاعارة والتأجير ، وأخذت السفن الحربية الأمريكية فى حراسة السفن المحملة بمختلف أنواع المساعدات الأمريكية الى انجلترا ، فى أثناء عبورها لجانب من المحيط الأطلنطى ، ولذا وجدت الولايات المتحدة نفسها فى حالة حرب غير معلنة ضد ألمانيا .

ولقد كانت غالبية الأمريكيين وقتئذ تؤمن بضرورة الحاق الهزيمة بهتلر ، ولو أدى ذلك الى تدخل أمريكا تدخلا كاملا فى الحرب ، وكانت

هناك أقلية صغيرة تميل الى دخول أمريكا فى الحرب فورا وأن تلقى فيها بكل ما تملك ، ولكن عـددا غير قليل من النـاس كان ينظر الى اتجاهات روزفلت الحربية نظرة ملؤها السخط وعدم الثقة . وعلى الرغم من أن عدد المعجبين بهتلر والأطماع الاستعمارية اليابانية لم يكن كبيرا من بين هؤلاء ، الا أن الشعور السائد بين الجميع كان يتلخص فى انه رغم بغض أمريكا للعـدوان ، فان عليهـا أن تبتعد عن الحرب الا اذا تهدد نصف الكرة الغربى تهديدا مباشرا .

ولذا كان هجوم اليابانيين على بيرل هاربر Pearl Harbour تحدياً لا يمكن انكاره ، وضربة قاضية على كل تردد أو تشكك فى موقف أمريكا من الحرب .

ويشبه موقف أمريكا فى ذلك الوقت حالة الرجل الذى يسير الى الخلف ، فقد دفعتها الحوادث المتلاحقة الى الاعتراف رغم أنفها بالأمر الواقع ، ألا وهو أنها لاتعيش وحدها فى قارتها المنعزلة ، ولكنها أصبحت دولة عظمى ، فعليها اذن أن تستغل الفرص وتحتمل الالتزامات التى يفرضها عليها هذا الوضع الجديد . وقد قاومت أمريكا هذه الفكرة ، وظلت ترجو أن تعيش كما كانت ، لا تعنى الا بشئونها ، بل انها استمرت تشعر بذلك الشـعور وتتمسك به ، ولكن الحوادث كانت أقوى من كل ذلك .

— ٢ —

كان دخول أمريكا فى الحرب العالمية الأولى ، مصحوبا بظاهرتين تلفتان النظر : وهما الشعور برسالة انسانية كبيرة تستحق من أمريكا بذل كل جهد وتضحية فى سبيل تحقيقها ، ووجود مقاومة لا يستهان بها للدخول فى تلك الحرب . أما بالنسبة الى الحرب العالمية الثانية ، فـلم يصحب دخول أمريكا فيها شىء من ذلك ، أى انه لم توجد مقـاومة للاشتراك فى الحرب ، كما كان الشعور بالرسالة الانسانية على درجة

كبيرة من الضعف . ويعزى كل هذا الى أن خيبة الآمال العامة التى شعر بها الشعب عقب الحرب العالمية الأولى ، والمناقشة الطويلة حول موقف أمريكا من الحرب العالمية الثانية ، قد تركا أثرهما فى نفوس الأمريكيين .

غير أن تشكك بعض أعداء التدخل أو غير الراغبين فيه ، ظل خفيا فى نفوسهم ، يوجه تفكيرهم ويحدد موقفهم من كثير من الأمور ، فكانوا مثلا ينظرون الى المستقبل نظرة ملؤها الشك والتذمر ، ويقاومون أشد مقاومة كل عمل من أعمال الحرب ، اذا كان يتطلب زيادة فى سلطة الحكومة أو يستلزم تضحيات كبيرة من جانب المدنيين . ولم يكن ذلك لضعف فى وطنية هؤلاء الأفراد ، فقد كانت وطنيتهم فوق كل مظنة ، وكانوا يذهبون الى القتال أو يشهدون اخوتهم وأبناءهم يذهبون اليه بكل شجاعة ومن غير تردد ، ولكنهم مع ذلك كانوا يتحفظون فى شعورهم وتفكيرهم ، فكانوا مثلا لا يثقون بأنجلترا ويرتابون فى حكمة القيادة الأمريكية العليا ، من حيث توجيه الاهتمام الزائد الى الحرب فى أوربا على حساب الحرب فى المحيط الهادى . كما كانوا يسخرون من الموظفين المدنيين فى واشنطون ومن قدرتهم على مواجهة أعباء الموقف ومسئولياته.

ولا شك أن الأزمة الاقتصادية الكبرى تركت آثارا عميقة فى تفكير الكثير من الناس وتحكمت فى مشاعرهم ، لأن الأفراد الذين شعروا زمنا طويلا بأن الأقدار كانت تعاندهم ، وأن المستقبل يتهددهم بأبشع مصير ، شعروا ابان هذه الحرب بأن المستقبل قد تحول الى علامة استفهام كبيرة مخيفة ، فكانوا مقتنعين بضرورة اشتراكهم فى الحرب ، ولكنهم كانوا يتساءلون عن مصيرهم بعدها ، وعن وجود أى أمر محقق يمكنهم أن يأملوا فى الحصول عليه بعد هزيمة العدو والقضاء عليه . والواقع انهم كانوا لا يعلمون شيئا عن المستقبل ، وكان الحديث عن أهداف الحرب يطن طنينا أجوف فى آذانهم ، وكان موقفهم يتلخص فى استعدادهم للقيام بكل ما يطلب منهم القيام به ، دون أن يكون لديهم أدنى أمل فى المستقبل .

ورغم كل ذلك ، فقد حاربت القوات الأمريكية - مع استثناء حالات خاصة معينة قليلة - بطريقةفائقة فيمختلف الميادين ، كما احتمل السكان المدنيون مشاكل تلك الحرب وخسائرها لأنهم كالمحاربين كانوا يؤمنون ايمانا قويا بعدالة رسالة أمريكا فى تلك الحرب ، وان كانوا لا يثقون أصلا فى التصريحات البليغة التى كانت تلقى بين آونة وأخرى لتوضيح أهداف الحرب . وحتى فى أحلك الأوقات كان الأمريكيون ، مجندين ومدنيين ، لايتشككون لحظة فى النصر النهائى وان كانوا يتشككون كثيرا فى امكان قيام عالم متمتع بالسلم والرخاء عقب انتهاء الحرب . ولذا كان الشعب الأمريكى يدافع عن بلاده وعن الحرية نفسها دفاع الأبطال المستميتين ولكنه مع ذلك كان قليل التفاؤل بالمستقبل .

— ٣ —

وليس من واجبنا فى هذا البحث أن نستعرض تطور الحرب العالمية الثانية ومراحلها ، فهناك موضوع آخر تتضح أهميته ومغزاه كلما مرت الأيام ، ألا وهو موضوع التقدم الهائل فى الانتاج الأمريكى فى تلك السنوات المليئة بالقلق والمتاعب .

والواقع أن ويلات الأزمة الاقتصادية الكبرى قد أخفت عن الأنظار حقيقة ما سجلته الصناعة الأمريكية ، تحت ضغط الحاجة الملحة ، من تقدم عظيم عقب سنة ١٩٣٠ ، كما يتبين ذلك من الأرقام الآتية وهى من تقدير نخبة من الاقتصاديين الممتازين : — فبينما زاد انتاج العامل فى الساعة بمقدار ١٢٪ فيما بين سنة ١٩٠٠ و ١٩١٠ ، وبمقدار ٧ ½ ٪ فقط فيما بين سنة ١٩١٠ ، ١٩٢٠ وبمقدار ٢١٪ فيما بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠ ، اذا به يقفز الى ٤١٪ فيما بين ١٩٣٠ و ١٩٤٠ ، رغم أن الأزمة تسببت فى اغلاق المصانع أو اشتغالها بعض الوقت فحسب ، كما دعت الحاجة الى ضغط المصروفات وزيادة الانتاج الى أقصى حد .

ومما لا مراء فيه أن واضعى الخطط الحربية فى واشنطن قد رسموا

خططهم على أساس واسع يذهل العقل لضخامته ، ولذا وجدت الولايات المتحدة عند نهاية الحرب ، أن لديها ١٢ مليونا من المجندين فى القوات المسلحة ، فى حين كان عددهم فى الحرب العالمية الأولى حوالى ٥ ملايين وكانت الحكومة الأمريكية مصممة على أن تكون قواتها أحسن تسليحا وأكمل عدة وأوفر لوازم وأكثر راحة من أية قوات أخرى عرفهاالتاريخ . وقد نجحت فى تحقيق ذلك ، كما قامت بمد قوات الدول الأخرى بمختلف المعدات ، فكانت النتيجة بالنسبة الى مجموع الانتاج الأمريكى والى نفقاته فوق ما يتصوره العقل .

ولقد كانت الولايات المتحدة فى نهاية سنة ١٩٤٣ تنفق خمسة أمثال ما كانت تنفقه فى ذروة الحرب العالمية الأولى ، وبينما كان الناقدون لسياسة الانعاش فيما مضى يثورون وينفعلون بسبب بلوغ ميزانية الحكومة الفدرائية ٧ أو٨ أو ٩ بلايين من الدولارات ، اعتقادا منهم أن ذلك يدفع بالولايات المتحدة نحو الافلاس ، اذا بالميزانية تبلغ سنة ١٩٤٢ أكثر من٣٤ بليونا من الدولارات ، وسنة ١٩٤٣ : ٧٩ بليونا ، وسنة١٩٤٤ ٩٥ بليونا ، وسنة ١٩٤٥ : ٩٨ بليونا ، ثم تهبط سنة ١٩٤٦ الى ٦٠ بليونا

وقد شهدت هذه المرحلة بناء مصانع جديدة بسرعة فائقة ، وتحول صناعة السيارات كلها من انتاج سيارات النقل للجمهور الى انتاج اللوريات والدبابات والأسلحة المختلفة . وكان عدد المصنوعات الجديدة التى طلب من المصانع الأمريكية أن تنتجها بسرعة كبيرة ، عددا هائلا بقدر ما كان متنوعا ، فمن المطاط الصناعى ، الى آلات الرادار ، ومن بناء السفن الخاصة بانزال الجنود والمعدات الحربية الى السواحل ، الى مفرقعات تنفجر بمجرد الاقتراب منها ، ومن صنع الأتابرين والبنسيلين وال د . د . ت . الى مشروع مانهاتان لانتاج القنبلة الذرية ، وكانت الطلبات لا ينقطع ورودها من واشنطن وكلها تتسم على الدوام بالسرعة الفائقة والكميات الضخمة .

ونتج عن كل ذلك أن مجموع انتاج السلع والخدمات فى الولايات

المتحدة بلغ ٢١٥ بليونا من الدولارات فى سنة ١٩٤٥ ، أى أكثر من ضعف ما كان عليه سنة ١٩٣٩ وقدره ٩١ بليونا من الدولارات . واذا أخذنا فى الاعتبار ما أصاب الأسعار من ارتفاع خلال الحرب ، تبينا أن مجموع الانتاج فى سنة ١٩٤٥ كان يفوق بمقدار الثلثين مجموع الانتاج فى سنة ١٩٣٩ ، وبذا استطاعت الصناعة الأمريكية أن تسجل فى فترة خمس سنوات أكبر زيادة فى الانتاج عرفها التاريخ الاقتصادى .

— ٤ —

وللانسان أن يتساءل عن حالة مستوى المعيشة فى ذلك الوقت الذى كانت فيه الحكومة الفدرائية تلقى الى المصانع بسبيل من الطلبات ، تقدر قيمتها ببضعة بلايين ثم بعشرات البلايين ثم بعشرات العشرات من بلايين الدولارات . لقد كانت النتيجة رخاءً لم يسبق له نظير ، فاذا تذكرنا أن المشرفين على سياسة الانعاش فى أوائل عهد سياسة روزفلت تعمدوا زيادة الانفاق الحكومى السنوى بما يقدر ببضعة بلايين من الدولارات رغبة منهم فى اصطناع الرخاء ، فان ما كانوا يفعلونه بالملعقة الصغيرة أصبح يكال الآن بالمغرفة الكبيرة .

ولم تأت سنة ١٩٤٣ حتى كانت البطالة قد قضى عليها نهائيا ، الا فى الحالات القليلة الناتجة عن انتقال الأفراد من وظيفة الى أخرى أو انتظارهم لوظيفة معينة ، فلما جاءت سنة ١٩٤٤ ، كانت علائم الرخاء بادية فى كل مكان ، فأصبح من العسير على المرء أن يجد غرفة شاغرة فى أحد فنادق المدن الكبيرة ، وصارت المطاعم التى كان من اليسير الحصول على مكان فيها للغذاء ، مزدحمة بالرواد على الدوام ، ونشطت مبيعات المجوهرات ومعاطف الفراء ، وكانت أغلب تلك المبيعات بالنقد ، وصادفت التجارة فى مختلف السلع الترفية رواجا عظيما ، بعد أن كانت صغيرة مضمحلة ، وقد شهد بذلك أحد أصحاب متاجر الآلات الموسيقية اذ قرر أنه كان يبيع كل ما يمكنه أن يضع يده عليه من أنواع البيانو الكبير

سواء أكان جديدا أم مستعملا ، وكذلك شاهد الزائرون للمدن الصناعية الواقعة فى اقليم انجلترا الجديدة ، وهى المدن التى عانت الكساد حتى قبل اشتداد الأزمة الاقتصادية العالمية ، أن كثيرا من المساكن فيها كان مطليا بطلاء حديث ، وكانت تبدو عليها مظاهر الرخاء والنعمة .

ولا شك أن ذلك الرخاء المتدفق يعتبر ظاهرة غريبة فى دولة كان من المفروض أن تتجرد من كل ما يمكنها أن تتجرد منه لكى تبذل أقصى جهد لكسب الحرب . ولقد عنيت الحكومة بالعمل على تخفيض الاتفاق وتقليل التضخم ، بما وضعته من قيود على ارتفاع الأسعار والأجور ، وبتوزيع السلع النادرة أو الضرورية بالبطاقات ، وفرض الضرائب على الأرباح الاستثنائية ، ورفع ضريبة الدخل الى أبعد الحدود . ومن الانصاف أن نقرر أن الحكومة نجحت بعض النجاح فى تحقيق هذه الأهداف ، غير أن هذه المحاولات لم تمنع الرخاء من التزايد بدرجة غير مفهومة ولا مقصودة . ولقد كان ذلك من غير شك مدعاة للغبطة وبخاصة لأنه حدث بعد الكساد الشديد الذى عانته البلاد فى الحقبة التالية لسنة ١٩٣٠ .

وللانسان أن يتساءل : لمن كانت تذهب كل تلك النقود ؟ الواقع أن حملة أسهم الشركات الكبرى لم يحصلوا على نصيب كبير من تلك الثروة الجديدة ، فعلى الرغم من أن تلك الشركات قامت بتنفيذ طلبات الحكومة الضخمة فيما يتعلق بانتاج معدات الحرب ، واستطاعت بذلك أن تدعم مركزها فى الاقتصاد القومى ، الا أن ضرائب الأرباح الاستثنائية وحذر المشرفين على ادارة الشركات ، بسبب عدم اطمئنان للمستقبل وبسبب الذكريات الفاضحة المرتبطة بأرباح الحرب سنة ١٩١٨ ، كل ذلك أدى الى بقاء الأقساط المدفوعة لأرباح الأسهم فى حدود معقولة ، فبقى التعامل فى بورصة الأوراق ضعيفا ولم تتمتع الرأسمالية الضخمة بأية فرصة ذهبية .

وقد اكتسبت بعض الشركات الصغيرة فى هذه الآونة أرباحا طائلة

بسبب معدات الحرب الكثيرة التى كان يطلب منها صنعها ، مع أن هذه الشركات كانت فى حالة يرثى لها ابان الأزمة الاقتصادية . على أنه يجب أن نلاحظ أن تلك الأرباح الطائلة كانت خاضعة لضريبة الأرباح الاستثنائية بالاضافة الى زيادة أجور العمال بين آونة وأخرى، وفقا لتعديل الاتفاقات بين الشركات ونقابات العمال . وهناك شركات صغيرة أخرى وبخاصة فى صناعة المنسوجات كانت لا تقوم رسميا بأعمال ذات أغراض حربية ولكنها جنت أرباحا طائلة ، والى جانب هذه الشركات كانت توجد شركات أخرى أقل حظا منها ولذا عانت متاعب كثيرة .

ولاشك أن الأغنياء كانوا يحصلون على جانب من تلك النقود التى غمرت الاقتصاد الأمريكى فى ذلك الوقت ، ولكن أصحاب الضمائر الحية من بينهم لم يتمكنوا من الابقاء الا على قليل من تلك النقود بسبب ارتفاع ضرائب الدخل ، غير أن ما بدا من كثرة انفاق الأفراد فى ذلك العهد فكان يعزى الى محاولة التهرب من دفع الضريبة ، أو الاسراف فيما يخصص من أرباح الشركة لنفقاتها الادارية . ولهذا يلاحظ أن الحرب لم تأت بكسب كبير للأغنياء من أصحاب الضمائر ، وان كانت قد أدت الى ايجاد قليل من أصحاب الملايين الذين حصلوا عليها بطريقة شرعية ، وبخاصة من بين أصحاب آبار البترول اذ كانوا لايشعرون بعبء الضرائب الفادحة ، بسبب ما كانوا يحصلون عليه من علاوات اضافية فى مقابل تعرض آبارهم للنضوب .

أما الأفراد الذين لم يشتغلوا بالصناعات الحربية والذين كانت أجورهم ومرتباتهم مجمدة (أى لايجوز رفعها) وفقا لأوامر مجلس العمل الحربى ، فانهم لم يستفيدوا شيئا من كل ذلك الرخاء الا فى حالات قليلة، عندما كان بعضهم يتمكن من تنسيق وظيفته ورفعها الى مرتبة أعلى، أو كان يحصل على « علاوة التفوق » ، وكذلك لم يستفد أحد ممن اعتمدوا فى دخلهم على أرباح ما يملكون من أسهم وسندات ، بل انه فى كثير من الحالات ، تدهور شأنهم بسبب التضخم وما نتج من ارتفاع

الأسعار وهبوط قيمة النقد الشرائية .

أما الذين حصلوا على أكبر نصيب من الاستفادة من الرخاء فى ذلك الوقت ، فقد كانوا بوجه عام المزارعين والمهندسين والفنيين والمتخصصين فى مختلف الأعمال ، الذين استطاعوا أن يقوموا بخدمات قيمة للمجهود الحربى بسبب ما يتمتعون به من علم أو مقدرة خاصة . وكذلك ساهم فى هذه الاستفادة العمال الماهرون فى الصناعات الحربية أو العمال غير الماهرين الذين استطاعوا بمجهودهم أن يتعلموا حرفة فنية ، ويدخلوا فى زمرة العمال الماهرين .

وقد كان المزارعون بوجه خاص فى نعمة سابغة ، بعد ما عانوا من متاعب وخسائر متلاحقة ، ففى خلال فترة الحرب كانت الأسعار مرتفعة والطلب على المنتجات الزراعية كبيرا ، كما كان الجو مناسبا ، وتحسنت أساليب الزراعة تحسنا واضحا ، مما أدى الى أن مقدرة الزراعيين الشرائية فى سنة ١٩٤٣ بلغت نحو ضعف ما كانت عليه فى سنة ١٩٣٩ .

وعلى الرغم من أن أجور العمال فى الصناعات الرئيسية كانت مجمدة، اذ قضى مجلس العمل الحربى ببقائها فى حدود معقولة ، فمن الحقائق المسلم بها أن أولئك العمال كانوا فى مجموعهم أكثر المنتفعين من الرخاء الجديد ، كما يستدل على ذلك من الأرقام الخاصة بالعمال المشتغلين بالصناعات الانتاجية ، فقد ارتفع متوسط أجورهم الاسبوعى بمقدار ٨٦٪ فيما بين سنتى ١٩٣٩ و ١٩٤٥ ، ولذا شعروا ، رغم ارتفاع الأسعار فى هذه الفترة ، بزيادة فعلية كبيرة فى « أجورهم الحقيقية » .

وبالجملة فان الرخاء الذى صاحب قيام الحرب ، أدى الى تحسين حالة أصحاب الدخول الصغيرة ، وان كان لا يفهم من ذلك أنه لم توجد استثناءات كثيرة لهذه الحقيقة .

وقد امتازت هذه السنوات بزيادة تلفت النظر فى نفوذ الحكومة الفدرائية وفى تعقد نظامها وعدد موظفيها ، وكانت هذه الزيادة على سبيل الاضافة الى ما حدث من نمو كبير فى الحكومة فى عهد الانعاش الاقتصادى ، أى فى السنوات الأولى من حكم روزفلت .

وهنا يجمل بنا أن نسجل ملاحظة لابد منها ، وهى أن هذا النمو لم يكن أمرا جديدا ، فقد كانت الحكومة الفدرائية كحكومات الولايات والحكومات المحلية ، فى نمو مطرد منذ سنوات عديدة (الا فى سنوات الحرب ، فان النمو كان مقصورا على الحكومة الفدرائية) ففيما بين سنتى ١٩١٥ و ١٩٣٠ زادت نفقات الحكومة الفدرائية ٣٥٢٪ . واذا أخذنا فى الاعتبار أن جانبا من تلك الزيادة كان راجعا الى النفقات الحربية وتعويضات المحاربين القدماء ومعاشاتهم ، فان الزيادة الخاصة بالادارة الحكومية المدنية وحدها ارتفعت مع ذلك بمقدار ٢٣٧٪ .

على أن سياسة الانعاش قد قفزت بهذه الزيادة بدرجة واضحة ، ثم جاءت الحرب بين سنة ١٩٤١ الى ١٩٤٥ فدفعت بها دفعا شديدا حتى بلغت الذروة . ففى سنة ١٩٣٠ عندما كان هوفر رئيسا للولايات المتحدة ، وكانت الأزمة الاقتصادية فى بدايتها ، كان عدد المدنيين الموظفين فى الحكومة الفدرائية حوالى ٦٠٠ر٠٠٠ ، وفى سنة ١٩٤٠ عندما كانت سياسة الانعاش قد أدت مهمتها ، وفى الوقت الذى لم يظهر فيه الرخاء الناجم عن الحرب بدرجة كبيرة ، زاد عدد أولئك الموظفين الى أكثر من مليون . أما فى سنة ١٩٤٥ عندما وضعت الحرب أوزارها ، فقد كان عدد أولئك الموظفين أكثر من ثلاثة ملايين .

ويلاحظ أن الادارة الحكومية بعد انتهاء الحرب لم تنكمش الى ما كانت عليه فى بدايتها ، أى الى حوالى مليون موظف ، اذ كان الانكماش فى حدود ضيقة كما حدث عقب الحرب العالمية الأولى ، بدليل انه فى سنة ١٩٤٩ ، أى بعد أربع سنوات من انتهاء الحرب ، وقبل ابتداء الأزمة

الكورية ، كان عدد موظفى الحكومة الفدرائية يزيد على مليونين .

ومن الجائز أن يعلل ذلك بأن حكومة ترومان كانت تقتدى بحكومة روزفلت فى رغبتها فى التوسع والاغداق ، كما يمكن تعليله بما يعرف عن ميل الموظفين عموما الى الاحتفاظ بوظائفهم وتوسيع اختصاصاتها . وعلى كل فمما لاشك فيه ان تضخم عدد موظفى الحكومة كان يعزى الى حد كبير الى توتر العلاقات بين أمريكا وروسيا السوفيتية ، كما كان يعزى الى تزايد الاعتماد على نشاط الحكومة الفدرائية ومشروعاتها .

— ٦ —

ولقد كانت سنة ١٩٤٥ سنة مليئة بالأحداث الجسام ، ففى بدايتها بدأ ارتداد الألمان بعد الهجوم المضاد الذى قاموا به فى منطقة جبال الأردن المغطاة بالثلوج ، كما بدأت فى الجانب الآخر من العالم قوات جنرال ماك آرثر فى الزحف على جزائر الفلبين . وفى أوائل شهر مايو سلمت ألمانيا بعد أن قتل هتلر كما قتل موسولينى من قبله ، وفى يوليو نجحت التجربة الأولى لتفجير القنبلة الذرية فى ولاية مكسيكو الجديدة، وفى أغسطس استخدمت تلك القنبلة فى تدمير مدينتين من المدن اليابانية، فاستسلمت اليابان وكان ذلك بعد فترة قصيرة من هجوم روسيا المتأخر على اليابانيين فى منشوريا ، وصحب اعلان النصر على اليابان مظاهر فرح وابتهاج لاحد لها ، لاعتقاد الناس أجمعين أن عهد السلام قد بدأ

وقد سارعت أمريكا الى اعادة جنودها الى الوطن استجابة لمطالب الرأى العام الملحة ، وعندئذ فوجئت بأمرين هامين ، وكان أولهما يدعو الى الغبطة لأن الأزمة الاقتصادية التى كان الكثيرون ينتظرونها عقب انتهاء الحرب لم تتحقق ، بل على العكس من ذلك استمر الرخاء فى ازدياد ، وظل انفاق الجمهور للمال بدرجة أدت الى زيادة التضخم عما كان عليه ابان الحرب ، نظرا الى تخفيف القيود الحكومية على المعاملات (بلغت زيادة نفقات المعيشة بالنسبة للأسرة المتوسطة الدخل ٢٨٫٤٪ فيما

بين سنة ١٩٤٠ و ١٩٤٥ ، أما فيما بين سنتى ١٩٤٥ و ١٩٤٩ فقد بلغت تلك الزيادة ٣١٫٧٪ — وكانت الأسعار فى ارتفاع مستمر) . وقد تدخلت الحكومة الفدرائية مرات متعددة لتسوية عدد من اضرابات العمال فى ذلك الوقت ، وكانت فى كل مرة تمنح العمال جانبا مما يطلبون ، وقد استتبعت زيادة الأجور التى نجمت عن ذلك زيادة فى الأسعار — وكانت زيادة الأسعار فى بعض الأحيان بنسبة أقل من نسبة زيادة أجور ؛ مما أبقى على بعض المكاسب للعمال — وقد شهدت أمريكا فى ذلك الوقت ارتفاعا فى أجور العمال أعقبه ارتفاع ثان ثم ارتفاع ثالث . ولاشك أن زيادة نفقات المعيشة الناجمة عن ذلك أضرت ببعض الصناعات والمتاجر ، وبالأفراد ذوى الدخل المحدود ، ولكن الرخاء الشامل رغم كل ذلك كان حقيقة لا تحتمل الشك ، ونظرا الى استمرار الحكومة فى الانفاق على نطاق واسع ، بدأ الناس يتساءلون عن مقدرة أمريكا على انتاج كل ما يمكنها استهلاكه ، بدلا من تساؤلهم عن مقدرة استهلاكها لكل ما يمكن انتاجه .

أما الأمر الثانى فكان مصدر قلق مستمر ، ذلك لأن القضاء على هتلر واخضاع اليابان لسيطرة ماك آرثر المطلقة ، شجع أمريكا فى البداية على التحرر من بعض قيود الحرب ، ولكنها لم تكد تبدأ فى ذلك حتى تبينت لها حقيقة رهيبة ، وهى أن روسيا السوفيتية كانت بدورها مصممة على السيطرة العالمية ، مما جعل من واجب أمريكا ألا تكتفى بالاحتفاظ بقوات احتلال كبيرة فى أوربا والشرق الأقصى ، بل كان عليها أيضا أن تمنح بريطانيا قرضا كبيرا لتسند به اقتصادها المنهار ، وأن تقدم المساعدة لتركيا واليونان ، تنفيذا لمبدأ ترومان (القائم على صد التوسع الشيوعى فى كل مكان) ، كما بدأت مشروع مارشال الذى كلفها بتقديم بلايين الدولارات سنويا لمساعدة شعوب أوربا الغربية وحكوماتها ، وأن تقوم لعدة شهور بتغذية برلين الغربية وتموينها بالطائرات ، لكى تمنع السوفيت من الاستيلاء عليها بسبب جوع أهلها . ثم جاء بعد ذلك تكوين

حلف الأطلنطى للدفاع عن أوربا الغربية ، واحتمال أمريكا لأكبر نصيب من ذلك الدفاع . فلما جاءت سنة ١٩٥٠ ، اضطرت الى التدخل لوقف العدوان الشيوعى على كوريا الجنوبية — وكانت فى أثناء ذلك تتعرض فى كل اجتماع لهيئة الأمم المتحدة ، سواء فى مجلس الأمن أم الجمعية العمومية أم اللجان المختلفة ، لهجوم السوفيت الذى بلغ الذروة فى شدته وحدته .

وكان من نتائج ذلك أن استمر التجنيد الاجبارى قائما وأعيد تكوين القوات المحاربة ، وهذا بدوره أدى الى زيادة الانفاق واطالة فترة التضخم . وقد نجحت أمريكا فى فترات متقطعة فى تحقيق اشتراك الحزبين الرئيسيين فى مسائل السياسة الخارجية ، غير أن عبء المسئوليات الكثيرة وتضارب الآراء فيها ، أدى الى استمرار الاحتكاك السياسى والانتقادات الموجهة من المعارضة الى الحكومة بسبب ما ارتكب من أغلاط حقيقية أو مزعومة ، وقد ساعد ذلك على أن تحتفظ الشيوعية بالمقدرة على توجيه الحوادث فى كثير من بقاع العالم ، بل ان الشيوعيين الأمريكيين توغلوا خلسة فى ادارة كثير من نقابات العمال وفى بعض المنظمات الأهلية التى تعمل فى الظاهر للصالح العام ، وكذلك فى بعض المصالح الحكومية . ونظرا الى زيادة روح العداء للسوفيت فان كشف هذا النشاط للشيوعيين الأمريكيين أدى الى اتهام كثير من المواطنين الممتازين وتشويه سمعتهم ، وكثيرا ما قام ذلك على أدلة واهية أو كاذبة. ومن جهة أخرى ، فان هذا التخوف المتزايد من روسيا السوفيتية أدى الى موافقة الكونجرس على قوانين متتالية ترمى الى انعاش أوربا واعادة بنائها والدفاع عنها ، وكانت سياسة المساعدة هذه ، وهى وليدة قلق أمريكا على تطور الأحوال السياسية ، سياسة سخية وبعيدة النظر وان كانت لا تلقى قبولا من بعض الشعوب الأوربية — علما منها بأن الشعب الأمريكى لم يتألم مثلما تألمت ، ولم ينكب مثلما نكبت .

ومن النتائج غير المنظورة لتزايد التوتر الدولى ، اختفاء سياسة

العزلة اختفاء نهائيا من الميدان ، فان أنصار تلك السياسة أو من كانوا يميلون الى اتباعها لو تحسنت الأحوال الدولية ، وجدوا أنهم يقفون موقفا متناقضا ، اذ يحبذون التدخل بالنسبة الى الشرق الأقصى ، ويحبذون العزلة بالنسبة الى أوربا . فعندما كانوا يلقون ببصرهم عبر المحيط الأطلس ، كانوا ينظرون بعين الريبة القديمة ، ويلقون بأصواتهم ضد الاعتمادات والمساعدات الموجهة الى بريطانيا ، ويطالبون بتخفيض المساعدات الموجهة الى غرب القارة الأوربية ، ولكنهم عندما يلقون ببصرهم عبر المحيط الهادى ، يزول التشكك من نفوسهم ، بسبب ثقتهم غير المحدودة بشانج كاى تشيك ، وهو الرجل الذى يستحق فى نظرهم كل تعضيد ومساعدة .

وقد نتج عن ذلك أن أمريكا أصبحت منقسمة الى محبذى التدخل فى أوربا ومحبذى التدخل فى آسيا ، أما أنصار العزلة الفعلية فقد أصبح لا وجود لهم فى ذلك الوقت على الأقل . والواقع أنه مهما اشتدت الخلافات حول السياسة الخارجية ، فقد كان هناك اجماع فى الرأى على أن الولايات المتحدة يجب عليها أن تواجه المسئوليات التى لا مفر منها ، على اعتبار كونها أكبر مدافع وممول وناصح للعالم الذى لا يخضع للشيوعية .

ولا شك أن هذا التطور كان مما لا يستطيع الأمريكى فى سنة ١٩٣٥ أن يتصور حدوثه ، لو أنه كان قادرا على التنبؤ بما سوف يحدث فى المستقبل .

ونظرا الى أن هذا التطور كان جديدا ، فقد وجدت الولايات المتحدة نفسها غير مستعدة لكل نتائجه ومستلزماته ، فلم يكن بها أخصائيون فى شئون البلاد التى أخذت الأزمةبتلابيبهاكالصين وكوريا والهند الصينية وايران ومصر ، وأصبح من واجب الولايات المتحدة أن تسارع الى اعداد أولئك الفنيين وتدريبهم . وكذلك كانت مشاكل السياسة الخارجية جديدة وغريبة بالنسبة الى غالبية الأمريكيين ، وهؤلاء

يغضون بطبعهم المساهمة فى الدعاية الأمريكية فى الخارج ، وكانوا بحكم عواطفهم غير مستعدين للدور الرئيسى الذى ألقيت عليهم أعباؤه ، لأن غرائزهم وتجاربهم أملت عليهم الاعتقاد بأن مركز اهتمامهم لا يعــدو الولايات المتحدة نفسها ، حيث ينبغى لهم أن يعنوا بشئونهم الخاصة ، ولكل هذا ، كانت الولايات المتحدة بحق هى الدولة الكبرى المتمنعة التى أرغمت على قبول مركز الصدارة وهى راغبة عنه .

الفصل الثاني عشر

نور بعد ظلام

لم يكد ينتصف القرن العشرون ، حتى أخذ جيش صغير من الفنيين الأمريكيين والسياسيين والصحفيين والباحثين الجامعيين ، فى القيام بزيارة مختلف الأقطار لمساعدة بلادهم على النهوض بمسئولياتها العالمية الجديدة . وقد وجد أولئك الأمريكيون فى الخارج أنهم كانوا يواجهون بسؤال واحد حيثما وجدوا (وكان هذا السؤال يرجع الى حد ما الى الدعاية الشيوعية القوية) ألا وهو : « ما هى العلاقة بين الأجناس فى الولايات المتحدة ؟ » ويعزى ذلك الى أن الرجل الآسيوى أو الأفريقى وكذلك الرجال الملونون فى كل الأقطار ، كانوا يرغبون فى تقدير مدى اخلاص أمريكا فى وعودها وتصريحاتها ، فيما يتعلق بانشاء عالم جديد ، بما يقوم به الأمريكيون أنفسهم من حل لمشكلة الأجناس فى بلادهم .

ولم يجد الأمريكيون فى الخارج جوابا واحدا مقنعا على هـذا السؤال المتكرر ، اذ لم يكن فى مقدورهم أن ينكروا وجود بعض التحيز ضد الملونين فى الولايات المتحدة ، وان كانت الفكرة القائمة فى أذهان الناس فى الخارج عن هـذا الموضوع لا تتفق مع الوضع الحاضر ، وكانت خاطئة ومبالغا فيها الى حد كبير ، وكان أولئـك الأمريكيون يشعرون برغبتهم فى أن يقولوا لسائليهم : « ينبغى لكم أن تذكروا أن هذه الأمور قد تغيرت كثيرا فى عشرات السنوات الأخيرة » .

وقد بلغ عدد الزنوج فى الولايات المتحـدة سنة ١٩٠٠ أقل من ٩ ملايين نسمة (فى مقابل ١٥ مليونا فى سـنة ١٩٥٠) ، وكان تسعة

،عشارهم يقيمون فى الجنوب ، وثلاثة أرباع هذا العدد يقيم فى المناطق الريفية من الجنوب . وبلغت نسبة الأمية بينهم ٤٤٫٥٪ كما كانت غالبيتهم العظمى تشتغل بأحقر الأعمال وأقذرها وأصعبها وأقلها أجرا ، كما كانت المهنة الرئيسية لهم هى جمع القطن ، ولذا كانوا ضحية نظام زراعى مهين بكرامة الانسان وقليل الفائدة الاقتصادية ، وكان الكثير منهم فضلا عن ذلك يعيش عيشة تشبه عيشة العبيد ، بسبب الديون التى كانت تكبلهم بالأغلال .

ولقد قدر أنه فى سنة ١٩٠٠ كان عدد الزنوج المقيدين فى سجلات الانتخاب فى ولاية آلاباما لا يزيد على ثلاثة آلاف ، فى حين كان مجموع الذكور الذين بلغوا سن الانتخاب لايقل عن ١٨١٫٤٧١ ، وكذلك كثرت حالات اعتداء الجمهور Lynching على المتهمين الملونين والقضاء عليهم بطريقة وحشية قاسية ، قبل أن يقول القضاء كلمته فى الاتهامات الموجهة اليهم . وبلغ عدد هذه الحالات فى سنة ١٩٠٠ ما لا يقل عن ١١٥ حالة ، وفى سنة ١٩٠١ ١٣٠ حالة (وذلك بالقياس الى متوسط يقل عن ٤ حالات فى السنة فيما بعد سنة ١٩٤٠) .

أما الزنوج الذين كانوا يعيشون فى خارج الولايات الجنوبية ، وكان عددهم حوالى المليون ، فانهم كانوا أسعد حظا من زملائهم بسبب ارتفاع مستوى الأجور نسبيا فى شمال الولايات المتحدة وغربها ، ولوجود المدارس الصالحة والوسائل الصحية الوافية ، هذا فضلا عن أن الخوف من الزنوج لم ينتشر بعد الى هذه الأقاليم . ومما يلفت النظر ان الزنوج القلائل المقيمين فى بعض المجتمعات الصغيرة ، كانوا يتمتعون باحترام المجتمع ، ويشغلون مناصب لا تقل كثيرا عن تلك التى كان يشغلها جيرانهم من البيض . غير أنه كان ينظر الى الزنوج بوجه عام ، حتى فى الأقاليم الشمالية ، كأنهم ممثلون هزليون فى مسرحية الحياة الأمريكية ، فكانت أقوال الخدم الملونين مثلا مصدر ضحك المتعلمين وتعليقهم ، كما يروى الانسان أحاديث الأطفال النابهين ليتخذ منها مادة للسرور والتفكه.

وقد ظهرت رغبة الزنوج منذ زمن طويل فى النزوح الى الشمال كلما توافرت لديهم النفقات اللازمة لمثل هذا الرحيل ، ولكن هجرتهم الى الشمال لم تكن فى نطاق واسع الا حوالى سنة ١٩١٥ ، عندما تزايد الطلب على العمال غير الماهرين ، نظرا للتوسع فى الصناعات الحربية فى الشمال . وقد استمرت هذه الحالة سنة بعد أخرى كلما انتشرت فى أقاليم الجنوب الأنباء الواردة من الأقارب والأصدقاء الملونين ، والمقيمين فى حى هارلم Harlem (فى مدينة نيويورك) أو فيلادلفيا أو شيكاغو ، وأشارت الى أنهم كانوا يتناولون الغذاء بانتظام ولا يتعرضون للقيود السخيفة التى كانت تضيق عليهم حياتهم فيما مضى ، فلما زاد عدد الزنوج المقيمين فى الشمال — وبخاصة فى المدن الكبرى التى اجتذبت اليها عددا كبيرا من أولئك المهاجرين — ظهر بين سكان الشمال نفس الفزع والخوف من الزنوج كما كان موجودا فى الجنوب . ولذا نظمت وأحكمت المساعى لمنع الزنوج من شغل الوظائف التى يمكن للبيض أن يشغلوها ، ولمنع اقامتهم فى غير الأحياء الفقيرة من المدينة ، لكى لا يؤدى انتشارهم فى غيرها الى هبوط قيمة العقارات والممتلكات ، ولذا انتشرت بعد سنة ١٩٢٠ حركة « كو كلوكس كلان » الوحشية ، وكان نشاطها غير مقصور على الجنوب بل شمل أيضا جهات متعددة من الشمال .

فلما جاءت الأزمة الاقتصادية الكبرى كان الزنوج من أكبر ضحاياها ، ففى ذلك الوقت الذى اشتد فيه خوف الأمريكيين من البطالة وأفزع الملايين منهم ، كان من الطبيعى أن يكون أول ضحايا تلك الأزمة أولئك الذين قضت التقاليد بأن يكونوا آخر من يوظفون وأول من تخفض أجورهم وأول من يفصلون من العمل . ولكن الهجرة نحو الشمال ظلت كبيرة حتى فى ذلك العهد ، بسبب سهولة الحصول على اعانة العاطلين فى الأقاليم الشمالية أكثر منها فى الأقاليم الجنوبية . وفى سنة ١٩٣٥ أجرى احصاء لمتوسط دخل الأسرات الملونة فى عدد من المدن ، فتبين منه أن ذلك المتوسط كان فى المدن الشمالية نحو النصف أو أقل منه بقليل

بالقياس الى متوسط دخل الأسر البيضاء (ولم يكن هذا الأخير فى تلك السنة من الأزمة مما يصح المباهاة به) . أما فى المدن الجنوبية فكانت النسبة دون ذلك بكثير ، ففى مدينة موبيل بولاية ألاباما مثلا ، كان متوسط دخل الأسرة الزنجية ٤٣١ دولارا فى العام بالمقارنة بـ ١٤١٩ دولارا للأسرة البيضاء . وفى تلك السنة أيضا كان نحو نصف الأسر الزنجية فى الشمال يعتمد على الاعانات .

ولا عجب فى أن الشيوعيين بذلوا أقصى الجهد فى الاستفادة من هذا الموقف واستغلاله فى دعايتهم ، اذ كان الزنوج هم الطبقة الدنيا المثالية « بروليتاريا » التى ينتظر منها أن تستجيب لهذه الدعاية ، ولكن الشيوعيين مع ذلك لم يوفقوا الا فى كسب عدد قليل من الزنوج الى جانبهم ، لأن هؤلاء لم يكونوا فى الواقع طبقة اجتماعية بل كانوا طبقة جنسية ، تشتمل بين طياتها على مختلف الطبقات الاجتماعية ، ولذا لم تجد الدعاية الشيوعية آذانا صاغية من زعماء الزنوج وأثريائهم ، هذا فضلا عن أن الشيوعية كانت بسبب نشأتها وأساليبها أجنبية بالنسبة الى الزنوج وغير محبوبة ولا مقبولة لديهم . وقد أشار الى ذلك أحد الزنوج بقوله : « يكفينا بلاء أن نكون سودا ، فلا داعى لأن نكون حمرا كذلك » .

ولقد تحسنت الحالة الاقتصادية تحسنا سريعا باقتراب نشوب الحرب العالمية الثانية ، ولذا بدأ الزنوج يستفيدون مما حدث من ارتفاع فى مستوى الأجور ، غير أن هذه الاستفادة كانت محدودة ومتأخرة نظرا لاصرار العمال البيض على الاحتفاظ لأنفسهم بأحسن الوظائف وأكثرها أجرا ، وكان اصرارهم على ذلك أوضح وأكثر فى ذلك الوقت منه ابان فترة الرخاء التى جاءت عقب الحرب العالمية الأولى .

غير ان اعتبارا جديدا بدأ يؤثر فى الموقف ، ألا وهو شعور المواطنين من البيض بأن بقاء طبقة محرومة من المزايا التى يتمتع بها بقية السكان فى الولايات المتحدة ، يعتبر وصمة فى جبين دولة تتزعم حركة الدفاع عن الديمقراطية ، وقد عرف زعماء الزنوج كيف يستغلون هذا الموقف

فكانوا يعيرون البيض بما حدث فى القوات المسلحة الأمريكية ، حيث يجند الزنوج كما يجند البيض ولكنهم يمنعون من الاختلاط بغيرهم ويكلفون بأداء أحط الأعمال . ولقد نتج عن ذلك قيام دعاية قوية ترمى الى مناهضة هذه العزلة التى فرضت على الزنوج ، والمطالبة باصدار التشريع الذى يضمن « المساواة فى ظروف العمل » فى المصانع الحربية ، ولقيت هذه الدعاية تأييدا كبيرا من السكان البيض فى الشمال وفى الجنوب ، ودلت على تحرك ضمير الكثيرين من المواطنين الذين لم تؤثر فيهم مناداة بعض الزعماء الشعبيين بالنداءات القديمة الخاصة « بسيادة الجنس الأبيض » ، اذ أخذ الناس يشعرون بفداحة العبء الاقتصادى الذى يحمله المجتمع بسبب تعمده الأبقاء على فريق من المستهلكين فى حالة فقر وحرمان ، وكانوا يبحثون عن أنجع الوسائل وأيسرها لحل ما تعانيه الولايات الجنوبية من مشاكل قديمة بسبب فقر الزنوج وبؤس حالتهم .

ولقد ظلت مشكلة الزنوج تتأرجح بين الحل والتعقد بعض الوقت كما يتبين مما كتبه جنار ميردال Gunnar Myrdal فى مؤلفه الضخم بعنوان « المعضلة الأمريكية » ، وهو المؤلف الذى أتمه خلال الحرب وبحث فيه بحثا هادئا مستفيضا حالة السكان الملونين ، اذ قال : « ان الاطلاع على الصحافة الزنجية والاستماع الى تقارير أولئك المراقبين الذين اختلطوا بالزنوج فى جنوب البلاد وشمالها قد أقنعنى بوجود الكثير من الاكتئاب والتشاؤم واليأس بين الزنوج الأمريكيين فى الوقت الحاضر ، وأنهم قد أصبحوا يشعرون شعورا مبهما بالارهاق والسخط والغضب بسبب ظلم المجتمع لهم » ، وكان الكاتب يعتقد بما كان يعتقده أغلب الناس فيما بين سنة ١٩٤٣ — سنة ١٩٤٥ ، من أن الكساد سوف يتبع نهاية الحرب ، ولذا أبدى تخوفه من أن يؤدى الاحتكاك بين السود والبيض بسبب التزاحم على مطالب العيش الى توقف النهوض بالسود وتحسين حالتهم .

غير أن الكساد لم يتحقق بعد الحرب ، كما أن تأنيب الضمير الأمريكي كان مستمرا طوال هذه السنين ، وأدى كل ذلك الى أن فترة ما بعد الحرب شهدت تغيرا فى الموقف كان لا يمكن تصوره قبل ذلك بعشر سنوات .

ولقد أصدرت المحكمة العليا عددا من الأحكام التى أطاحت بالكثير من القوانين والاجراءات المعروفة التى كانت تحد من حق الزنوج فى الاقتراع ومن فرص التعليم ، فأضعف أحد تلك الأحكام من قوة بعض القوانين التى تنظم ملكية العقارات وتقيدها فيما يتعلق بالزنوج ، وعمدت بعض الولايات الجنوبية الى الغاء ضريبة الرأس التى كانت تمنع عددا كبيرا من فقراء البيض والسود من حق الانتخاب ، وقد نتج عن ذلك اشتراك أكثر من مليون زنجى فى الجنوب فى انتخابات سنة ١٩٤٨ ، وكذلك ألغيت عزلة الزنوج الغاء رسميا فيما يتعلق بالقوات الجوية والبحرية الأمريكية ، على حين خففت قيودها بالنسبة الى القوات البرية . ومن جهة أخرى أثمرت الدعاية القوية لتحقيق « المساواة فى العمل » الى صدور التشريعات الملائمة لذلك فى كثير من الولايات الشمالية ، وحملت عددا كبيرا من أصحاب الأعمال على اتباع سياسة عمالية متحررة ، مما أتاح الفرصة لاشتغال الزنوج فى كثير من الأعمال التى لم يسبق لهم الاشتغال بها من قبل ، ففى مدينة نيويورك مثلا كان مما يلفت نظر أى شخص عائد الى المدينة بعد غيبة طويلة ، كثرة ما يشاهد من الرجال والنساء الملونين وهم يركبون السيارات العامة فى وسط المدينة أو يسيرون فى طرقاتها فى سبيلهم الى أعمالهم ، وهى الأعمال التى كانت من قبل مقصورة على البيض ، أو يدخلون المتاجر التى كان يندر فيما مضى أن يشاهد فيها المشترون من الملونين ، وكذلك كانت الحال فى المدن الشمالية والغربية حيث خفض كثير من القيود الظالمة على دخول الملونين فى الفنادق والمطاعم والمسارح .

والملاحظ أن تقدير المتعلمين لمواهب الزنوج وبخاصة فى موسيقى الجاز أخذ يتزايد باطراد عقب سنة ١٩٣٠ ، مما حدا بالكثيرين من عشاق هذه الموسيقى الى أن يمجدوا أولئك الذين كانوا من السباقين فى هذا الميدان من بين موسيقيى الجاز فى مدينتى نيوأورليئز وممفيس . وقد أدى ذلك الى أن تبوأ الموسيقيون أمثال ديوك النجتون Duke Ellington ولويس أرمسترنج Louis Armstrong مكانة كلها احترام وتقدير من جانب آلاف من عشاق الموسيقى . وفى هذه الأثناء اكتسب رالف بانش Ralph Bunche ، وسيط الأمم المتحدة فى فلسطين ، اعجاب عدد لا يقدر من البيض ، بما أبداه من كياسة وسياسة ، وكان هذا كسبا للزنوج فى ميدان جديد . غير أنه مما يفوق كل هذه المكاسب فى الأهمية بالنسبة الى مكانة الزنوج فى المجتمع ، نجاح جولويس Joe Louis بطل الملاكمة الشهير فى الوزن الثقيل ، فقد نال اعجاب الملايين من غواة الرياضة ، وكتب عنه المحرر الرياضى فى احدى صحف نيويورك بأنه مصدر فخر لجنسه — أى للجنس البشرى — ومما زاد من هذه المكاسب أيضا براعة بعض الزنوج فى لعبة البيسبول ، بعد أن رفعت القيود السخيفة التى كانت تمنعهم من ممارسة هذه اللعبة ، وكان ذلك قبيل منتصف القرن الحالى بسنوات قلائل . ولقد أثبت اللاعبون أمثال جاكى روبنسون Jackie Robinson ، بما أبدوه من براعة فى هذه اللعبة وخلق رياضى جميل ، أن القيود التى كانت مفروضة على أمثالهم كانت ظالمة وسخيفة ، ولم تأت سنة ١٩٥٠ حتى كان عشاق هذه اللعبة يختارون اللاعبين المفضلين لديهم ، دون النظر الى لون بشرتهم ، كما عنى معلقو الاذاعة الرياضيون ، أثناء وصف مباريات البيسبول ، بعدم الاشارة الى لون اللاعبين ، ولذا كان المستمعون اليهم يعلمون علما طيبا متوسط الضربات التى يقوم بها روى كامبانيلا Roy Campanella دون أن يكون لديهم أدنى علم بأنه زنجى .

وبهذه المناسبة كتبت مسز روزفلت Eleanor Roosevelt ما يأتى :

« لعل أهم ما حدث فى الولايات المتحدة بالنسبة الى علاقات الأجناس أن أمورا كثيرة تحدث اليوم وتقوم على تعاون الجنسين — الأبيض والأسود — دون أن تثير أية دهشة . وقد ثبت لى ذلك بشكل واضح فى حفلة الاستقبال الافتتاحية التى عقدت فى البيت الأبيض فى سنة ١٩٤٥، فقد جاءتنى جماعة من الصحفيات اللائى كن يشاهدن صفوف المستقبلين، وقلن لى فى نهاية الحفلة : «هل تقدرين ما أحدثته السنوات الاثنتا عشرة الأخيرة من تغير ؟ انه لو حدث فى استقبال سنة ١٩٣٣ أن حضر عدد من الزنوج فى وسط هذه الصفوف واختلطوا ببقية المدعوين كما فعلوا اليوم ، فان جميع صحف البلاد كانت تثير ضجة حول هذا الموضوع ، ولكننا اليوم لا نعتبر أن هذا خبر يستحق الاشارة اليه » .

كذلك انقطعت الصحف والمجلات والروايات السينمائية عن تصوير الزنوج على أنهم لا يثيرون الا الضحك ولا يشتغلون الا بالأعمال الوضيعة المزرية ، لأن تلك الصور التقليدية أصبحت لاتلقى قبولا ، اذ كانت لا تتفق مع الواقع .

ولعل أهم ما حدث من تغير فى هذه الناحية ، النظرة الجديدة التى كان ينظر بها الى هذا الموضوع شباب الأمريكيين البيض ، سواء أكانوا فى الشمال أم فى الجنوب ، وهى تقوم على معاملة الزنوج على كونهم من الآدميين دون نظر الى لون بشرتهم . وقد ظهرت آثار هذه النظرة الجديدة عندما عمدت بعض الجامعات فى الجنوب — وفى الولايات القريبة من الجنوب — على قبول الطلاب الزنوج ، دون أن تفرض عليهم العزلة ، وكان ذلك خضوعا لبعض الأحكام الصادرة من المحكمة العليا . ولقد كان المسئولون عن ادارة الجامعات يشعرون ببعض القلق خوفا من أن يؤدى ذلك الى اثارة المندفعين من الطلاب البيض ، مما قد يسبب وقوع حوادث مؤسفة . غير أنه حتى نهاية سنة ١٩٥١ لم يؤد اختلاط الجنسين فى الجامعات الى أى حادث ، فكأن الطلاب قبلوا هذا التجديد الاجتماعى كقضية مسلمة .

(وفى هذه الأثناء ، حدثت تغيرات أساسية فى النظام الاقتصادى بالمنطقة الجنوبية من الولايات المتحدة ، وكان لها آثار بعيدة فى تغيير مصير الزنوج فى تلك المنطقة ، ذلك أن اختراع آلة جمع القطن وآلة جمع أوراقه قضى على عهد سيطرة القطن وتحكمه فى مناطق الجنوب الشرقى ، وأضعف تدريجا النظام التقليدى لايجار الأراضى ، ولذلك أخذ المزارعون ينصرفون عن زراعة القطن فى الولايات التى كانت مشتهرة بزراعته ، وهى جورجيا وألاباما وكارولاينا الشمالية والجنوبية ، وانتقل زراع القطن الى دلتا نهر المسسبى وولاية تكساس وأوكلاهوما ومكسيكو الجديدة وأريزونا ، حيث ثبت امكان زراعة القطن وحصاده فى مساحات كبيرة وبأقل نفقة ، بسبب استخدام الآلات . ولهذا انصرفت الولايات الواقعة فى الجنوب الشرقى عن زراعة القطن الى صناعة مستخرجات الألبان وتربية المواشى والأغنام وانتاج الخضراوات وتربية أشجار الصنوبر ، بعد أن زاد الطلب على تلك الأشجار لما تحتوى عليه من مادة السليلوز ، ونتج عن كل ذلك هجرة كثير من المستأجرين ، سواء أكانوا من البيض أم الزنوج ، الى المدن الصناعية فى مختلف أنحاء البلاد .)

وقد كشف احصاء سنة ١٩٥٠ عن مدى هذه الهجرة ، فقد أوضحنا فيما سبق أن نحو ثلاثة أرباع الزنوج فى الولايات المتحدة كانوا فى سنة ١٩٠٠ يعيشون فى الريف الجنوبى ، أما فى سنة ١٩٥٠ فقد هبطت نسبتهم الى الخمس وكان أقل من نصف هؤلاء يستأجرون الأراضى ، وفى كثير من الولايات الجنوبية — الاباما ، أركانزاس ، جورجيا ومسسبى — هبط مجموع الزنوج عما كان عليه فى سنة ١٩٤٠ . أما الزيادة التى سجلها عددهم فى كارولينا الجنوبية فكانت صغيرة للغاية . وعلى العكس من ذلك أثبتت الأرقام الخاصة بكثير من الولايات الشمالية أن الزنوج أصبحوا منتشرين فى منطقة واسعة منها .

أما فيما يتعلق بحالة الزنوج الاقتصادية ، فقد كتب جنار ميردال أثناء الحرب العالمية الثانية يقول : « ان حالة الزنوج الاقتصادية مستعصية

العلاج ، فاذا استثنينا أقلية صغيرة ممن يحتلون مركزا فى الطبقة العليا أو الوسطى من المجتمع ، فان الغالبية العظمى من زنوج أمريكا ، سواء أكانوا فى الريف الجنوبى أم يعيشون فى عزلة فى الأحياء الفقيرة فى مدن الشمال والجنوب ، يعانون الفقر المدقع ، فيندر منهم من يملك أرضا أو عقارا ، وأثاثهم المنزلى ناقص عن الحاجة وفى حالة يرثى لها ، كما أن دخلهم ليس منخفضا فحسب ، بل انه أيضا غير منتظم ، ولذا يعيشون من يوم الى يوم دون وجود ما يضمن لهم المستقبل . وأما ثقافتهم ومجهوداتهم وميولهم الشخصية فانها محصورة فى أضيق الحدود » .

ولقد كانت هذه الحقائق المؤلمة تنم فى مجموعها عن الواقع حتى منتصف القرن الحالى ، ومع ذلك فقد كانت هناك أدلة على أن الرخاء الذى نعمت به البلاد منذ سنة ١٩٥٠ قد أفاد السكان من الزنوج الى حد كبير .

وصحيح أن متوسط دخل الأسرة الزنجية قدر فى سنة ١٩٤٨ على أنه أقل من متوسط دخل الأسرة البيضاء بمقدار ٤٧٪ ، غير أن استعراض حالة الاقتصاد القومى لسنة ١٩٥٠ — وهو الذى أصدره فى يناير سنة ١٩٥١ مجلس المستشارين الاقتصاديين الملحق برياسة الجمهورية — قد أوضح نسبة الزنوج الى طبقات أصحاب الدخل المختلفة فى وضع آخر يتعلق « بوحدات الصرف » ، ففى الأسرات التى يقل دخلها النقدى قبل دفع الضرائب عن ١٠٠٠ دولار فى السنة ، كان ٨٣٪ من البيض و ١٥٪ من السود (مع وضع ٢٪ تحت عنوان « غير معروف ») . وفى الوحدة التالية التى يتراوح دخلها السنوى بين ١٠٠٠ و ٢٠٠٠ دولار كانت النسبة ٨٩٪ للبيض و ١٠٪ للسود ، وبين أصحاب الدخول التى تبلغ من ٢٠٠٠ الى ٣٠٠٠ دولار كانت النسبة ٩٢٪ للبيض و ٧٪ للسود . أما فى المجموعة الكبيرة التى يزيد دخلها على ٣٠٠٠ دولار فكانت النسبة ٩٧٪ للبيض و ٣٪ للسود . فاذا درسنا هذه الأرقام ، يجب أن نذكر أن عدد الزنوج لا يزيد على $\frac{١}{١٠}$ من مجموع السكان ، ولذا

يجب تخفيض هذه النسب الى ١٠٪ حتى تفهم على حقيقتها . ولا شك أن هذه البيانات تكشف، عن نقص كبير فى عـدد الزنوج المنتمين الى الوحدات الغنية ، ووفرة عددهم فى الوحدات الفقيرة . ولكنى أسائل اذا كان القراء يشعرون بما شعرت به من الدهشة عند رؤية هذه الأرقام لأول مرة ، اذ أن ازدحام الزنوج فى الطبقات الدنيا لم يكن أشد من ذلك بكثير . ويظهر أن انتقال الزنوج من فلاحة الأرض الى العمل فى الصناعة ، ومن الجنوب الى بقية أنحاء البلاد ، بالاضـافة الى تغير الرأى العـام بالنسبة اليهم ، قد ساعد على تخفيف الحالة المؤلمة التى وصفها ميردال والتى سبقت الاشارة اليها .

ولقد كانت هناك أدلة مشجعة أخرى على تحسن الحالة ، فبعد أن كانت الأمية بين الزنوج منذ خمسين سنة تبلغ ½ ٤٤٪ من مجموعهم ، هبطت الى ١١٪ ، كما ارتفع متوسط طول العمر بينهم فى هذه الفترة بنحو ٣٦ سنة ، وكادت تتوقف الاعتداءات الوحشـية Lynching على المتهمين منهم ، وهى الاعتداءات التى كانت معينـا لا ينضب للدعاية الشيوعية فى كل أنحاء العالم ، ففى جميع أنحاء الولايات المتحدة سجل اعتداء واحد فى سنة ١٩٤٥ ، وستة فى سنة ١٩٤٦ ، وواحد فى سنة ١٩٤٧ ، واثنين فى سنة ١٩٤٨ ، (وكان أحد الضحايا من البيـض) وثلاثة فى سنة ١٩٤٩ ، واثنين فى سنة ١٩٥٠ (وكان أحدهم من البيض) . ولايستطيع الانسان أن يجد مرضا نادرا أو نوعا من الحوادث غير العادية فى دولة يزيد سكانها على ١٥٠ مليون نسمة ، ومع ذلك لا تزيد نسـبة الوفيات الناتجة عنه على هذه النسبة .

وما كاد القرن الحالى ينتصف حتى بلغ عدد الطلاب من الزنوج فى الجامعات والكليات الأمريكية ٩٤ ألفا ، ولقد أبلغتنى سيدة زنجية كانت تقوم بعمل أستاذ بالتبادل فى فرنسا ، انها كانت مضطرة لأن توضح على الدوام للمستمعين الفرنسيين ، أن هناك عددا كبيرا من الأفراد أمثالها ، الذين يشتغلون باحدى المهن المحترمة دون شعور بأنهم تابعون لطبقة

معينة ، وكانت تجيب بالايجاب عندما تسأل : « هل يسمح لك بالسيرعلى أرصفة الطرق فى واشنطون ؟ » . وكذلك بدأ عدد الزنوج من رجال البوليس يتكاثر من المدن الجنوبية ، وكثيرا ما يلقون القبض على من يخالف القانون من البيض . وهناك أيضا حدث له مغزاه وهو انتخاب زنجي لعضوية مجلس بلدية ريتشموند بولاية فرجينيا . والواقع أن هناك أدلة قوية على تحسن الحالة الاجتماعية للزنوج الى درجة تفوق كثيرا ما يتصوره أغلب الأمريكيين أنفسهم ، وأغلب الأوربيين الذين ما زالوا متأثرين رغم ارادتهم بالدعاية الشيوعية ، أو بكتابة الثائرين فيما مضى على التعصب الجنسى فى الولايات المتحدة :

غير أن الأمل ليس كبيرا فى أن تحل هذه المشكلة الأمريكية الكبرى حلا مرضيا دون أن تحدث اصطدامات واحتكاكات كثيرة ، فان الوئام والتفاهم بين الجنسين ما زالا بعيدين عن الحقيقة ، ومع ذلك فان الاختلاف بين وجهات النظر حول هذه المشكلة قد تحول الى وضع أقل اجحافا بالزنوج مما كان عليه . وقد أوضح ذلك الزعيم الزنجى والتر هوايت Walter White عندما كتب فى صيف سنة ١٩٥١ بأن أمريكا فى سبيل ازالة أبشع بقعة فى صفحة حياتها الديمقراطية ، وأن تقدمها نحو هذه الغاية « بطىء الى درجة مؤلمة ولكنه تقدم على كل حال » .

الفصل الثالث عشر

السرعة دائماً

كتب هنرى أدامز أثناء اقامته فى باريس سنة ١٩٠٤ مبديا دهشته مما كان يسجله سنويا استخدام البخار والقوة الكهربائية وكشف النشاط الاشعاعى من تقدم سريع ، ثم ابتدع ما أسماه « قانون التزايد فى الاسراع » اذ لاحظ أن القوة التى يتحكم فيها الانسان آخذة فى الازدياد المطرد ، « ففيما بين سنتى ١٨٤٠ و ١٩٠٠ تضاعف انتاج الفحم فى العالم كل عشر سنوات ، وزادت القوة المستخرجة من طن الفحم فى سنة ١٩٠٠ ثلاثة أو أربعة أمثال ما كانت عليه سنة ١٨٤٠ » . وتنبأ الكاتب بمستقبل عجيب عندما تتزايد القوى التى يتحكم فيها الانسان حتى يصبح « الأمريكى الجديد — ذلك الطفل الذى يسيطر على قوى لايمكن التكهن بمعرفة مداها ، ومصدرها الفحم والمواد الكيماوية والكهرباء والاشعاع ، فضلا عن قوى أخرى ما تزال خافية — أشبه بنوع من الآلهة ، اذا قيس بغيره من المخلوقات » .

واستطرد أدامز يقول — على ضوء ماحدث من تقدم منذ سنة ١٨٠٠ — « ان الأمريكى الذى يعيش فى سنة ٢٠٠٠ سوف يتحكم فى قوة لانهاية لها ، وسوف يعالج مشاكل كانت مستعصية على المجتمعات السابقة ، وسوف ينظر الى القرن التاسع عشر نظرته الى القرن الرابع — على أنهما من عهود الطفولة — وسوف يعجب كيف استطاع الانسان فيهما أن ينتج كل ما أنتجه رغم قلة معلوماته وضعف قوته » .

ولا شك أن من يشاهد التقدم المادى العظيم الذى شهدته أمريكا

فى منتصف القرن الحالى ، ومن يمعن التفكير فيما يشاهد ، سوف يشعر بنفس الدهشة التى شعر بها أدامز فى سنة ١٩٠٤ ، ذلك لأن استخدام القوة الطبيعية وتوظيفها لخدمة الحياة الأمريكية قفز بسرعة هائلة منذ ذلك العهد ، وما زال مسرعا فى تقدمه اسراعا شديدا ، يتبين منه أننا مقبلون على قفزات جديدة لن يطول انتظارنا لها .

وقد لاحظنا فى الفصل الحادى عشر ، كيف أدى قيام الحرب العالمية الثانية الى انطلاق الصناعة الأمريكية بقوة انتاجية غير منظورة ، وكيف أن المشرفين على الصناعة استجابوا الى ما طلب منهم انتاجه بكميات كبيرة وسرعة فائقة ، دون الاهتمام بالنفقات أو بأى اعتبار آخر ، فانطلقوا فى دفعة من النشاط أدهشت العالم . ولكنا اكتفينا باشارة عابرة لما سببته تلك الحرب من تشجيع الاختراع وتغيير الأساليب الصناعية والفنية .

ولا ريب أن المثل الأعلى لذلك التشجيع والتغيير هو أن الحكومة بعد كشف تهشيم الذرة سنة ١٩٣٩ والتأكد من ذلك بتجارب أمريكية فى سنة ١٩٤٠ ، قامت بتحقيق مشروع مانهاتن Manhattan Project وهو المشروع الذى استنفد بلايين الدولارات ، واستخدم فى أقل من خمس سنوات الأبحاث والأعمال الهندسية والتجارب الصناعية التى كانت تستلزم فى العادة جيلا على الأقل لتحقيقها ، غير أن هذا لا يخرج عن كونه مثلا من أمثلة كثيرة .

ولقد ساعد قيام الحرب على أن يجتمع فى أمريكا بدرجة لم يسبق لها مثيل الأخصائيون فى العلوم النظرية والتطبيقية ، والاداريون من رجال الصناعة وضباط الجيش وكبار موظفى الحكومة ، وعلى أن يرتبطوا بأوثق الروابط فى العمل ، مما ساعد على تحقيق التفاهم التام بينهم . ولذا أصبح عالم الطبيعة أو الكيمياء الذى كان يعيش منعزلا فى معمله فى الجامعة ، وكان يباهى بأنه لا يقيم وزنا لاحتمالات التطبيق العملى لأبحاثه ، يجد نفسه مضطرا للعمل السرى السريع فى انتاج أخطر الأسلحة وأشدها فتكا ، ويدفع به الى واشنطن لتبادل

الرأى مع قواد الجيش وأمراء البحر وكبار الموظفين والمهندسين وأصحاب الصناعات . كما أن كل هؤلاء قد شعروا باحترام جديد لتعمقه فى علمه وبحثه ، وهو التعمق الذى أصبح فى لحظة قصيرة ذا أهمية حيوية عظيمة.
وقد أثير التساؤل عما اذا كان هذا الاتجاه الجديد قد خدش البحث العلمى الأكاديمى فى أهم خصائصه ، وهى كونه بحثا مجردا عن كل غاية، وعما اذا كان توجيه المواهب العلمية الى تنفيذ مشروعات معينة حتى بعد سنة ١٩٤٥ ، قد سبب ابطاء فى تقدم الأبحاث العلمية النظرية . غير أنه مما لا شك فيه أن ماحدث خلال الحرب من تبادل فى الرأى والخبرة بين الاخصائيين ، قد عاد بالفائدة الكبيرة عليهم جميعا وجعل العلوم والفنون الأمريكية تتقدم تقدما كبيرا فى هذه الفترة .

— ٢ —

ولقد أدى الرخاء الذى سببته الحرب الى تقدم الصناعة الأمريكية فى هذه الأثناء وتحويلها الى اتجاه جديد ، فان رنين النقود فى جيوب عدد لا يحصى من الأمريكيين العاديين حملهم على شراء مختلف الآلات ، وكان اقبالهم على الشراء أشد ما يمكن بعد اعلان النصر على اليابان .

ولقد حاول كل الناس فى البداية الحصول على سيارات جديدة ، نظرا لأنها كانت غير متوافرة فى أثناء الحرب ، ولكن صناعة السيارات لم تتمكن من اجابة جميع الطلبات الا بعد عدة سنوات ، وعندما تم ذلك بيع أكثر من ثمانية ملايين سيارة فى سنة ١٩٥٠ وحدها ، وهذا عدد يزيد على مجموع السيارات الموجودة بالولايات المتحدة كلها فى نهاية الحرب العالمية الأولى .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، ففى هذه السنوات التى تلت الحرب اقتنى المزارع جرارة جديدة وآلة لجمع الذرة ، وآلة كهربائية لحلب الماشية ، حتى اجتمع لديه ولدى جيرانه عدد ضخم من الآلات الزراعية، يشتركون فى الانتفاع به ، كما أن زوجة المزارع تمكنت أخيرا من اقتناء

الثلاجة الكهربائية الناصعة البياض التى طالما تاقت الى اقتنائها ، ولكن الأزمة الاقتصادية حالت دون ذلك ، كما أنها اقتنت آلة حديثة لغسل الملابس وآلة أخرى للتبريد الشديد . أما الأسرة التى تعيش فى الضواحى فقد اقتنت آلة لغسل الأوانى وآلة ميكانيكية لقص الأعشاب فى الحديقة. واشترت الأسرة المقيمة فى المدينة آلة للتلفزيون لوضعها فى حجرة الاستقبال ، كما اقتنى الزوج آلة لتكييف الهواء فى حجرة مكتبه . ولم تكن كل هذه الآلات التى تستخدم فى المصالح أو المساكن جديدة فى فكرتها ، اذ كانت موجودة فى الأسواق ومستعملة منذ زمن طويل ، غير أن الذى جد فى الأمر هو أن الرخاء قد زاد من الطلب على هذه الآلات واستخدامها فى نطاق واسع . وكذلك حدث تقدم كبير فى استخدام الكهرباء فى المزارع الأمريكية ، فبينما كانت نسبة المزارع المستخدمة للكهرباء سنة ١٩٣٥ حوالى ١٠٪ بلغت تلك النسبة فى سنة ١٩٥٠ أكثر من ٨٥٪ .

ولقد لاحظ فى منتصف القرن الحالى أحد العائدين بعد غيبة طويلة الى مدينة فايتفيل Fayetteville أن أهم ما لفت نظره كان هو استخدام الكهرباء فى الغالبية العظمى من مساكن المزارعين فى المنطقة ، ذلك لأن استخدام الكهرباء على هذا النحو كان أمرا نادرا فى أيام صباه . كما أن بعثة الانتاج البريطانية التى ذهبت الى أمريكا فى سنة ١٩٥٠ لدراسة أساليب الزراعة فيها قامت بزيارة عدد كبير من المزارع الواقعة فيما بين ولايتى نيوجرسى ونبراسكا ، وركزت اهتمامها فى المزارع الصغيرة التى يشرف عليها المزارع وأسرته وعامل أجير فى بعض الأحيان ، بدلا من المزارع التى تلفت النظر باتساعها وكثرة استخدامها للآلات . وقد لاحظت البعثة التوسع العظيم فى استخدام الآلات الزراعية وبخاصة المحاريث البخارية والزحافات ذات الاسطوانات المستديرة ، وآلات زراعة الذرة وحصادها وآلات الحصاد المتعددة الوظائف ، وآلات حلب الألبان وآلات التفريغ الأوتوماتيكية .. الخ . كما أن العمل فى المزارع كان منظما على أساس

الاستفادة المتزايدة من تلك الآلات ، لأن المزارع أصبح لا ينظر للآلة على اعتبار انها بديل عن الانسان أو الحيوان ، بسبب دقتها وسرعتها وعدم شعورها بالتعب ، بل على اعتبار كونها وسيلة لتمكينه من القيام بعمله بطريقة جديدة مثمرة .

ولا عجب اذن أن نقص عدد العمال الريفيين فى العقد التالى لسنة ١٩٤٠ من ٩ ½ مليون الى حوالى ٨ ملايين ، فى الوقت الذى زاد فيه الانتاج الزراعى بمقدار ٢٥٪ ، وكان ذلك راجعا الى اتساع الطلب على الغلات الزراعية بسبب الرخاء فى الداخل وكثرة الطلب على المأكولات فى الخارج ، كما كان راجعا الى أن المزارعين — كبقية الأمريكيين — أخذوا فى استخدام مختلف الآلات سواء أكانت جديدة أم قديمة لمعاونتهم فى حياتهم اليومية .

— ٣ —

ولقد أدى الارتفاع المستمر فى مستوى أجور العمال فى المصانع الأمريكية الى البحث الدائب عن وسائل الانتاج التى تساعد على تقليل الحاجة الى الأيدى العاملة . واتخذت هذه الوسائل أنواعا لاعداد لها ، وكان بعضها تطبيقا لبعض المبادىء البسيطة التى لاتحتاج الى تعمق كبير ، على حين كان البعض الآخر يطبق المبادىء العلمية العويصة ، والأساليب الصناعية التى كانت على جانب كبير من التعقيد .

وهناك عدد كبير من الآلات البسيطة فى فكرتها وتركيبها ، التى تستخدم لتقليل الأيدى العاملة — كالآلات الرافعة « ونش » والآلات الناقلة (سواء بالجاذبية أو الانزلاق على عجلات أو بواسطة السيور المتحركة) وآلات الالتقاط البخارية التى تلتقط الأحمال الثقيلة ، والآلات اليدوية التى يحركها البخار أو الكهرباء ، واستخدام الهواء المضغوط فى التنظيف .. الخ . ولعل من أبرع الأمثلة على ذلك ، من حيث البساطة والفائدة ، هى سيارة الالتقاط والحمل ، وهى

عبارة عن سيارة صغيرة متينة ، مزودة بما يشبه اصبعين ضخمتين من المعدن ، تستطيع بهما أن تلتقط البضائع وترفعها وتنقلها من مكان الى آخر ، أما عملية الرفع فهى عبارة عن صينية مزدوجة القاع ، تستخدم فى نقل كميات من البضائع المتكدسة فوقها بطريقة نظامية ، وتستطيع هذه السيارة أن تدفع بأصبعيها المعدنيتين بين البضائع المكدسة على الصينية ، فترفع منها ما يراد رفعها ، وتنقلها الى المكان المعين لهـا فى المصنع ، وتضعها باحتراس فى ذلك المكان ، ثم ينسحب الأصبعان ليعودا الى نقل حمولة أخرى ، وهذه عملية بسيطة لا تعقيد فيها ، ولكن الذين يعرفون المجهود المضنى الذى يستلزمه تفريغ سيارة البضائع الواقفة الى جانب أحد أرصفة المدينة — ذلك المجهود الذى يشغل رجلا ليخرج البضائع من السيارة وآخر ليحملها الى الداخل وثالثا لينقلها الى المكان المعد لها — يستطيعون أن يقدروا ما قامت به سيارة الالتقاط والحمل من توفير كثير من مجهودات الانسان المضنية .

واذا كان فى مقدور الرجل العادى أن يفهم المبدأ الأساسى الذى قامت عليه سيارات الالتقاط ، فانه يقف متعجبا أمام النظام المعقد للآلات الألكترونية ، التى اتسع استخدامها فيما بين سنتى ١٩٣٥و١٩٥٠ — كالآلات الخاصة بقياس الطول بدقة ميكروسكوبية ، أو الآلات التى تلاحظ سير آلات أخرى وتصلح ما فيها من عيوب أثناء سيرها بطريقة تلقائية (أوتوماتيكية) . وقد أصبح المهندسون يتحدثون بلغة لا يستطيع أن يفهمها الرجل العادى ، فما بالنا بالأساليب الصناعية التى ينتجونها ، ومع ذلك فان فى استطاعة الرجل العادى أن يقدر المعجزات التى أصبحت تلك الأساليب قادرة على تحقيقها ، فانها تفحص وتحصى البضائع الواردة من خط التجميع وتفرزها بدقة عجيبة ، ثم تخرج مالا يتفق مع المواصفات ، كما أنها تفحص بنفس الدقة سـمك الألواح المصـنوعة من الصلب ، وتكتشف العيوب الخفية فى بعضها ، وتستطيع أن تلاحظ بعين تفوق العين البشرية فى ابصارها سير آلة من الآلات ، وتوقف الآلة وتعيـد

سيرها وتحدد سرعتها وفق مشاهداتها . فاذا كانت المبادىء العلمية التى أدت الى اختراع هذه الآلات أعمق من أن يتفهمها الرجل العادى ، فان مغزى هذه الآلات لا يتعذر فهمه ، فقد أصبح من الممكن الاستغناء عن الصناع الماهرين الذين كانوا يشرفون على دقائق سير الآلات ، بعد أن أصبحت الآلة نفسها تحتوى على عيون أشد ابصارا وأقوى ملاحظة من عيون الانسان ، ولذا كان من أغرب ما يشاهد فى المصانع الحديثة فى الوقت الحاضر كثرة الآلات وشدة تعقدها وقيامها بعملها دون اشراف أى انسان .

وقد كانت النتيجة الأولى لاستخدام هذه الآلات الكثيرة المتنوعة تناقص الطلب على العمال غير الماهرين ، ففى سنة ١٩٠٠ كان عددهم فى الولايات المتحدة حوالى ١١ مليونا (بما فى ذلك العمال الزراعيون) ولكن هذا العدد أصبح أقل من ٦ ملايين فى سنة ١٩٥٠ . ومن جهة أخرى زاد الطلب زيادة عظيمة على المهندسين والميكانيكيين الماهرين . وقد كتب كونانت Conant رئيس جامعة هارفارد : « انه فى بداية القرن الحالى لم تكن صناعة الهندسة الكيماوية مهنة كبيرة ، أما اليوم (أى فى سنة ١٩٥١) فان هناك نقصا كبيرا فى المهندسين الكيمائيين ، رغم أن الجامعات قد خرجت منهم أكثر من ١٥٫٠٠٠ فى السنوات الخمس الأخيرة» . أما المهندسون بوجه عام فقد زاد عددهم من نحو ٤٠٫٠٠٠ سنة ١٩٠٠ الى حوالى ٤٠٠٫٠٠٠ سنة ١٩٥٠ ، ومع ذلك فما زال الطلب شديدا عليهم.

وقد أشار الاقتصادى كولين كلارك Colin Clark الى أن تقدم المدنية الصناعية يستتبع تحول الناس من الزراعة الى الصناعة ، ثم انتقالهم من الصناعة الى ما أسماه « الخدمات الأخرى » — ويقصد بذلك التجارة والنقل والملاهى والمهن الحرة .. الخ . ولا شك أن هذه الظاهرة تنطبق تماما على ما حدث فى الولايات المتحدة ، فمنذ سنة ١٩٠٠ هبط عدد المشتغلين بالزراعة هبوطا كبيرا وبقيت نسبة المشتغلين بالصناعة فى مجموعها دون تغير يذكر ، بينما زادت نسبة المشتغلين «بالخدمات» زيادة

واضحة ، أى أنه فى منتصف القرن الحالى تناقص عدد الأفراد المشتغلين بأيديهم بينما زاد عدد المشتغلين فى المكاتب ، ولذا كان النقص ظاهرا بين المشتغلين بعضلاتهم والذين يحتاجون الى درجة محددة من التعليم، أما الزيادة فكانت بين المشتغلين بعقولهم والذين يحتاجون الى نصيب كبير من التعليم .

ومع ذلك فما زال هناك عدد كبير فى الولايات المتحدة من المصانع المتأخرة ، حيث تكثر الأعمال المضنية والمملة ، بل ان أكثر المصانع استخداما للآلات الأوتوماتيكية ما تزال تفتقر الى عمال الصيانة والنظافة ، لأن تلك الأعمال لم تتأثر كثيرا بالنزعة الجديدة نحو استخدام الآلات بدلا من الانسان ، ولذا كان أولئك العمال يؤلفون نوعا جديدا من البلوريتاريا فى عصر الآلات . ولكن مما لاشك فيه أن الاتجاه العام يسير نحو زيادة كرامة العمل والعمال .

— ٤ —

وقد استمر الباحثون والمتخصصون فى العلوم النظرية والتطبيقية يشقون الطريق كطلائع لجيش كبير من المشتغلين بالصناعة . فمنذ أكثر من جيل أحدث الكيماويون تغييرات عديدة فيما سبقت الاشارة اليه فى هذا الكتاب من أن الخامات المنتجة صناعيا ليست مجرد تقليد للخامات الطبيعية ، بل انها خير مما تنتجه الطبيعة . فعقب بداية الحرب العالمية الثانية — أى فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٣٩ على وجه التحديد — أنتج أولئك العلماء المثل الحى لهذه الفكرة عندما عرضت جوارب النيلون للبيع لأول مرة ، كما نجح الباحثون فى تعديل آلة الديزل ، التى ظلت احتمالاتها مهملة مدة طويلة ، وأصبحت الآن تستخدم استخداما واسعا فى الصناعة والسكك الحديدية ، وأنتجوا نوعا جديدا من البنزين high-octane ليكون مولدا كبيرا للقوة فى الطائرات ، ونهضوا بصناعة المطاط الصناعى وجعلوا منه سلعة عظيمة القيمة لدولة تتوقف

حياتها على استخدام العجلات ، بدلا من أن يكون مجرد سلعة نضب موردها الطبيعي واشتدت الحاجة اليها خلال الحرب ، واكتشفوا طريقة استخدام مادة Tungsten Carbid فى قطع المعادن وصنع الآلات ، كما أنهم خدموا مهنة الطب خدمات كبرى باكتشاف مضادات الحيويات Antibiotics وكان اكتشافها رحمة كبيرة بالانسانية .

أما عن القوة الذرية — وهى التى تعتبر أخطر وأشهر ما أنتجه أولئك العلماء — فقد سبق لنا أن أوضحنا ما تستطيع القيام به من فتك ذريع . أما نتائجها المفيدة للانسانية ، فانها ما زالت غير مؤكدة نظرا لفداحة نفقات انتاجها ، ولكنها نتائج قد تحقق مع الزمن ما تنبأ به آدمز Adams من أن الانسان سوف يصبح « طفلا متحكما » فى قوات لاحد لامكانياتها .

وهناك أدلة عديدة على ما أحدثه هذا التطور العلمى من نتائج عظيمة الأهمية فى مختلف نواحى الصناعة الأمريكية ، فمن أمثلة ذلك ما أشار اليه أحد الموظفين فى شركة كورننج Corning لصناعة الزجاج من أن ٥٠٪ من مبيعات الشركة كانت سلعا لايمكن انتاجها تجاريا منذ عشر سنوات . ولقد كانت السنوات التالية لعام ١٩٤٠ هى العصر الذهبى للكيمائيين والمهندسين الكيمائيين، ولنأخذ مثلا صناعة البترول التى اكتشفت، وفق ما قال كارول ولسن : « ان هناك ما هو أهم من الوقود فى برميل من البترول الخام » . ومنذ سنة ١٩٤٢ بدىء فى انشاء مصانع كيماوية معدة لتدفق البترول المستمر بطريقة تفوق أبعد أحلام الكاتب هـ . ج . ولز H.G.Wells ، ففى هذه المصانع الغريبة الشكل التى تكثر فيها الأبراج اللامعة المتشعبة ، والتى تحتوى على شبكات دقيقة من الأنابيب الزاهية الألوان ، تمر المادة الخام بشكل سائلى أو غازى مرورا مستمرا من طرف الى طرف الآلة ، وتتعرض الى عمليات تحليلية معقدة حتى تخرج من الطرف الآخر كسيل من المنتجات لا ينقطع خلال أربع وعشرين ساعة ، حسب تعبير محررى مجلة

« فورتشن » اذ قالوا فى العدد الخاص لسنة ١٩٥١ والمسمى «الولايات المتحدة أو الثورة الدائمة » : ما أكثر تنوع هذه السلع التى تنتجها هذه المصانع ، فمن مواد مستخدمة لزيادة خصوبة الأرض ، الى تلك التى تنظف الأوانى والملابس ، ومن المواد الخاصة بالتجميل الى مواد خاصة بالتبريد ، ومن المطاط الصناعى الى الحبر المستخدم فى الطباعة .

على أن علماء الطبيعة قد يكونون فى المستقبل أفضل من علماء الكيمياء وأقدر منهم على القيام بالاكتشافات الخطيرة . وقد يتحقق ذلك بوساطة التعاون بينهم وبين علماء الكيمياء والرياضة وعلم الحياة . ففى سنة ١٩٤٨ أنتجت الكيمياء مادة كورتيزون Cortizone التى هزت النظريات الطبية وكانت نعمة سابغة على المعذبين ، وفى نفس السنة اكتشف علماء الطبيعة آلة Transistor وهى آلة صغيرة ينتظر أن تحل محل الأنبوبة المفرغة من الهواء . ولم ينتصف القرن الحالى حتى أثمرت أبحاث مختلفة عن انتاج مادة «كريليام» وهى مادة تحول التربة الأرضية بحيث تصبح على درجة من الخصب لا يعرف مداها حتى الآن . وفضلا عن ذلك فهناك عدد من الأفراد الذين لايمكن اتهامهم بالنزوع الى الخيال والذين يؤمنون بأن تعاون علماء الطبيعة والكيمياء وعلم الحياة ، سيقرب ساعة تحقيق معجزة تكوين الغذاء من الضوء مباشرة كما تفعل النباتات.

ولعل هنرى آدامز لم يكن بعيدا عن الصواب عندما تنبأ « بأن الأمريكى الذى يعيش فى سنة ٢٠٠٠ سوف يكون قادرا على التحكم فى قوى لاحد لها » ، فالواقع أن التقدم كان آخذا فى السير بسرعة كبيرة فى منتصف هذا القرن .

الفصل الرابع عشر

زيادة فى عدد الأمريكيين وفى متوسط أعمارهم

اشترك عدد من علماء الاجتماع فى اخراج بحث ضخم عن الحياة الأمريكية تحت عنوان «تغيرات اجتماعية حديثة» ، وقد أوضحوا فى هذا الكتاب الذى صدر سنة ١٩٣٢ بعض تقديرات دقيقة عن الزيادة المنتظرة فى سكان البلاد فى المستقبل . ونظرا الى أن مستوى الزيادة كان آخذا فى الابطاء وقتئذ فقد رأوا أن « استمرار الاتجاهات الراهنة » سوف يصل بسكان الولايات المتحدة فى سنة ١٩٤٠ الى حوالى ١٣٢ أو ١٣٣ مليون نسمة . وقد أثبتت الحوادث أنهم لم يكونوا بعيدين عن الصواب اذ أظهر احصاء سنة ١٩٤٠ أن مجموع السكان الفعلى كان ١٣١٫٦٦٩٫٢٧٥ ، ولكن التوفيق خانهم فيما قدروه بالنسبة الى مجموع السكان فى سنة ١٩٥٠ ، اذ كان فى رأيهم يتراوح بين ١٤٠ و ١٤٥ مليون نسمة ، واتضح أن الرقم الحقيقى فى تلك السنة كان ١٥٠٫٦٩٧٫٣٦١ نسمة ، أى ما يزيد على أكبر تقدير لهم بخمسة ملايين نسمة .

وكان السبب الرئيسى لهذه الزيادة هو الارتفاع الكبير فى متوسط المواليد فى العقد الذى بدأ سنة ١٩٤٠ . واذا كان بعض الناس يفسرون ذلك بالاشارة الى « الحرب والرخاء » فانه يعتبر تفسيرا مبالغا فى البساطة ، ذلك لأن الحرب العالمية الأولى لم تكن سببا فى مثل هذه الزيادة ، كما أن نسبة المواليد لم ترتفع أثناء فترة الرخاء التى جاءت عقب الحرب مباشرة ، اذ الواقع أنها هبطت بعض الشىء فى ذلك الوقت .

وعلى كل فان نسبة المواليد التى كانت فى هبوط تدريجى ، بلغت

فيما بين سنتى ١٩٣٠ و ١٩٤٠ نحو ١٨ فى الألف من السكان ، ثم ارتفعت سنة١٩٤٢ الى ٢٠٫٩،وسنة ١٩٤٣ الى ٢١٫٥،ثم هبطت قليلا سنة١٩٤٤ الى ٢٠٫٢،وفى سنة ١٩٤٥ الى١٩٫٦ (عندما كان عدة ملايين من الرجال يقومون بالأعمال الحربية فى خارج البلاد) ، ثم عادت نسبة المواليد الى الارتفاع السريع حتى بلغت سنة ١٩٤٦ ٢٣٫٣ ، وسنة ١٩٤٧ ٢٥٫٨ وبعد ذلك هبطت تدريجا الى ٢٤٫٢ سنة ١٩٤٨ ، و ٢٤٫١ سنة ١٩٤٩ ، و ٢٣٫٥ سنة ١٩٥٠ .

ولا شك أن هذا يقرب الى أذهاننا ما أحدثته الحرب من خسائر جسيمة وقلقلة كبيرة فى حياة الناس . فلقد جاءت الحرب فى الوقت الذى أخذ فيه كثير من المتعلمين يميلون الى القنوط واليأس بسبب كثرة مخاطر الحياة ، وعجز الأفراد عن الخلاص من مخالب القدر ، وضعف الرجاء فى فائدة أى مجهود بشرى . غير أن زيادة نسبة المواليد تحمل على الظن بأن السكان فى مجموعهم بدءوا ينظرون نظرة أكثر تفاؤلا الى المستقبل ، ولكن هل استرد نظام الأسرة حياة جديدة فى الولايات المتحدة بعد أن كان مهددا بالانحلال ؟ قد يبدو هذا السؤال غريبا اذا تذكرنا أن الزيادة فى نسبة الزواج بلغت ذروتها فى سنة ١٩٤٦ بعد انخفاضها ابان الأزمة الاقتصادية الكبرى ، وكانت مصحوبة فى نفس الوقت بزيادة فى نسبة الطلاق ، ولعل هذه الزيادة فى الطلاق كانت راجعة الى تنبه الأزواج الى خطئهم بعد تسرعهم فى عقد الزواج خلال فترة الحرب . وقد استمر متوسط الطلاق بعد سنة ١٩٤٠ أعلى من متوسطه قبل الحرب ، اذ كانت النسبة ٠٫٧ فى الألف من السكان سنة ١٩٠٠ ، و ٠٫٩ سنة ١٩١٠،و١٫٦ سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٣٠ ، و ٤٫٣ سنة ١٩٤٦ ، و ٢٫٦ سنة ١٩٤٩ . غير أن ذلك قد يعزى الى ضعف العقيدة بأن الزواج يجب أن يبقى دون انفصام ولكنه لا يعنى الانصراف عن الزواج نفسه .

ويستخلص من هذه الأرقام أيضا أن الشباب الأمريكى فيما بعد سنة ١٩٤٠ كان ينظر الى الزواج والى تكوين الأسرة نظرة أكثر أملا

وأقل ازدراء أو تحفظا من نظرة الشباب لهذه المسائل فى السنوات السابقة .

— ٢ —

وهناك سبب آخر للزيادة الكبيرة فى عدد السكان فى العقد الرابع من القرن الحالى ألا وهو نقص عدد الوفيات نقصا واضحا ، فان الأفراد فى مجموعهم لم ينعموا بصحة طيبة كتلك التى نعموا بها فى ذلك العهد .

والواقع أن التقدم الذى تحقق فى هذه الناحية منذ سنة ١٩٠٠ لما يسترعى النظر ، اذ هبط متوسط الوفيات هبوطا ملحوظا وبخاصة فيما يتعلق بالوفيات الناتجة عن الأمراض التى كانت تسبب هلعا فى النفوس فى سنة ١٩٠٠ ، فبعد أن كانت الوفيات الناشئة عن الانفلونزا ومرض ذات الرئة ١٨١٫٥ فى المائة ألف من السكان سنة ١٩٠٠ ، هبطت الى ٣٨٫٧ سنة ١٩٤٨ ، وكذلك هبطت الوفيات الناجمة عن السل من ٢٠١٫٩ الى ٣٠ والناجمة عن التيفود والباراتيفود من ٣٦ الى ٠٫٢ ، والناجمة عن الدفتريا من ٤٣٫٣ الى ٠٫٤ ، والناجمة عن الحمى القرمزية من ١١٫٤ الى أقل من ٠٫١ — وهذا الرقم الأخير معناه أن الوفيات فى كل أنحاء الولايات المتحدة الناتجة عن الحمى القرمزية لم تزد على ٦٨ وفاة فى سنة ١٩٤٨ .

وعلى الرغم من أن النقص فى نسبة الوفيات الناجمة عن هذه الأمراض كان مصحوبا بزيادة فى نسبة الوفيات الناجمة عن أمراض أخرى وبخاصة أمراض القلب والسرطان ، فان النتيجة النهائية لكل ذلك كانت زيادة عجيبة فى متوسط أعمار السكان فيما بين سنة ١٩٠٠ و ١٩٥٠ . اذ ارتفعت هذه النسبة من ٤٩ سنة الى ٦٨ سنة !

فالى أى أمر تعزى هذه المعجزة ؟ لاشك أنها ترجع من جهة الى الارتباط الوثيق بين التقدم فى العلوم الطبية والتدريب والمرانة الطبية والنظافة والتشريعات الخاصة بوقاية الصحة العامة، والى زيادة أدراك الشعب للمبادىء الصحية الأساسية من جهة أخرى . والواقع أن المعلومات الطبية

زادت زيادة كبيرة فيما يتعلق بعلاج كثير من الأمراض ، كما أن مهنة الطب استفادت فوائد عظيمة من استخدام بعض الأدوية الناجعة ذات المفعول السريع مثل السلفاناميد (ابتداء من سنة ١٩٣٥) والبنيسلين (الذى اكتشف سنة ١٩٢٩ ولكن لم ينتشر استعماله طبيا الا بعد سنة ١٩٤٠) والأدوية القاتلة للميكروبات Antibiotics مثل أوروما يوسين Aureomycin والدواء السحرى المعروف باسم A.C.T.H وكذلك الكورتيزون (وقد بدىء استخدامه طبيا سنة ١٩٤٨) . وقد نجحت الخدمات الخاصة بالصحة العامة كمكافحة البعوض نجاحا كبيرا فى منع انتشار الملاريا ، حتى ان حكومة ولاية مسسبى أعلنت سنة ١٩٥٠ عن مكافأة قدرها عشرة دولارات لأى طبيب يكتشف حالة جديدة للملاريا ، ولكن لم تظهر أية حالة يمكن التبليغ عنها فى ذلك العام .

ولقد نشر الجنرال سيمونز ، عميد مدرسة الصحة العامة فى جامعة هارفارد ، بيانات احصائية دقيقة لاظهار البون الشاسع الذى خلقته الخدمات الطبية للقوات المحاربة فى ذلك الوقت ، بالنسبة الى ما كانت عليه الحالة عندما شاهد الطبيب الشاب الدكتور هارفى كوشنج قطارا فى بلتيمور يحمل ضحايا التيفود فى الحرب الأمريكية الأسبانية ، وذعر مما شاهده من قذارة واهمال . وقد قال الجنرال سيمونز : « كانت نسبة الوفيات بسبب الأمراض المتفشية بين جنودنا فى الحرب الأسبانية الأمريكية حوالى ٢٥ فى الألف فى السنة ، وفى الحرب العالمية الأولى هبطت هذه النسبة الى ١٦ . أما فى الحرب العالمية الثانية ، فانها لم تزد على ٦ر٠ فى الألف فى السنة » .

وكان من نتائج ذلك النجاح المطرد فى مكافحة الأمراض المعدية فى العقد الرابع من هذا القرن أن زاد عدد الأفراد المسنين زيادة كبيرة ، كما زاد اهتمام الشعب بالمشاريع التى تنظم معاشات العجزة . وفى الوقت نفسه أدت الزيادة الكبيرة فى نسبة المواليد ابتداء من سنة ١٩٥٠ الى تفاقم ازدحام المدارس الأولية

بالطلاب ، وقد كانت مزدحمة بهم من قبل ، واتضح أن هـذه المشكلة سوف تزيد باطراد من عام الى عام . ولكل هذا كان الأمريكيون الذين تسمح سنهم بالعمل لكسب العيش يواجهون فى منتصف القرن الحالى مشكلة لم يسبق لهم أن واجهوا مثلها فى التاريخ الحديث ، اذ أصبح من واجبهم أن يعولوا عددا كبيرا من أفراد المجتمع الذين يفوقونهم أو يقلون عنهم فى السن ، ممن كانوا عاجزين عن التكسب .

— ٣ —

ولم يكن التقدم الذى نعم به الأمريكيون فى مجموعهم مقصورا على زيادة التمتع بالصحة ، بل شمل أيضا نموا واضحا فى الأجسام ، وان كان هذا النمو لا يظهر بوضوح اذا اعتمدنا على الاحصاءات الطبية الخاصة بالحربين العالميتين الأخيرتين ، فقد كان متوسط الطول للمجنـدين فى العامين الأولين من الحرب العالمية الثانية (وهو خمس أقدام وسبع بوصات ونصف بوصة) يتفق تماما مع طول المجندين فى الحرب العالمية الأولى ، وان كان متوسط وزن الرجال سنة ١٩٤١ — ١٩٤٢ أكثر منه سنة ١٩١٧ — ١٩١٨ ، أى ١٥٠ رطلا فى مقابل ١٤٢ — [١] ولـكن مثل هـــذه المقارنات لا تعطينا فكرة صحيحة عن الحالة ، لأنها تتصل برجال من بيئات مختلفة وسلالات متباينة ، أما اذا تمت المقارنة بين المجموعات التى يصح المقارنة بينها من حيث ارتفاع مستوى الثروة وقدم الأصل الأمريكى ، فانها تبين زيادة واضحة فى حجم الأجسام . فطلبة جامعة هارفارد مثلا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر (أى بعد سنة ١٨٧٠) كان متوسط طولهم ٥ أقدام و ١٢ر٨ بوصات ، ومتوسط وزنهم ٤ر١٣٨ رطلا ، أما فى العقدين الثانى والثالث من القرن الحالى فقد كان متوسط طول الطلبة فى جامعة هارفارد

---

(١) كان المقيدون فى المكاتب المحلية تمهيداً لانضمامهم إلى القوات المحاربة سنة ١٩٤١ — ١٩٤٢ أكثر طـولا ووزناً من هؤلاء ، إذ بلغ متوسط الطول ٥ أقدام ١ر٨ بوصات ومتوسط الوزن ١٥٢ رطلا .

٥ أقدام و ١٤ر١٠ بوصات ومتوسط وزنهم ١٤٩٫٠٥ رطلا ، وكانت هذه الظاهرة نفسها واضحة بالنسبة للطالبات فى كلية فاسار Vassar فقد كان متوسط طولهن فى سنة ١٨٨٥ ٥ أقدام و ٣٫١ بوصات وفى سنة ١٩٤٠ ٥ أقدام و ٥٫١ بوصات ، كما كان وزنهن ١١٥٫٧ رطلا فى مقابل ١٢٦ رطلا .

وقد دلت احصاءات السكان فى منتصف القرن الحالى على كثرة هجرتهم الى الغرب ، وبخاصة الى كاليفورنيا والساحل الشمالى الغربى، كما دلت على انتقال السكان المستمر من المزارع والمدن الصغرى الى المدن الكبرى التى يحتشد فيها السكان .

وأخيرا ، تبين أن عملية اختلاط السكان فى تلك البوتقة البشرية ، ألا وهى الولايات المتحدة ، قد نجحت الى حد كبير ، فمنذ أن تحددت الهجرة تحديدا شديدا فى أوائل العقد الثانى من هذا القرن ، أخذ عدد الأمريكيين المولودين فى الخارج يهبط بانتظام كلما تقدمت السن بأولئك الرجال والنساء الذين هاجروا من أوربا ابان طوفان الهجرة ثم عاجلتهم المنية واحدا اثر واحد ، ولذا قل تدريجا عدد المتكلمين باللغات الأجنبية فى المدن الأمريكية ، واكتسب أبناء المهاجرين وبناتهم العادات والتقاليد الأمريكية، حتى لم يأت الجيل الثالث الا وقد أصبح الأطفال « ينعمون بوالدين يتكلمان اللغة الانجليزية » — حسب تعبير أحد سكان نيويورك الذى انحدر من أصل ايطالى — كما كانوا لا يختلفون فى شىء عن سلالة المهاجرين الأولين على السفينة ماى فلاور ،الا أن بعض أسمائهم ظلت ذات مسحة أجنبية واضحة .

الجزء الثالث

أمريكا الجديدة

الفصل الخامس عشر

المستوى الأمريكى العام

الآن وقد وصلنا الى منتصف القرن العشرين ، فلنقف برهة لكى نستعرض الحالة العامة فى الولايات المتحدة ، ولننظر أولا الى ما حدث لتلك الهوة العميقة التى كانت تفصل بين الغنى والفقير فى تلك البلاد .

لا شك أن ما تم من تغير فى هذه الناحية لا يعتبر أمرا كبيرا اذا قيس بمقياس المال أو الدخل ، فما زالت بالبلاد مجتمعات صغيرة تشكو مرارة الفقر المدقع ، وما زال هناك ملايين من الأسرات والأفراد الذين يعيشون على حافة العوز ، سواء أكان ذلك بسبب المرض وتقدم السن ونكبات الحياة ، أم بسبب عدم كفاية المقدرة الفنية . ومثل ذلك يقال عن متوسط الثروة فانه ما زال بعيدا عن الرخاء ، ومع هذا فان ما حدث فى نصف القرن الماضى، وبخاصة منذ سنة ١٩٤٠ ، كان من الضخامة والأهمية بحيث وصفه مدير أبحاث المكتب القومى للبحوث الاقتصادية — وهو رجل أبعد ما يكون عن الاندفاع والغلو فى التعبير — بقوله : « ان ذلك من أهم الثورات الاجتماعية التى عرفها التاريخ » .

ويجب أن يحذر القارىء من تصديق الاحصاءات الخاصة بالدخل القومى للشعب الأمريكى فى الوقت الحاضر ، فان هـذه الاحصاءات لاتخرج عن كونها تقديرات تقريبية فحسب ، ومع ذلك فان احصاءاتنا اليوم تفوق بمراحل فى دقتها ما كانت عليه فى بداية القرن ، عندما لم تكن هناك ضريبة للدخل ، وعندما كان دخل أندرو كارنيجى يزيد نحـــو ٢٠٫٠٠٠ مرة على متوسط دخل العامل الأمريكى ، وعندما كانت الأحياء

الفقيرة فى المدن تعج ببؤساء المهاجرين الذين يعيشون وسط القذارة الكريهة . وقد استخرجت الأرقام الآتية من البيانات الواردة فى تقرير لجنة متفرعة من اللجنة المشتركة ، الخاصة باعداد التقرير الاقتصادى لكونجرس الولايات المتحدة ، وهذه الأرقام تتحدث عن توزيع الدخل فى سنة ١٩٤٨ وتتفق الى حد كبير مع الأرقام التى نشرت فى يناير سنة ١٩٥١ ، ضمن التقرير الذى رفعه لرئيس الجمهورية ، مجلس المستشارين الاقتصاديين ولذا يصح اعتبارها قريبة من الحقيقة .

وتوضح هذه الأرقام أنه فى السنوات الأخيرة كان نحو ٦ر١٠٪ من جميع الأسرات فى الولايات المتحدة ، يعيش على دخل يقل عن ألف دولار فى السنة ، سواء أكان الدخل للأسرة كلها أم لبعض أفرادها ، بمعنى أن نحو أسرة واحدة من كل عشر أسر كانت تعانى مشقة الحياة بسبب عدم كفاية الايراد .

وكان نحو ١٤٪ من الأسر يعيش على دخل يتراوح بين ١٠٠٠ و ٢٠٠٠ دولار — أى نحو أسرة من كل سبع أسر .

كما كان ٦ر٢٠٪ من مجموع الأسر ، أى واحدة من كل خمس ، تحصل على دخل من ٢٠٠٠ الى ٣٠٠٠ دولار ، وكانت نسبة الحاصلين على دخل يتراوح بين ٣٠٠٠ ، ٥٠٠٠ دولار أعلى كثيرا من نسبة الأسرات الحاصلة على دخول أقل ، اذ بلغت ٦ر٣٣ أى نحو ثلث جميع الأسر الأمريكية .

أما الأسرات التى تراوح دخلها من خمسة آلاف الى عشرة آلاف دولار فلم تزد نسبتها الى المجموع على ٩ر١٧٪ — أى نحو أسرة من كل سبع أسر — وبلغت نسبة الأسرات التى تعيش فى رخاء ، أى ان دخلها زاد على عشرة آلاف دولار ، نسبة صغيرة جدا وهى حوالى ٩ر٢٪ أى أسرة واحدة من كل ٣٤ أسرة .

وهناك عدد كبير من الأفراد الذين يعيشون بمفردهم بعيدين عن أسراتهم ، وقدر عددهم سنة ١٩٤٨ بنحو ثمانية ملايين ، وقد انقسم

دخلهم وفقا للنسب السابق بيانها وان كانت غالبيتهم تدخل فى دائرة أصحاب الدخول المحدودة .

ويجمل بنا أن نتريث برهة لنفحص حالة أقل هذه الفئات دخلا ألا وهى الأسر والأفراد الذين تبلغ نسبتهم الى المجموع ٦ر١٠٪ والذين يعيشون على دخل سنوى يقل عن ١٠٠٠ دولار ، فممن تتكون هذه المجموعة ؟

انها تتكون أولا من المزارعين ورجال الأعمال المشتغلين لحسابهم الخاص ، والذين ساءت حالتهم فى تلك السنة ، كأن اضطروا مثلا الى بيع المحصولات أو البضائع بخسارة . ويلاحظ أن أغلب هؤلاء الناس يملكون من المدخرات ما يساعدهم على التغلب على الصعوبات المؤقتة التى يعانونها ، ولكن عددا كبيرا منهم يتألف من فقراء الريف ، أولئك الذين يفلحون أرضا مجدبة أو مجهدة ، والمستأجرين والذين يشتغلون على أساس المشاركة فى المحصول (وكثير من هؤلاء الأخيرين يستطيعون الحصول على كفايتهم من الغذاء رغم قلة ما لديهم من مال) . ويدخل فى زمرة هذه الجماعة أيضا الأفراد المسنون الذين يعولون بعض الأسرات من دخلهم الضئيل ، أو الذين يشتغلون لحسابهم الخاص وقد يحصلون أو لا يحصلون على نصيبهم من معاشات العجزة [1] . كما يدخل فى زمرة هذه المجموعة الفقيرة أولئك الذين يعتبرون ضحايا الأسر المنكوبة ــ كالنساء اللائى فقدن أزواجهن بالطلاق أو الهجر ، واللائى يلقين صعوبة فى اكتساب عيشهن ، وهناك الأفراد العاجزون عن العمل كالمشوهين ومرضى العقول وغيرهم من أولئك الذين يعتبرون على حد تعبير أحد الكتاب « من القاصرين الذين يعتمدون على المجتمع ما داموا على

---

(١) أشار R. L. Hilbroner فى بحث له عن الفقر الأمريكى نشر فى مجلة هاربر بعدد يونيو سنة ١٩٥٠ أن أسرة من كل أربع أسر من التى تعتمد على الأفراد المسنين ، واثنين من كل ثلاثة من الرجال والنساء المسنين الذين يعيشون بمفردهم ، كانوا يعتمدون على دخل يقل عن عشرين دولارا فى الأسبوع فى سنة ١٩٤٧

قيد الحياة » . وهناك أيضا أولئك الأفراد الذين لا يصلحون لأى عمل، فهم حطام المجتمع الذين يصعب عليهم ايجاد وظيفة ، فاذا حصلوا عليها تعذر احتفاظهم بها . ومن الواجب أن نضيف الى ذلك أن الزنوج يكونون نسبة عالية من بين فقراء الريف والعجزة الذين لا عائل لهم ، وغير هؤلاء من ضحايا المجتمع .

فاذا انتقلنا الى الطبقة التالية فى الفقر، أى الى مجموعة الأسر والأفراد التى يتراوح دخلها بين ١٠٠٠ و٢٠٠٠ دولار فى السنة ، نجد منهم عددا أكبر من رجال الأعمال الذين صادفوا ظروفا عسيرة ، وعددا أكثر من الذين يفلحون الأراضى الضعيفة ، ومن المسنين والمطلقات أو اللاتى هجرهن أزواجهن ، ومن المشوهين والعمال المؤقتين . هذا فضلا عن أولئك العمال الذين لم تتمش أجورهم مع ارتفاع الأسعار ، ولذا كانوا يكافحون الفقر على الدوام . وهنا أيضا يجب أن نلاحظ أن الزنوج يكونون نسبة عالية من أفراد هذه الطبقة .

ولعل أهم ما يسترعى النظر بالنسبة الى العناصر التى تتألف منها هاتان المجموعتان ، وهما اللتان يتكون منهما الثلث الأدنى من السكان من حيث الدخل ، أننا اذا استثنينا الزنوج على اعتبار أن لهم مركزا خاصا سبق لنا الاشارة اليه فى الفصل الثانى عشر . فان هذه العناصر لا تعتبر بأى حال أنها صلب الشعب أو الطبقة الدنيا منه « بروليتاريا » ذلك لأنها تتكون من عدد كبير من الناس الذين يعيشون مبعثرين فى مختلف أنحاء البلاد ، والذين يعانون متاعب الحياة لأسباب اقتصادية أو شخصية .

وعلى الرغم من أن المساعدات التى يمكن تقديمها لأمثال هؤلاء من ضحايا المجتمع بعيدة عن الكفاية ، الا أنها أوفر اليوم مما كانت عليه فى بداية هذا القرن . هذا مع العلم بأنه لايوجد فى الوقت الحاضر ما كان موجودا وقتئذ من تكدس أولئك البؤساء فى مناطق كبيرة معينة.

واذا انتقلنا الى دراسة المجموعات التى يتراوح دخلها بين ٢٠٠٠

و ١٠٫٠٠٠ دولار ، فاننا نواجه الحقيقة الرئيسية التى تنم عن الرخاء فى الوقت الحاضر . وهذه الحقيقة هى أن ملايين من الأسرات استطاعت أن ترتفع بدخلها من الطبقات الدنيا — أى أقل من ٢٠٠٠ دولار فى السنة — الى ما يعلوها من طبقات ، وتشمل هذه الأسرات السعيدة أولئك المشتغلين بأعمال كثيرة متنوعة ، فمنهم المزارعون والموظفون فى المصالح وأصحاب المهن الحرة والعمال الماهرون وأنصاف الماهرين ، ولكن الجانب الأكبر من هذه المجموعة يشمل العمال المشتغلين بالصناعة ، كأسرة العامل فى مصنع للصلب مثلا ، اذ كانت تعيش على دخل قدره ٢٥٠٠ دولار وأصبحت الآن تحصل على دخل ٤٥٠٠ دولار ، أو أسرة العامل الماهر فى مصنع لانتاج الآلات ، فقد ارتفع دخلها من ٣٠٠٠ دولار الى ٥٥٠٠ أو يزيد . ويكفى بهذه المناسبة أن نذكر احصاء واحدا وهو أن متوسط دخل العامل فى مختلف الصناعات الأمريكية بلغ سنة ١٩٥٠ ٥٩٫٣٣ دولار فى الأسبوع .

ولكن ما معنى هذه الأرقام اذا ترجمت الى ظروف الحياة البشرية؟ ان معناها أن ملايين من الأسرات فى المزارع والمدن الصناعية والتجارية الأمريكية قد ارتفعوا من حالة الفقر أو ما يشبه الفقر لينعموا بمستوى معيشة الطبقات المتوسطة ، حيث تتوافر الملابس الطيبة الجيدة لكل أفراد الأسرة ، وتتاح الفرصة لشراء سيارة أحسن من سابقتها ، وثلاجة كهربائية ومطبخ حديث شائق لتستمتع به الزوجة ، والذهاب الى طبيب الأسنان أحيانا ، ودفع الأقساط لشركات التأمين .. الخ الخ .

ولقد كان الانسان يود لو أن المشتغلين بالأعمال العقلية كانوا أكبر المساهمين فى هذا الرخاء الاجتماعى ، ولكنهم مع الأسف لم يكونوا كذلك ، ومع هذا فقد كان لتضاؤل الطبقات الدنيا فى المجتمع أثر ظاهر الفائدة للمجتمع كله ، لأن ارتفاع دخل الأسرات أتاح لها فرصة اقتناء كثير من السلع ، فأدت زيادة قوتها الشرائية الى زيادة الانتاج وانتشار الرخاء بوجه عام ، ولذا يصح أن يقال ان ما تنعم به أمريكا من رخاء يرجع

الى تحسن حالة الفقير وتناقص ما يشكو منه من فقر .

ولندرس الآن حالة أكثر السكان رخاء بالنسبة الى مجموع الدخل ، أى تلك الخمسة فى المائة من السكان الذين ينعمون بدخل يزيد على ٨٠٠٠ دولار فى السنة .

لقد بينت الاحصاءات التى أعدها أحد الباحثين للمكتب الأهلى للأبحاث الاقتصادية عن فترة ما بين الحربين العالميتين ، أن أفراد هذه الطبقة الغنية ، كانوا يستولون على نصيب كبير من مجموع الدخل الأهلى — يفوق بقليل ٢٨٪ بعد دفع الضرائب — أما فى سنة ١٩٤٥ فقد نقص هذا النصيب الى ١٧٪ ، ولم تتحسن حالة تلك الطبقة كثيرا منذ ذلك التاريخ .

أما الطبقة الغنية فعلا والتى تبلغ نسبتها ١٪ من المجموع ، ويقدر دخلها بما يزيد على ١٦٫٠٠٠ دولار فى السنة ، فان نصيبها من الدخل الأهلى قد هبط الى ٧٪ بعد أن كان قبل الحرب ١٣٪ .

واذا أخذنا فى الاعتبار ما حدث من ارتفاع فى الأسعار ، فان مجموع الدخل لجميع الأمريكيين قد ارتفع ٧٤٪ فيما بين سنة ١٩٣٩ و ١٩٥٠ ، وهذا ارتفاع كبير حقا . واذا كان دخل الطبقة الغنية قد انخفض نسبيا فى هذه الفترة ، فليس هناك ما يدل على أنه قد انخفض انخفاضا كليا .

ويجب أن نلاحظ فوق ذلك أن الزيادة الكبيرة فى الأجور التى تحدثنا عنها لم تؤد الى تخفيض الأرباح ، فاننا اذا قارنا بين مجموع الأرباح سنة ١٩٢٩ ومجموعها سنة ١٩٥٠ ، لوجدنا أن ذلك المجموع قد زاد فى هذه الفترة أكثر من زيادة مجموع المرتبات والأجور . وهنا تتضح حكمة الشعار الذى اتخذه لنفسه مجلس انجلترا الجديدة New England « ان المد المرتفع يؤدى الى رفع جميع السفن » . ولكن اذا كان ارتفاع مجموع الأرباح بهذه الضخامة ، فلماذا لم يعد بالفائدة الكبرى على الأغنياء ؟ للاجابة على ذلك يجب أن نذكر أن جانبا من الأرباح كان يستخدم فى توسيع نطاق العمل ، وأن الأرباح نفسها كانت توزع على عدد

أكبر من المساهمين ، كما أن الضرائب أصبحت أعلى كثيرا مما كانت عليه. ومع ذلك فان التحول فى مركز الأغنياء يعتبر من الأمور التى تلفت النظر، حتى ان بعض الأفراد قال فى سخرية انه لا يوجد من له حق شرعى فى الثروة الطائلة فى الوقت الحاضر ، وأن من ينعم منهم بتلك الثروة يكون أحد اثنين ، اما متهرب من الضرائب أو محتفظ لنفسه بجانب كبير من المبالغ التى تخصصها الشركات للنفقات الادارية . فاذا كان ذلك غير صحيح فى جملته ، فالواقع أن ضريبة الدخل قد فتكت فتكا ذريعا بالدخول الكبيرة .

ولنوضح ذلك من المثل النظرى الآتى : لقد بينت تقارير لجنة الودائع والصرف عن عام ١٩٥٠ أن أكبر دخل حصل عليه أى فرد كان ٦٢٦٫٣٠٠ دولار لمستر تشارلس ولسون رئيس شركة جنرال موتورز — ووزير الدفاع فى حكومة الرئيس ايزنهاور — فاذا فرضنا أن هذا الايراد قد دفع له نقدا فى سنة ١٩٥٠ ، وأن ضريبة الدخل الفدرائية كانت مستحقة على المبلغ كله بدون أى تخفيض ، فان الحكومة كانت سوف تحصل على مبلغ ٤٦٢٫٠٠٠ دولار ولا تترك له سوى ١٦٤٫٣٠٠ دولار ، ولا شك أن هذا المبلغ لا يعتبر دخلا قليلا بأى حال ، ولكنه فى الوقت نفسه لايسمح بادخار الملايين .

أما أولئك الذين ورثوا ثروات طائلة أو جمعوا ثروات كبيرة فى العهد الذى كانت فيه الضرائب منخفضة ، فان حالتهم بعد ارتفاع الضرائب وزيادة الأسعار تتلخص فى الجملة التى قالها أحدهم : « لا يوجد الآن أغنياء وانما يوجد شعور بالفقر على نطاق واسع » ، والمقصود بذلك أن أولئك الأفراد كانوا رغم ثروتهم يلاقون صعوبة كبيرة فى مواجهة مطالب الحياة كالاحتفاظ بالمساكن الفسيحة المليئة بالخدم والحشم ، وأداء الواجبات العديدة التى ارتبطوا بها نحو الأقارب والأصدقاء ، والقيام بما ينتظره المجتمع منهم من منح للجامعات والمدارس والمستشفيات والجمعيات الخيرية الخ ، وكل هذه واجبات لا يقوم بأدائها غيرهم من الأغنياء الذين

حصلوا على ثروتهم حديثا ، أو أتقنوا فن التهرب من الضرائب ، أو أسعدهم الحظ بالمغامرات المالية التى اشتركوا فيها .

وهذا يفسر لنا رغبة الكثير ممن يزيد ايرادهم على شعورهم بالواجب ووخز الضمير فى أن يحتفظوا بثروتهم فى شكل نقدى ، أملا فى أن يتهربوا من دفع الضرائب . واذا كانت ثروتهم حديثة العهد ، فانهم من غير شك يستطيعون أن يفعلوا ذلك بعض الوقت، أما اذا كانوا من الأغنياء المعروفين، الذين ورثوا الثروة أو يشغلون مراكز الادارة فى الشركات الكبيرة ، فانهم لا يستطيعون ذلك لأن محصل الضرائب لاتغفل له عين .

ومن هنا نفهم سبب الرشاوى العلنية والخفية التى تقدم لمحصلى الضرائب ، والتى أثارت ضجيجا صمّت له الآذان فى السنوات الأخيرة ، كما نفهم سبب تزايد ميل بعض الأغنياء ومتوسطى الثروة لأن يستخدموا لنفقاتهم الخاصة جانبا من مصروفات الشركات ، وأن يظهروا هذا فى حساب مصروفات الادارة . ولا شك أن المرء يستطيع اقتصاد كل مرتبه ، اذا كان ما يشتهيه أو يحتاج اليه ، كالمسكن ووسائل الانتقال والتسلية ، سواء أكان ذلك له أم لأسرته وضيوفه مهما بلغ عددهم ، يقدم له من غير مقابل . والواقع أن عددا كبيرا من مديرى الشركات كان ينعم بهذه الحالة السعيدة ، فينتقلون بالسيارة أو الطائرة التى تملكها الشركة ، ويستخدمون التذاكر التى حجزتها لهم الشركة بالسكك الحديدية ، ويعقدون المؤتمرات الخاصة بأعمالهم لمدد طويلة فى أجمل المصايف أو المشاتى ، ويمارسون السباحة أو لعبة الجولف ، وكل ذلك على حساب الشركة .

غير أن هناك عددا كبيرا من مديرى الشركات الذين يرفضون الاستمتاع بهذه المزايا ، ولقد أخبرنى أحدهم ممن يزيد دخله على ٢٠٠,٠٠٠ دولار فى السنة (قبل دفع الضرائب) أنه دهش أثناء وجوده فى فلوريدا لكثرة عدد الناس الذين ينفقون عن سعة بدرجة لايستطيع هو احتمالها ، ولا شك أن هؤلاء قد اكتشفوا واستغلوا ما يعتبر بديلا عن الثروة الحقيقية ألا وهو الشركة التى توافق على دفع كل النفقات .

— ٢ —

لقد تكلمنا حتى الآن عن تضييق هوة الدخل بين الغنى والفقير ، ولكن أهم من ذلك ما حدث من تضييق للهوة بينهما فى أساليب المعيشة .

ولنضرب لذلك مثلا من المظاهر الخارجية للأفراد ، ففى سنة ١٩٠٠ ، كان رجل المصارف الذى يلبس الفراك والقبعة الحريرية المستطيلة وتصحبه زوجته متقمشة فستانا من باريس ، مما يسهل التعرف عليهما من مسافة بعيدة ، على اعتبار أنهما من أفراد طبقة ممتازة وسط قطيع من الأفراد العاديين . ومنذ أربعين أو خمسين عاما كان من السهل التعرف على الرجل الريفى فى المدينة من ملبسه ، أما اليوم فالفارق فى مظهر العامل أو الكاتب ومدير الشركة الكبيرة لمما يصعب تبيثنه بالنظرة السريعة . وما أكثر الأفراد الذين يبلغ دخلهم ستة أرقام (قبل دفع الضرائب) والذين يستخدمون آلاف الموظفين ، ومع ذلك فان ملابسهم لاتختلف عن ملابس غيرهم من ركاب طائرة تعبر القارة الأمريكية أو قطار كهربائى يسير تحت الأرض فى نيويورك ، الا من حيث جودة تفصيل تلك الملابس ، ولكنها على كل حال لا تلفت النظر اطلاقا ، ذلك لأنهم يظهرون كما يظهر غيرهم من الناس .

أما من حيث النساء فان الفرق فى مظهر السيدة التى تنفق خمسة آلاف دولار فى السنة على ملابسها ، والسيدة التى لاتنفق الا جانبا يسيرا من هذا المبلغ ، لايبدو كبيرا بالنسبة الى الفرق بين السيدة المتحلية بالذوق السليم وسيدة أخرى محرومة منه . أما أن السيدة الغنية تملك ثلاثين فستانا على حين أن السيدة الفقيرة لا تملك غير ثلاثة ، فانه أمر لايتضح لأحد فى الطريق . واذا كانت ملابس الغنية أرقى فى تفصيلها ونوع قماشها، فهذا بدوره أمر لا تلاحظه الا عين الخبير المدققة .

ومن الأدلة على ما حدث من تقارب فى أساليب المعيشة زيادة الطلب على الجوارب الحريرية الخاصة بالسيدات ، ففى بداية هذا القرن كانت الجوارب الحريرية رمزا للرخاء والترف ، وقد صنع منها فى سنة ١٩٠٠ ١٥٥٫٠٠٠ زوج عندما كان السكان ٧٥ مليونا ، أما فى سنة ١٩٤٩

فان المبيعات من جوارب النيلون – التى يعتبرها أغلب الناس معادلة على الأقل للجوارب الحريرية ان لم تكن خيرا منها – فقد بلغت ٥٤٣ مليونا بدلا من ١٥٥ ألفا ، أى ما يكفى لحصول كل سيدة فى البلاد من سن الرابعة عشرة فما فوق على تسعة أو عشرة أزواج من جوارب النيلون فى العام ، وهذا دليل صارخ على فوائد الانتاج الكبير الذى يوفر السلع الترفية للجميع .

ومنذ نحو جيل ، كانت الشركات الكبيرة – التى تتعامل مع المشترين بارسال البضائع اليهم فى مقابل ما يرسلون اليها من حوالات البريد – تنتج ملابس مختلفة لزوجة المزارع فى الغرب وللسيدة المقيمة فى الشرق، أما اليوم فليس هناك أى خلاف بين الانتاجين. وقد أبلغنى صديق أنه شاهد عند توقف قطاره فى محطة لمدينة صغيرة بولاية أو كلاهوما ، أن السيدات الواقفات على رصيف المحطة ، كن لا يختلفن فى مظهرهن أدنى اختلاف عن السيدات فى طريق ماديسون بنيويورك أو طريق ميتشيجان بشيكاغو . ولقد قيل بهذه المناسبة انه لم تبق غير وسيلة وحيدة لاظهار ثراء المرأة ألا وهى ارتداؤها معطفا من فرو مينك Mink لأنه أغلى أنواع الفراء .

ولا يجوز أن يفهم من ذلك أن هناك اتجاها عاما نحو توحيد الزى أو ما يشبه ذلك ، اذ يوجد اختلاف كبير فى الأزياء بين بعض الرجال وبعضهم وبين النساء أيضا ، غير أن هذا الاختلاف يرجع أول ما يرجع الى الذوق الشخصى ، أو الى التقاليد التى تفرض على أعضاء مهنة واحدة أو هيئة محلية معينة الظهور بمظهر معين ، ولكنه لا يرجع الى الاختلاف فى الدخل .

وهل يعتبر القضاء على الفروق بين الطبقات فيما يختص بالملابس أمرا قليل الأهمية ؟ لا أظن ذلك فان الشعور بأن ملبس الشخص يضعه فى طبقة معينة يولد شعورا عظيما بالتفرقة ، كما أن الشعور بحرية الانسان فى أن يلبس ما يريد ، من أكبر العوامل لازالة الحواجز بين الناس .

واذا انتقلنا من موضوع الملابس الى موضوع لوازم الحياة اليومية، فاننا نوافق الأستاذ جوردون هيز H. Gordon Hayes. عندما أشار فى مجلة هاربر فى سنة ١٩٤٧ الى أن الرجل الغنى يدخن نفس السجاير التى يدخنها الرجل الفقير ، ويستخدم موسى مشابهة وتليفونا متشابها ، وآلة كهربائية لغسل المسكن وآلة راديو وتلفزيون وكلها متشابهة ؛ كما يستخدم نفس نوع الاضاءة وأسلوب التدفئة فى مسكنه الى غير ذلك مما يصعب حصره . وكذلك تقل الاختلافات بين سيارة الغنى والفقير . واذا كان صاحب السيارة الكبيرة البراقة يتمتع بدخل كبير ، فكثيرا ما يكون شخصا مضطرا الى التصرف فى دخله بشىء كثير من الدقة لكى يواجه مطالب الحياة العديدة .

أما فيما يتعلق بمسائل المياه الجارية ودورات المياه ، فان الغاء الفوارق بين الطبقات لم يتقدم كثيرا ، ففى الوقت الحاضر ما زالت بعض المساكن القديمة فى الأحياء الفقيرة فى المدن الأمريكية مفتقرة الى المياه الجارية ودورات المياه الحديثة وما يستتبعها من لوازم . غير أن هذه الوسائل الصحية الحديثة آخذة فى الانتشار سريعا فى المساكن الريفية فى كل أنحاء الولايات . ومما يلفت النظر أن طبقة خدم المنازل كادت تتلاشى وبخاصة فى مناطق الشمال والغرب ، رغم أن مرتبات الخدم قد ارتفعت فى قوتها الشرائية اليوم أكثر من خمس أو عشر مرات عما كانت عليه سنة ١٩٠٠ ، ورغم أن الخدم يستطيعون اقتصاد أغلب أجورهم اذا كانوا يعيشون فى المنازل التى يشتغلون فيها . وقد أدى اختفاء هذه الطبقة الى أن الأغلبية الكبرى من الأسرات الأمريكية ، أصبحت ملزمة بالقيام بالخدمات المنزلية المختلفة كالطهى والغسل والتنظيف ، كما يستدل من هذا الاختفاء على أن المهاجرين الفقراء الذين كانوا فيما مضى يشتغلون بأعمال الخدمة المنزلية ، قد امتزجوا بالمجتمع الأمريكى العام — وهو المجتمع الذى أصبح ينظر الى الخدمة المنزلية على اعتبار كونها مهينة بالكرامة الانسانية — وهكذا قضى على مظهر آخر من مظاهر

اختلاف المعيشة بين الأغنياء والفقراء .

وللانسان أن يتساءل عن سبب هذا التقارب بين وسائل معيشة الأغنياء والفقراء ، فالحق أن ذلك يرجع الى أسباب عديدة ومعقدة ، وقد أشرنا اليها فى الفصول السابقة ، وبعضها اقتصادى وسياسى كضريبة الدخل ونفوذ نقابات العمال ، وبعضها سياسى واجتماعى كتوفير الحدائق والملاعب العامة . ولا شك أن الانتاج الكبير كان بطبيعة الحال من أهم الأسباب ، لأنه أدى الى انسحاب الأفراد الذين كانوا يشتغلون بانتاج بعض سلع الترفيه ، نظرا لتعرضهم للمنافسة القاسية من جانب صانعى وبائعى تلك السلع عن طريق الانتاج الكبير ، ومثال ذلك أن خياط الملابس وصانع الأحذية وصانع الأقمصة ، يجدون أكبر مشقة فى الاحتفاظ بعملهم ومورد أرزاقهم ، لأن الانتاج الكبير أصبح يسود الموقف ، والانتاج الكبير بطبيعته لا يسمح بالتنوع الا فى حدود ضيقة .

ومن العوامل الرئيسية فى هذا التغيير انتشار التعليم انتشارا واسعا ، ففى سنة ١٩٠٠ كان لا يدخل المدارس الثانوية غير واحد من عشرة من الأولاد والبنات الذين تسمح سنهم بدخولها ، أما الآن فقد ارتفعت النسبة الى نحو ٥ ، وليس معنى ذلك مجرد زيادة المعلومات التى يتلقنها الطلاب من الكتب ، بل معناه تدريب اجتماعى عظيم لأبناء مختلف أنواع الأسرات فى المجتمع ، وتفهم جديد لأساليب المعيشة . وكذلك يلاحظ أن عدد الطلبة الملتحقين بالجامعات والكليات ومعاهد المعلمين فى أمريكا قد أصبح يزيد ثمانية أمثال ما كان عليه فى بداية القرن .

ولقد كانت الحرب العالميه الثانية سببا آخر من أسباب هذا التغير ، لأن زيارة عدة ملايين من الشباب الأمريكى للدول الأجنبية ، أتاح الفرصة للقادرين منهم على التعلم أن يفهموا الكثير من ظروف الحياة فى الخارج ، كما سمحت لبعضهم — وبخاصة الضباط الطيارين — بالمعيشة فى مستوى يفوق كثيرا ما تعودوه من قبل . وانى لأذكر أنى زرت خلال الحرب محلا متواضعا للصور الفوتوغرافية للحصول على صورة خاصة

بجواز سفرى ، وقد أبلغنى صاحب المحل بأن نجله يقود الطائرات فى جنوب المحيط الأطلنطى ، فسألت نفسى هل كان ذلك الشاب يتصور قبل هذا الوقت بسنتين أو ثلاث سنوات أن الفرصة ستتاح له لزيارة البرازيل وليبريا ، فى الوقت الذى يتمتع فيه بمستوى الحياة الذى ينعم به الضابط الأمريكى .

ويجب علينا ألا ننسى الأثر الكبير الذى تحدثه المجلات الواسعة الانتشار وأفلام السينما واذاعات الراديو والتلفزيون ، وما تفرضه على الأمريكيين من مختلف الطبقات وتباين الدخول من الرغبة فى التقليد أو بعبارة أخرى ، جعلهم جميعا يرغبون فى العيش كشعب واحد لا فوارق بينهم .

فمنذ عشرات السنين قامت المجلات بتعليم ملايين من النساء شهرا بعد آخر أساليب الحياة الطيبة — فأفهمتهم طريقة العناية بالأطفال فى المهد وطريقة رعايتهم فى سنواتهم الأولى وأساليب تسلية الضيوف ، واعداد الأكلات الصحية ، وعلمتهم خير الوسائل لتجميل مساكنهم واعداد حدائقهم .. الخ . وقد تكون النصائح التى قدمتها هذه المجلات لقرائها بسيطة أو سطحية أو مضحكة فى نظر ذوى الخبرة ، وقد تكون بعض المعلومات التى نشرتها متأثرة بالدعاية الاعلانية ، الا أن مما لاشك فيه أن أثر كل ذلك فى تعليم الأفراد الذين كانت آفاقهم محدودة بحكم الظروف كان عظيما جدا .

وكذلك ساعدت الاعلانات ، بترغيبها الناس فى شراء البضائع ، على حملهم على زيادة العمل والكسب لكى يتمكنوا من اقتناء ما يرغبون فى اقتنائه من بضائع . واذا كان بعض العمال فى أمريكا ، كما فى غيرها من البلاد ، يميلون الى اتباع حياة الدعة وعدم الاجهاد على أثر زيادة أجورهم ، فان البعض الآخر يستمر فى العمل المتزايد أملا فى الاستزادة من نعم الحياة . ومن هنا تظهر فائدة الاعلان فى أوسع نطاق على اعتبار انه من أكبر الدوافع على العمل . ولا شك فى أن انتشار المعلومات العامة

عن طريق الصحافة ، كان ثمرة من ثمرات القرن العشرين ، ففى بداية هذا القرن لم يبلغ انتشار أية مجلة أمريكية ما يقرب من المليون ، أما فى سنة ١٩٤٧ فقد كان هناك ما لا يقل عن ٣٨ مجلة يزيد انتشار كل منها على المليون ، وكذا يقال عن السينما التى بدأت حوالى سنة ١٩٠٥ ، وعن الراديو الذى بدأ استخدامه الشعبى بعد سنة ١٩٢٠ ، فانهما ساعدا على جذب الرجال والنساء والأطفال من ذوى الدخول المختلفة ليستمتعوا بنفس المشاعر ويتأثروا بنفس المؤثرات .

وقد يقوم نجوم السينما المشهورون أمثال كارى جرانت وهمفرى بوجارت و جرجورى بيك بتمثيل أدوار الأغنياء المتأنقين أو الرجال الذين وصلوا الى الدرك الأسفل من الفقر والمذلة ، ولكن مهما كان الدور الذى يقومون بتمثيله ، فان نجاحهم فى ذلك يتوقف على اتقان ذلك الدور حتى يستطيع أى شاب أمريكى أن يتفهمه ويعجب به ، وبعبارة أخرى ، يتوقف نجاحهم على ما يعتبره الرجال المحافظون أنه يتفق مع مستوى الطبقة المتوسطة فى أساليب التحدث والمعاملة . وانى أفضل أن أسميهم رجالا لا طبقة لهم ، أو أمريكيين بكل معنى الكلمة ، فان ذلك فى الواقع هو حالهم . وكذلك يقال عن مشهورات الممثلات فى هوليوود لأنهن يخضعن لنفس الاعتبارات ، فقد يقمن بتمثيل دور الملكات أو أحقر العاملات ، ولكن الدعاية الاعلانية عنهن ، تعلم أن الجمهور لن يعشقهن الا اذا ظهرن فى مجلات السينما على أنهن قادرات على اعداد المائدة وتنظيف المطبخ ونشر الغسيل ، وبعد ذلك يمكن اظهارهن فى أوقات الفراغ ، وهن يلبسن أجمل ملابس السباحة ويجلسن الى جانب حمامات السباحة الفاخرة .

وماذا نتج عن كل ذلك ؟ كانت نتيجته أن نجل الرجل الغنى ، وسنه لا تزيد على أربع عشرة سنة ، يزعج والديه المحافظين بمحاولته التحدث مثل همفرى بوجارت ، كما أن نجل سائق السيارة يحاول نفس المحاولة ، ولذا ينمو الفتيان وهما يتشبهان بالممثل الذى حاز اعجابهما ، فيزيد الشبه بينهما أكثر مما كان يمكن تحقيقه من قبل .

واني كلما تذكرت ما حدث من تغير تعود بى الذاكرة الى ما شاهدته فى مدينة نيويورك ، فقد كان العمل جاريا فى اصلاح أحد الطرق ، وكان العمال الذين يقومون بالحفر يقفون فى انتظار وصول بعض المعدات الجديدة ، فاذا بى أشاهد أحدهم ممسكا بعمود صغير من الحديد ، يستخدم فى رفع أغطية المجارى ، وكان يتسلى به ، فعندما أحدقت النظر مرتين فيما كان يفعله بهذا العمود ، تبين لى أنه كان يتمرن على احدى الضربات الرشيقة للعبة الجولف !!

— ٣ —

ومن المبالغة أن يقال ان تخفيض موارد الأغنياء والاتجاه الى اتباع نظام أمريكى عام فى مستوى الحياة ، قد قضيا على الطبقة الارستقراطية ، فالواقع أن التقليد الاجتماعى قوة دائمة فى حياة الانسان ، ولذا نجد الفوارق الاجتماعية والكبرياء الفارغة من المظاهر الموجودة فى كل مجتمع ، كما نجد فى كل مدينة صغيرة أو كبيرة نظاما اجتماعيا يرفع بعض الأفراد الى الطبقة العليا ، وان كانت طبقة مختلفة فى تكوينها على الدوام . وكلما انتقلنا من المجتمعات الصغيرة الى ما هى أكبر منها ، نجد النظام الاجتماعى أكثر تعقيدا وأقل وضوحا فى تكوينه نظرا لكثرة المهن والأعمال التى توجد فى المجتمعات الكبيرة ، والتى تتولد من بينها طبقات فوق طبقات، وتخلق كل منها مميزات بينها لا تتصل أصلا بالمميزات القديمة التى كانت مرتبطة بالحسب والنسب . ومما يزيد فى تعقيد هذا النظام تلك الوجاهة التى يكتسبها بعض الناجحين من مديرى الأعمال ، مهما كان مركزهم الاجتماعى ، والشهرة اللامعة التى ينعم بها المشتغلون بتسلية الجماهير ، أو التى يكتسبها البعض من كثرة تحدث الصحف عنهم أو نشرها لصورهم .

أما فى الضواحى حيث يتزايد عدد السكان باطراد فان النظام الاجتماعى

يتعقد أيضا بسبب سرعة تغير السكان ، وبسبب اهتمام بعضهم بحياة الضاحية نفسها واهتمام البعض الآخر بالحياة فى المدينة المجاورة ، فهناك أسرة شريدان مثلا التى كانت تقيم حفلات رائعة فى العام الماضى ، ولكنها قد انتقلت الى مدينة ديترويت ، وهناك أسرة ستانلى التى يمتاز أفرادها بالظرف والرشاقة ولكنهم أصبحوا يقيمون حفلاتهم الاجتماعية فى المدينة المجاورة ، وهناك الزوجان الشابان ادواردز فما أكثر رشاقتهما ولكنهما قد انتقلا فى العام الماضى الى الضاحية عندما كان نجلهما الأكبر يقرب من سن الدخول فى المدرسة ، ويحتمل أن يرحلا عنها بعد ذلك اذا زاد دخلهما ، ولعلهما يعودان مرة أخرى الى المدينة عندما يكبر أصغر أطفالهما .

أما الارستقراطية بمعناها الحقيقى ، فكانت مركزة فى مدينة نيويورك ، وهى المدينة التى تشهد اليوم أكبر درجة من التعقيد فى طبقاتها الاجتماعية ، فهنا يحتشد أكبر عدد من الأغنياء ، ولا يعرف الا القليل منهم أكثر من جزء صغير من المعادلين له فى الثروة ، ولذا تتألف منهم مجموعات متداخلة وغير واضحة المعالم ، فهناك مثلا رجال المصارف والبورصات وكبار المحامين وعائلاتهم ، وهناك الناشرون والكتاب والمهيمنون على الاعلان والاذاعة والتلفزيون ، وهذه مجموعة تتداخل فى المجموعات المرتبطة بشارع برودواى — شارع المسارح والسينما — وهناك الطبقة الغنية من المشتغلين بالأعمال سواء بالجملة أم بالتجزئة ، وهناك الأفراد المهتمون بشئون الكنيسة على اختلاف نحلهم ، اذ يشغل الكاثوليك أعلى المراكز الاجتماعية ، وان كانت طبقتهم تتداخل مع تلك التى تعنى بالسياسة بوجه خاص ، وهناك فضلا عن ذلك روابط التعارف بين الأفراد الذين يعنون بمساعدة مختلف المؤسسات العامة والخيرية ، وأولئك الذين جاءوا الى نيويورك من منطقة معينة فى الولايات المتحدة أو الذين يقضون اجازة الصيف أو آخر الأسبوع فى مناطق واحدة فى لونج أيلاند أو كنكتيكت أو نيوجرسى أو غيرها . وهناك فوق كل ذلك الروابط التى

تربط بين أهل الفن أو من يلوذ بهم من المعجبين والتابعين . وفى بعض هذه المجتمعات نجد اليهود يختلطون بغير اليهود ، أما فى بعضها الآخر ، فاننا نجدهم بمعزل عن غيرهم .

ومع كل ذلك فلا يصح أن يقال ان الارستقراطية الحقيقية لا وجود لها فى مجتمع بلغ هذه الدرجة من التنوع والتعقد ، اذ هناك كثير من الأسر العريقة التى ما زالت تنعم بثروة كبيرة ، ولا ترضى أصلا على انكار وجود الارستقراطية وان كانت صحة وجود هذه الارستقراطية تعتبر سرا من الأسرار التى لا تعرفها الا تلك الأسر !

واذا كان المحافظون والمسنون من هذه الطبقة الارستقراطية ينظرون نظرة امتهان الى الطبقة التى لا تعـدلهم فى عراقة الأصل ، ويحتقرون الدعاية الواسعة التى تحيط بنجوم السينما والمسارح ، فان الحقيقة التى لايمكن انكارها هى أن أبناءهم وأحفادهم لايقدرون عضويتهم للأندية الاجتماعية القديمة مثل نادى نيكربوكر Knickerbocker أو بروك Brook أو كولونى Coloney قدر تقديرهم لعضويتهم فى المجموعة التى تكثر من زيارتها لنادى ستورك Stork أو لنادى واحد وعشرين 21 ، كما أن الصحف التى تعنى بنشر أخبار المجتمع ، تقصر اهتمامها فى الغالب على أولئك الذين يذهبون الى المقاهى الشهيرة . فاذا كانت الارستقراطية القديمة موجودة فى الواقع ، فانها تكاد تكون مجهولة للشـعب الذى لا يتتبع أنباءها ولا يعنى بشأنها .

وقد أخذ أصحاب الاعلانات علما بما حدث من تغير فى هذه الناحية، ولذا كتبت أجنيز روجرز Agnes Rogers فى سنة ١٩٤٩ : « ان من علامات هذا الزمن كثرة الاعلان عن سهولة حصول الأمريكيات على ما يشتهين من جمال واغراء لأنهن يستطعن شراءه فى زجاجة !! ولايشعر المنتجون لهذه السلع فى الوقت الحاضر بحاجتهم الى ترغيب الجمهور فى شرائها عن طريق اقناع الأمريكيات بأنهن اذا اقتنين هذه السلع يصبحن شبيهات بنجوم المجتمع ونسائه الثريات ، فان هذا الترغيب الذى يستند

الى الكبرياء قد أصبح أضعف من الترغيب القائم على سهولة الحصول على الجمال والاغراء بوساطة شراء السلع المناسبة ، ودقة اتباع ما تشتمل عليه من تعليمات ، وأصبح فى مقدور كل النساء ، مهما كان أصلهن ، الحصول على الاغراء باتفاق مبلغ زهيد واتباع الارشادات المطلوبة . حقا لقد أصبح الاغراء ديمقراطيا » .

أما المساكن العظيمة التى أقيمت فى العهد الماضى ، والقلاع الضخمة التى عاش فيها الأغنياء والمتأنقون معيشة تليق بالأمراء ، فانها قد ذهبت ضحية الضريبة العقارية والضرائب الاضافية ، وما زال بعضها باقيا وبخاصة فى مدينة نيوپورت ، حيث تعيش بقية من الطبقة الارستقراطية وترفض بعناد الاعتراف بأن شيئا جديدا قد حدث للمجتمع . أما فى نيويورك فان أشهر تلك المساكن الضخمة التى جعلت الطريق الخامس معروفا بأنه طريق أصحاب الملايين ، مثل مساكن أسرة فاندربلت ، فانها قد أزيلت وأقيم مكانها المبانى الخاصة بالأعمال أو المتاجر الكبيرة ، والبعض الآخر من تلك المبانى تحول الى أديرة للراهبات أو مستشفيات أو مدارس داخلية للصبية والفتيات ، ولم يقم بدلا من تلك المبانى مبان أخرى من طرازها ، نظرا لارتفاع نفقات البناء والصيانة وعدم توفر الخدمة اللازمة ولأن ذوق الأغنياء قد تحول فى الوقت الحاضر عن هذا الأسلوب المترفع فى المعيشة .

وان الانسان لينظر الى زوال هذه القصور الخاصة فتتملكه المشاعر المتناقضة ، فمن جهة يشعر بالسرور لزوال مظاهر العظمة التى كانت لا تقوم الا على تقليد أعمى لما كان يماثلها فى أوربا ، ولأن ارتفاع أجور الصيانة لمثل هذه المساكن ، يدل على زيادة الرخاء والسعادة لعدد كبير من الرجال والنساء ، كما يسعد الانسان لزوال ذلك الجيش من الخدم والحشم الذى كان يقطن تلك المبانى ، وكان وجوده تحديا للكرامة الانسانية ، ومع ذلك ، فان الانسان يشعر بالأسف اذ يفتقد ذلك البريق الذى كانت تضفيه تلك المساكن الكبيرة على المجتمع ، والذى لا يجده

الانسان فى الوقت الحاضر فى مجتمع ليس فيـه الفوارق الكبيرة بين الطبقات .

— ٤ —

ومن أهم ما يلاحظ على المجتمع الأمريكى فى الوقت الحاضر انتشار عادة رفع التكلف فى المعاملات انتشارا غريبا ، وقد كان من المنتظر أن ذيوعها سوف يؤدى الى رد فعل يحمل الناس على زيادة الاناقة فى الملبس والمعاملات ، ولكن الحقيقة الواقعة أن كل خطوة يخطوها المجتمع نحو الاناقة ، يقابلها خطوتان نحو المعاملات المتحررة من القيود .

فلننظر مثلا الى الرجل الأمريكى اليوم ، فان حلتـه التقليـدية « البنجور » أصبحت غير مستعملة الا فى الأفراح والحفلات الرسـمية وعندئذ تكون الحلة عادة مستعارة أو مستأجرة ، وكذلك لاتستخدم السترات السوداء الطويلة الذيل ، الا فى الحفلات القليلة ، ولا يستخدمها الا عدد قليل جدا من الشبان الأغنياء . كما أن الرجال الأكبر سنا من هؤلاء ، يندر لهم أن يخرجوا الدواء المضاد للعتة (كرات النفتالين) من جيوب حلات السهرة الكبرى التى اقتنوها حوالى سـنة ١٩٢٦ . أما السترة القصيرة للسهرة ، فان استخدامها آخذ فى النقصان ، والأسرات التى يلبس الرجال فيها ملابس العشاء كل مسـاء ، كادت تتلاشى من الوجود ، وكذلك أخذت الياقة الجامدة فى الزوال نهائيا ، وأصبح الصديرى يقل استعماله الى درجة واضحة ، حتى اذا لبسه رجل دون الأربعين ، اعتبره الناس من المحافظين فى ملبسه . ومثل ذلك يقال عن القبعات التى يقل استعمالها وبخاصة فى الصيف .

أما استخدام ملابس الرياضـة فانه آخذ فى الازدياد ، كسترة من الصوف وبنطلون من الكاكى أو الفانلة للرجال ، والجونلات الزاهية الألوان أو البنطلونات للسيدات ، وبخاصة فى ولايتى كاليفورنيا وفلوريدا . وكذلك يميل عدد متزايد من الناس الى استخدام الملابس الفسيحة

المريحة فى أثناء العمل ، فأصبح الشبان لا يستخدمون رباط الرقبة الا فى المناسبات القليلة التى تتطلب شيئا من الأناقة . أما فى الجامعات فتكاد الملابس ذات القطعتين تحل محل ملابس السهرة فى المناسبات شبه الرسمية .

ولا شك أن قلة التكلف التى أشرنا اليها لما يناسب اتجاه المجتمع بوجه عام نحو تزايد الزمالة غير المتكلفة بين الجنسين ، فالرجل وزوجته يصرفان فى رفقة بعضهما ببعض وقتا أكثر منه فى أى زمن مضى ، اذ أصبحا يقتسمان شئون الطهى وغسل الأوانى والعناية بالطفل ، كما أن ارتفاع الأجور فرض على الزوج أن يشتغل أحيانا بصنع بعض الأثاث الخشبى وطلاء جدران المطبخ وأثاثه ، واصلاح ما يمكن اصلاحه فى المنزل ، مما يحمل الزوجين ، سواء رضيا بذلك أم لم يرضوا ، على اقتسام العمل المنزلى فيما بينهما ، وعلى عدم الاكتراث بالتأنق فى الملبس. ونظرا لانتشار التعليم المشترك ، تعود الأولاد والبنات على الزمالة فى العمل وفى المكتب ، وعلى ارتداء ما يصلح ارتداؤه فى الحالتين : كما أن الأندية الخاصة بالرجال وجدت نفسها مضطرة الى تخصيص حجرة يمكن للسيدات أن يجلسن فيها مع الرجال . وبالجملة ، كلما زاد تقدم الجماعة فى أمريكا ، قلت رغبة الرجال والنساء فى الانفصال بعضهما عن بعض للتمتع بأوقات الفراغ . ومن المؤكد أن المجتمع يتجه اتجاها عاما ، الى زيادة الزمالة غير المتكلفة بين الجنسين .

ونظرا لندرة وجود الخدم ، تحولت حفلات العشاء التى يجلس فيها الضيوف حول المائدة ، الى ما يشبه نظام المقصف (البوفيه) حيث ينتقل الأفراد للحصول على ما يرغبون فى الحصول عليه ، كما ندرت حفلات الرقص التى تقام فى المنازل الخاصة ، فاذا رغبت جماعة من الشبان والفتيات فى قضاء ليلة فى الرقص ، فانهم يذهبون الى فندق أو ناد ليلى، وكثيرا ما يحملهم الازدحام هناك وكثرة النفقات على أن يفضلوا الذهاب الى أحد المطاعم القائمة على جوانب الطرق الرئيسية ، وهناك يتناولون

الجعة أو المشروبات الخفيفة ، ويرقصون ويستمعون الى ما يرغبون الاستماع اليه من النغمات الموسيقية التى يختارونها من صندوق الموسيقى « الأوتوماتيكى » فى مقابل مبلغ زهيد ، ويتحدثون فى شئون الحياة فى جو تسوده روح المرح الهادىء ، دون تحمل نفقات كبيرة . وقد أصبح الرقص فى مربعات محبوبا فى مختلف الطبقات الاجتماعية بعد أن كان خاصا بسكان الريف ، وكلما زاد فيه الهرج والمرج ، زاد اقبال الطبقات الراقية عليه . وقد جاء فى بطاقة الدعوة للشبان لحضور حفلة رقص المربعات ، فى احدى المدارس الراقية الخاصة بالبنات فى نيويورك : « عليكم الحضور بالبنطلونات الزرقاء » (وهى البنطلونات الرخيصة التى تستخدم فى الأعمال) .

ولماذا كل ذلك ؟ يغلب على الظن أن انتشار عدم التكلف يرجع الى اعتقاد الناس أن ذلك يتفق مع الديمقراطية وما فيها من معانى الأخاء والمساواة ، ويظهر أن أبناء الأغنياء وبناتهم أصبحوا يشعرون بشىء من مركب النقص ، فكأنهم فى قرارة أنفسهم يذكرون الأزمة الاقتصادية الكبيرة ، عندما كان أغلب الناس ساخطين على ما نعم به هؤلاء من ثراء ، ومتشككين فى مصدر ذلك الثراء وشرعيته . ويظهر مركب النقص هذا بصور مختلفة ، منها تفضيل وسائل التسلية التى لا تحملهم على الظهور بمظهر خاص ، ومنها أيضا رغبة الذين يشغلون مراكز رئيسية فى الشركات فى أن يبعدوا عن أنفسهم التشكك الذى تنشره حولهم نقابات العمال ، ولذا يتعمدون الاشتراك فى الحفلات بطريقة توضح أنهم لا يعيشون عيشة الأمراء . وقد أصبح الأغنياء بوجه عام يرحبون بهذه النزعة نحو اتباع الأساليب الديمقراطية فى الحفلات ، بينما البعض الآخر يشعر أن التكلف قد فات أوانه وأنه يسبب مضايقات لاداعى لها ، ولذا يسرهم أن يصبحوا غير ملزمين بالابقاء عليه .

ومهما يكن رأى المرء فى انتشار مذهب عدم التكلف ، فمما لاشك فيه أنه أصبح من أهم ما يميز المجتمع الأمريكى فى المعيشة والمعاملات.

الفصل السادس عشر

شركات من طراز جديد

انه لمن أصعب الأمور أن يدرس الانسان فى دقة ووضوح ظروف الحياة وأنظمتها فى الوقت الذى يعيش فيه ، وأكثر من ذلك صعوبة أن يحاول بعد دراسته استخلاص بعض المبادىء والنظريات العامة ، لأنه اذ ذاك يستخدم بعض الألفاظ التى تحمل بين طياتها معانى لا تتفق مع الأوضاع الراهنة .

ولنأخذ مثلا كلمة « الرأسمالية » ، فقد تعودنا أن نصف نظامنا الاقتصادى بأنه رأسمالى ، غير أن هذه الكلمة كانت تشير منذ نصف قرن ، وما زالت تشير فى أوربا ، الى أسلوب فى المعاملات يختلف اختلافا كبيرا عن الأسلوب المتبع بالولايات المتحدة فى الوقت الحاضر . وكذلك يقال عن التعبيرين المتعارضين « العمل الحر » و « الاشتراكية » فان لكل منهما معنى تقليديا لا يساعدنا على أن نصف وصفا دقيقا شئوننا الاقتصادية والسياسية فى الوقت الحاضر .

ولنأخذ مثلا كذلك الشركات الكبرى Corporations ، فان أكثر الأعمال فى الولايات المتحدة خاضعة لهذه الشركات ، وتشمل هذه بدورها المؤسسات التى يكاد يشرف عليها رجل بمفرده ، والمؤسسات الضخمة مثل جنرال موتورز التى تنفق اليوم من المال سنويا أكثر مما كانت تنفقه حكومة الولايات المتحدة فى العقد التالى لانتهاء الحرب العالمية الأولى ، بما فى ذلك نفقات القوات البرية والبحرية ، والواقع أن نحوا من نصف الأمريكيين العاملين ، يتقاضون مرتباتهم من الشركات ، وتزيد

النسبة على النصف اذا استثنينا المزارعين وغيرهم من المشتغلين لحسابهم الخاص . ومع ذلك فان طبيعة الشركات الأمريكية ، لا سيما الشركات الضخمة ، قد تغيرت تغيرا كبيرا منذ تلك الأيام التى عرفت فيها لأول مرة — أو منذ أن وضعت الكتب المدرسية وشرحت لنا لأول مرة الفكرة التى قامت عليها هذه الشركات ، مما يجعل من العسير علينا فى الوقت الحاضر أن نفهم حقيقة هذه الشركات عندما نتحدث عنها .

ولقد كان لهذا التغير أهمية كبرى لجميع الأمريكيين ، ولذا وجب علينا أن نعيد النظر فيه من جديد .

ولنستعرض أولا بعض الحقائق العامة المعروفة ، فمن المفروض أن الأفراد الذين يساهمون فى انشاء شركة وتنميتها هم الذين يشرفون عليها لأنهم يحملون أسهمها ، ولهذا يختارون أعضاء مجلس الادارة الذين يشرفون عليها نيابة عنهم ، ويختار هؤلاء بدورهم المديرين المسئولين فعلا عن سير الأعمال فى الشركة تحت اشراف مجلس الادارة ، ولهذا كانت السلطة العليا فى الشركة — من الوجهة النظرية ووفقا لأحكام القانون — مركزة فى حملة الأسهم . غير أن هذا لا ينطبق على الواقع الا فى حالة الشركات الحديثة التى تحتاج الى الاستزادة من رأس المال للسير فى أعمالها ، أو فى حالة الشركات الصغيرة . أما أغلب الشركات الأمريكية الناجحة ، والتى بلغت سن الرشد ، وبخاصة الشركات الضخمة التى تهيمن على جانب كبير جدا من الانتاج الأمريكى ، فان حملة الأسهم لا يتمتعون بأية سلطة ، اذ يخضعون للادارة فى كل شىء .

فالادارة هى التى تحدد سياسة الشركة وتصدر قرارات بشأنها ، واذا كان صحيحا أنه يجب اعتمادا القرارات الهامة من مجلس الادارة ، وأن أغلب أعضاء تلك المجالس يشعرون بعبء المسئولية الفادح ، الا أن مساهمة أولئك الأعضاء فى الادارة الفعلية للشركة أصبحت سلبية الى حد كبير لأن أقلية ضئيلة منهم هى التى تستطيع وحدها أن تتبع المشاكل التى تواجهها الشركة يوما بعد يوم . أما حملة الأسهم فصحيح أنهم بحكم

القانون ، يتمتعون بحق اعتماد بعض القرارات الرئيسية ، ولذا تعقد الجمعيات العمومية السنوية للمساهمين لاعتماد هذه القرارات ، ولكن تلك الجمعيات لاتخرج عن كونها سخافة قانونية واجراء رسميا لاقيمة له.

فاذا فرضنا أن أحد المساهمين كان غير راض عن الطريقة التى تدار بها شركة كبيرة ، فانه لن يحاول مقاومة ادارة الشركة فى اجتماع الجمعية العمومية السنوية ، الا اذا كان شاذا فى تفكيره ، أو من المكافحين فى سبيل المبدأ ، أو من السياسيين أو رجال نقابات العمال الذين يرغبون فى لفت الأنظار اليهم . أما المساهم العادى فانه ينسحب من الشركة ببيع ما يملكه من أسهمها .

والواقع أن ما يملكه الفرد العادى من أسهم شركة جنرال موتورز أو جودير أو الخطوط الجوية المتحدة ، يندر أن يكون من الضخامة بحيث يجعله شريكا أو موجها لسياسة مثل تلك الشركات الضخمة ، بل انه يعتبر مجرد وسيلة لاستثمار المال والحصول على الأرباح .

غير أن ادارة الشركات تمنح المساهمين فيها من الاحترام والاهتمام أكثر مما كانت تمنحه لهم فى بداية هذا القرن ، عندما كانت لاتنبئهم بأى شىء عن نشاط الشركة ، أو تكتفى على الأكثر بأن تقدم لهم مجموعة من الاحصاءات التى يصعب عليهم فهمها ، أما الآن ، فان الشركة تقدم لمساهميها تقارير وافية ومليئة بالصور الفوتوغرافية لبعض أعمال الشركة الرئيسية ، وبالخطوط البيانية التى توضح طرق صرف الأموال ، ذلك لأن الشركة أصبحت تنظر الى حامل أسهمها نظرتها الى المشترى ، لا على اعتبار أنه أحد ملاكها ، بل على اعتبار أنه شخص يحسن اجتذابه خوفا من أن ينصرف عن الشركة الى غيرها .

وقد نتج عن تناقص نفوذ المساهمين ، أن أصبحت الادارة متحكمة تحكما تاما فى شئون الشركة ، كما أصبحت بطبيعة الحال ، محتفظة بسيطرتها على الدوام وبخاصة فى الشركات الكبيرة . ومن غير هذه الوسيلة لايمكن أن تقوم شركة مثل شركة التليفونات الأمريكية التى

يبلغ عدد المساهمين فيها أكثر من مليون ، ولا يملك أحدهم غير ١ر٠٪ من مجموع الأسهم .

فاذا أخذنا علما بهذا التطور فى الشركات الأمريكية ، فان أنسب الألفاظ التى يوصف بها نظامنا الاقتصادى الحالى ، هو أنه ادارى وليس رأسماليا . ولا شك أن كل ذلك معروف منذ سنوات عديدة لكثير من المراقبين لظروفنا الاقتصادية ، ولكن هناك نوعا آخر من التغيير لايعرفه الكثيرون ، ألا وهو أن الشركات فى الوقت الحاضر ، ولاسيما الكبرى منها ، ليست غير خاضعة للمساهمين فيها فحسب بل انها أيضا أقل اعتمادا على المصارف من ذى قبل . ولاشك أن رجال المصارف يقومون فى الوقت الحاضر بخدمات جليلة فى انقاذ كثير من الشركات أو فى اعادة تنظيمها أو تمويلها ، وانهم اذ يقومون بهذه الخدمات يتمتعون أيضا بنفوذ عظيم ولكنه نفوذ محدود ، فمن جهة أصبحت الشروط التى يتعاملون بمقتضاها مع عملائهم محددة بحكم القانون تحديدا دقيقا ، ومن جهة أخرى فان هناك من ينافس البنوك والمصارف منافسة قوية فى القيام بمهمة انقاذ الشركات أو تمويلها ، مثل الشركة التى أسستها الحكومة للانشاء والتعمير المالى .R.F.C أو شركات التأمين الكبرى أو شركات الاستثمار التى تتصرف فى رءوس الأموال الضخمة .

ولقد أصبحت الشركات الكبرى فى الوقت الحاضر قادرة على تمويل نفسها بنفسها الى حد كبير ، اذ تزيد من رأسمالها بأن تدفع للمساهمين جزءا من الأرباح ، وتحتفظ بالجزء الباقى لشراء آلات أو بناء مصانع أو السيطرة على شركات صغرى جديدة . وقد كانت هذه الطريقة فى تمويل الشركات الكبيرة بدون الرجوع الى المصارف نادرة فى بداية هذا القرن ، ولكنها انتشرت انتشارا واسعا بعد الحرب العالمية الأولى ، وأصبحت هى القاعدة المتبعة فى الوقت الحاضر . ولذلك أصبح مدير الشركة الناجحة الكبيرة متصرفا فى أموال وفيرة ، وينظر الى رجال المصارف فى وول ستريت نظرته الى الطبيب ، فمن المصلحة أن يتأدب فى

معاملته ، اذ قد يحتاج الى خدماته فى يوم ما ، وهو على كل حال شخص مفيد نظرا لما يقدمه من نصيحة بين آن وآخر ، ولكن مدير الشركة لا يعتبر الطبيب سيدا له ، وعلى هذا فان دعاة الشيوعيين لا يقررون الحقيقة اذ أن أحدا فى وول ستريت لا يعتبر نفسه سيدا لمدير شركة ناجحة كبيرة .

ولا شك أن دعاة الشيوعيين وغيرهم من المراقبين الأجانب الذين يقلون عنهم بغضا للولايات المتحدة ، يخالفون الواقع فى هذا الأمر كما فى غيره من الأمور ، عندما يتحدثون عن أوضاع أصبحت غير موجودة منذ أكثر من عشرين سنة .

ولكن هل يفهم من ذلك أن الشركة الكبيرة الناجحة تعتبر سيدة نفسها ؟ كلا ، وذلك بسبب كثرة ما أحاطت به الحكومة الشركات من قيود . وقد قال الأستاذ سمنار سليختار Sumner S. Slichter فى هذا الصدد : « ان من أبرز التغيرات التى حدثت فى الولايات المتحدة فى الخمسين سنة الأخيرة تحول النظام الاقتصادى من العمل الفردى الحر الى العمل الخاضع لتوجيه الحكومة . وقد أصبح النظام الجديد خاضعا لمبدأ عام وهو أن القرارات الرئيسية التى يتحدد بوساطتها من سيحصل على الدخل ، ومقدار ذلك الدخل ، والسلع التى تنتجها الشركة وأسعارها ، كل ذلك يخضع للتوجيهات الحكومية العامة » . وبهذه الوسائل تعمل الحكومة على الحد من تقلبات الأسعار بأن تقرر لها نهايات صغرى فى بعض الحالات ونهايات عظمى فى حالات أخرى ، كما انها تضع الأنظمة المختلفة لطرق الاعلان والمبيع ، وتحدد أنواع الشركات التى يمكن انضمامها تحت لواء الشركات الكبيرة ، كما تقرر طريقة دفع الأجور للعمال ، بل ان الحكومة فى بعض الولايات ، خضوعا للقوانين الخاصة بحسن توظيف العمال ، تحدد أنواع العمال الذين يجوز للشركة أن تستخدمهم ، وفضلا عن ذلك فان كثرة أنواع الضرائب المفروضة على الشركات الكبيرة كضرائب الدخل والضرائب على الاحتياطى وضرائب

الضمان الاجتماعى .. الخ ، تفرض على الشركة امساك دفاترها بطريقة كثيرة النفقة والصعوبة .

وكذلك تحد نقابات العمال من سلطة ادارة الشركات حدا كبيرا ، وهذا النفوذ الذى تنعم به النقابات يعتبر نفوذا سلبيا خالصا ، اذ تستطيع النقابة أن تربك أعمال الشركة ، ولكنها لاتستطيع أن تقوم بادارتها أو بمجرد تنفيذ الاتفاق الذى يربط بينها وبين الشركة ، فان ذلك التنفيذ يدخل فى اختصاص الادارة وحدها . غير أن مقدرة زعماء النقابات على التدخل فى أعمال الشركات وتعطيلها قد بلغت حدا جعل بعض الناس يعتقدون أن الرجل الذى يتمتع فى السنوات الأخيرة بمثل ما كان يتمتع به بيربونت مورجان من نفوذ شخصى عظيم فى توجيه الاقتصادالقومى،هو زعيمعمال المناجمجون ل . لويس John L. Lewis وقد تعددت العقود التى تربط ادارة الشركات بنقابات العمال ، حتى ان الشركات الضخمة أصبحت فى الوقت الحاضر خاضعة لما سماه أحد الكتاب « القانون العام الجديد لتنظيم المصانع وادارتها » والمقصود بذلك الاجراءات الكثيرة التى يجب على الشركات أن تخضع لها عند تأجير العمال وفصلهم وتحديد أقدميتهم ومعالجة شكاويهم وتنظيم عملهم الاضاف واجازاتهم .. الخ .

وأخيرا فان من واجب ادارة الشركات أن ترعى عند رسم السياسة التى تسير عليها أثر تلك السياسة فى الرأى العام ، وفى موظفيها وحملة أسهمها والمشترين لسلعها ، وأثر تلك السياسة أيضا فى الدوائر الحكومية المختصة . وقد يستطيع رؤساء الشركات الصغيرة أن يقوموا بالكثير من الأعمال التى لا تلفت نظر الرأى العام اليها مهما اشتملت عليه من سرقات وفضائح ، أما مديرو الشركات الكبيرة فانهم لا يجرؤون على ذلك بسبب شدة الرقابة المفروضة عليهم ، وهى رقابة لا تغفل اذ تفرض عليهم تقديم تقارير مفصلة الى لجنة الودائع والصرف ، وتقارير مفصلة أخرى لمصلحة الضرائب ، كما يتعرضون فى أى وقت للتحقيق معهم بوساطة لجنة التجارة

الفدرائية أو احدى لجان الكونجرس ، ولذا كان أولئك المديرون ينعمون بدرجة من حرية التصرف بقدر ما تنعم بها السمكة التى تسبح فى وعاء من الزجاج.

وعلى هذا ، يتمتع مديرو الشركات الكبيرة بسلطات واسعة وان كانت محدودة ، ويستخدمونها فى تأجير العمال وفصلهم وتحديد أجورهم وشراء لوازم الصناعة وتحديد انتاجها وبيع ذلك الانتاج كيفما يريدون، وعندما يصلون الى درجة كبيرة من النجاح ، يتحررون الى أبعد حد من نفوذ حملة الأسهم ورجال المال . ولذلك يكونون بهذا الوضع مختلفين أكبر اختلاف عن مديرى الشركات والصناعات المؤممة الذين لايتمتعون بمثل هذه الحرية فى التصرف ، ومع ذلك فان كثرة القيود المفروضة على أولئك المديرين وصرامتها ، تجعل من الصعوبة بمكان أن يوصفوا بأنهم يديرون أعمالا حرة بمعنى الكلمة ، اذ الواقع أنهم يديرون شركات خاصة، خاضعة للكثير من القيود ، وملزمة بأن تسير أعمالها بما يتفق مع الصالح العـام .

غير أن هذا ليس كل ما فى الأمر !

— ٢ —

فمما لاشك فيه أن نظام الشركات نفسه قد تعرض لتغير كبير من أساسه ، اذ أصبحت ادارة الأعمال مهنة ككل المهن ، أى ان المشتغلين بها يشبهون فى تخصصهم ما نعلمه عن تخصص المحامى والطبيب والمهندس والأستاذ الجامعى فى مهنته ، كما أنهم يقومون بعملهم بنفس الروح التى توجه الرجل الفنى فى عمله .

وعندما تحدث رئيس جامعة هارفارد فى العقد الأول من القـرن الحالى عن كلية ادارة الأعمال فى تلك الجامعة ووصفها بأنها مدرسة فنية أثار ذلك الوصف سخرية الكثيرين ، اذ كيف تكون ادارة العمل التجارى والصناعى مهنة وفنا ؟ لقد كانت تلك الأعمال حتى ذلك الوقت معـركة غـير منظمة ، لا يفوز فيها الا من يسعده الحظ وتواتيـه الظروف ،

أما أن يقوم الأساتذة الجامعيون باعداد الشبان للقيام بهذه الأعمال ، فكان أمرا لا يستسيغه العقل ، غير أن الظروف قد تغيرت الى حد جعل تلك المدرسة تلقى نجاحا كبيرا واحتراما شاملا من جانب الشركات الضخمة نفسها ، حتى ان كثيرا من هـذه الشركات أصبحت ترسل على نفقتها الخاصة بعثات الى هذه المدرسة من بين خيرة موظفيها الذين تبلغ سنهم حوالى الأربعين ، لكى يعدو أنفسهم لاحتمال المزيد من المسئوليات بعد حضورهم المقرر الدراسى الذى تفرضه المدرسة عليهم لمدة ثلاثة عشر أسبوعا فى برنامج ادارة الأعمال الراقية . ولا يفهم من ذلك أن احدى الجامعات الأمريكية الكبرى قد خرجت عن تقاليـدها الجامعية بأن ضمت مدرسة تجارية تحت لوائها ، وانما الذى يفهم منه أن عددا كبيرا من الأعمال الأمريكية صار يتطلب الآن من المشرفين على ادارتها كفاية ومهارة فنية ، يصعب الحصول عليها فى غير الجامعات .

والله يعلم أن هناك عددا لا يحصى من رجال الأعمال الذين لا هم لهم الا كسب المال بأية وسيلة من الوسائل ، غير أن المسئولين عن أغلب الشركات الكبرى فى الوقت الحاضر أصبحوا مطالبين بحـل كثير من المشاكل الفنية الدقيقة ، وبالسير بحذر كبير وسط القيود المتعددة التى تربط بينهم من جهة ، وبين عمالهم وادارات الحكومة وجمهور المستهلكين والرأى العام من جهة أخرى ، مما يحملهم على بذل غاية الجهد لايجاد التوازن بين مختلف هذه التيارات المتضاربة ، وهذا بدوره يزيد الطلب على الرجال الاداريين الذين يمتازون بواسع الخبرة ومرونة العقل .

والصناعة الحديثة دائبة على التوسع فى توظيف الفنيين وانصاف الفنيين فى مختلف فروعها ، فتستخدم عددا وفيرا من المهندسين ، وجلهم من المتخصصين الذين يتعذر على أحدهم أن يقوم بعمل غيره ، وكذلك تستخدم الاخصائيين ومحاسبى التـكاليف والمراجعين والاقتصاديين والاخصائيين فى تحديد جودة الأصناف وفى مراقبة تحرك العمال أثناء قيامهم بالعمل بغية حسن توجيههم أو الاقلال من حركاتهم . وهنـاك

المهندسون الذين يدرسون مشاكل سلامة العمال أثناء العمل ، ومديرو الأقسام الطبية والمشرفون على شئون المستخدمين ، والأخصائيين فى شئون العمال وتدريبهم ، ورجال الدعاية والاتصالات الخارجية ورجال الاعلان والاخصائيون فى تحليل الأسواق ، والمستشارون فى الأبحاث العلميةوفىشئون التجارة الخارجية ، والمحامون والاخصائيون فى مسائل الضرائب — وغير هؤلاء مما لا يتسع المجال للافاضة فى شرحه .

ولنأخذ عنصرا واحدا من العناصر التى تتألف منها الشركات الحديثة ألا وهو عنصر الأبحاث العلمية ، فقد كان من النادر فى بداية هذا القرن أن تشمل أية شركة قسما أو معملا للأبحاث الخاصة بها ، أما فى سنة ١٩٤٧ فقد أوضح تقرير ستيلمان المقدم الى لجنة الموارد العلمية الملحقة بمكتب رئيس الجمهورية ، ان مجموع العلماء والمهندسين الباحثين فى الولايات المتحدة يبلغ نحو ١٣٧,٠٠٠ ، منهم ٣٠,٠٠٠ يعملون فى الحكومة و ٥٠,٠٠٠ فى الكليات والجامعات و ٥٧,٠٠٠ — أى أكثر من أية مجموعة من المجموعتين السابقتين — كانوا يعملون فى معامل ومكاتب الأبحاث الصناعية التابعة للشركات .

ويعنى الأخصائيون المشتغلون فى الشركات الكبرى بدعم الاتصال بأمثالهم من المشتغلين فى شركات أخرى ، اذ يجتمعون بعضهم ببعض فى الاجتماعات الدورية التى تعقدها الجمعية الأهلية للمشرفين على تمرين البائعين ، أو الجمعية الأهلية لمحاسبى التكاليف ، أو الجمعية الأمريكية لسكرتيرى الشركات الكبرى أو غيرها ، وفى هذه الاجتماعات يتبادلون المعلومات المتعلقة بما وصل اليه التقدم فى ناحية تخصصهم ، مما يعود بالفائدة على الجميع . وعندما يلتئم اجتماع احدى هذه الجماعات — كأن يجتمع الكيمائيون الصناعيون بكيمائى الحكومة والجامعات فى احدى اجتماعات الجمعية الكيمائية الأمريكية ، فانهم يجدون ميدانا رحبا لخدمة العلم الذى تخصصوا فيه وتوسيع دائرته . ولقد أشار

الدكتور أوبنهيمر J. Robert Oppenheimer الى ذلك عندما أدلى بشهادته أمام احدى لجان الكونجرس فى سنة ١٩٤٥ اذ قال : « ان الأحاديث العابرة وغير المتكلفة بين العلماء ، عند اجتماعهم بعضهم ببعض ، هى التى تمد علم الطبيعة بدم الحياة » . ولا شك أن ذلك ينطبق تماما على ما يحدث فى اجتماعات المشرفين على شئون المستخدمين ، والاخصائيين فى تحليل الأسواق ومحاسبى التكاليف وغيرهم ممن يعنون عناية حقيقية بما تخصصوا فيه من أعمال .

ولا ريب فى أن تبادل الآراء المستمر بين المتخصصين فى النواحى الفنية للصناعة ، قد أثمر عن حقيقة ذات مغزى كبير للصناعة الأمريكية فى الوقت الحاضر ، وهى حقيقة تثير على الدوام دهشة الأوربيين ورجال الأعمال البريطانيين بوجه خاص ، ألا وهى قلة وجود الأساليب السرية فى الصناعة الأمريكية ، فبدلا من أن تحتفظ كل صناعة بأسرارها ، تفضل تبادل المعلومات بينها وبين منافسيها لما يؤدى اليه ذلك من زيادة المعرفة وتوسيع دائرة البحث أمام الباحثين . ويظهر ذلك بوسائل مختلفة ، فاذا أخذنا مثلا ما يحدث فى الاجتماع الشهرى لمديرى جمعية المنتجين الكيمائيين ، الذين يمثلون عشرات من الشركات الكيمائية ، فاننا نجدهم يدرسون احصاءات عن نسبة سلامة العمال فى تلك الصناعة — ولا تشير الاحصاءات الى الصناعة فى مجموعها ، بل الى كل شركة على حدة ، ولذا يستطيع مدير شركة ديبون Du Pont مثلا أن يعرف بالدقة الأرقام الخاصة بأمان العمال فى شركة ميرك Merk الأمريكية . واذا سألنا عن سبب ذلك لتبين لنا أن مسائل أمان العمال تهمهم جميعا ، ولذا كان تبادل المعلومات الخاصة بها أكثر أهمية لديهم من الاعتبارات التى تمليها المنافسة الطبيعية بين الشركات المتشابهة فى انتاجها .

ومنذ سنوات أنشأ ناشرو المجلات مكتبا لمراجعة المبيعات ، مهمته البحث فى فترة محددة عن أرقام المبيعات الخاصة بكل مجلة ، والعمل على نشر هذه الأرقام بالتفصيل دون تحيز أو مبالغة . أما فى الدول

الأخرى ، فان هذه الأرقام تعتبر سرا من الأسرار التى تحتفظ بها كل مجلة ، ويعزى ذلك الى أن الناشرين الأمريكيين يرون من الفائدة أن تنشر هذه الأرقام على الملأ ، لكى يعرف أصحاب الاعلانات مدى انتشار اعلاناتهم فى المجلات المختلفة ، على الرغم مما فى هذا النشر من كشف لأسرار المهنة ، وهو ما لا يتفق فى الظاهر مع المنافسة الشديدة القائمة بين أولئك الناشرين .

ولا يقتصر تبادل المعلومات على الاجتماعات الخاصة التى يعقدها المشرفون على مهنة معينة ، وانما تنشر الصحف التجارية هذه المعلومات أيضا ، وهى وفيرة جدا ومهمتها نشر الآراء التى تساعد على تحسين الصناعة والتجارة . ولقد وصل الى علمى أن من أسباب تأخر صناعة الطائرات الحربية الايطالية خلال الحرب العالمية الثانية ، ان حكومة موسولينى الفاشية منعت دخول مجلات الطيران الانجليزية والأمريكية الى ايطاليا ، ولذا حرمت مهندسى الطيران الايطاليين من كثير من المعلومات التى تعمل أمريكا على نشرها بين جميع المهتمين بها .

ولا شك أن أبرز المنظمات الأمريكية لتبادل المعلومات الفنية ، هى المؤتمرات التجارية ، ولقد ذكرت مجلة وول ستريت أن عدد المؤتمرات التجارية التى عقدت سنة ١٩٣٠ فى الولايات المتحدة بلغ أربعة آلاف ، أما الآن فان عددها لا يقل عن ١٢ ألفا — منها ١٥٠٠ مؤتمر أهلى و ١٠٫٥٠٠ مؤتمر محلى أو خاص بولاية معينة . ونظرا لكثرة هذه المؤتمرات ، أصبح لها مديرون يتناولون مرتبات فى مقابل تنظيمها والاشراف عليها ، مما أدى الى نتيجة منطقية غريبة ، وهى أن مائتين من أولئك المديرين للمؤتمرات التجارية ، اجتمعوا فى شيكاغو سنة ١٩٥١ على شكل مؤتمر تجارى لمديرى المؤتمرات التجارية !!

— ٣ —

وقد استعرضت مجلة فورتشون Fortune فى عـددها الخاص وعنوانه « الولايات المتحدة أو الثورة الدائمة » حالة الصناعة والتجارة فى الوقت الحاضر ، وأنواع المشـاكل الكثيرة التى تواجـه مديرى الشركات الكبرى ، ووصلت الى هذه النتيجة وهى : « ان ادارة الشركات أصبحت الآن مهنة من المهن » ثم أعلنت فى مكان بارز من ذلك العدد « ان دكتاتور المال والصناعة قد لقى حتفه » وهو اعلان ذو مغزى صريح فهل كان هذا الاعلان مبالغا فيه ؟ لا شك أن هناك فارقا كبيرا بين الرجال الذين يسيطرون على الصناعة الكبيرة فى الوقت الحاضر والذين كانوا يسيطرون عليها فيما مضى ، فمن الطبيعى اليوم أن تتألف غالبية مديرى الشركات الكبرى من خريجى الجامعات ، الذين يحملون درجات علمية فى الهندسة أو القانون ، فاذا أخذنا صناعة السيارات على سبيل المثال ، وهى بلا شك من أكبر الصناعات ، نجد أن رئيس مجلس ادارة شركة جنرال موتورز وهو تشارلس ولسن Charles Irwin Wilson من خريجى معهد كارنجى للهندسة ، وقد بدأ حيـاته كمهندس كهربائى ، كما أن رئيس شركة كريزلر Chrysler ، وهو لستر كلبرت Lester Lum Culbert ، تخرج فى جامعة تكساس ومن مدرسة الحقوق فى جامعة هارفارد ، وبدأ حياته كمتخصص فى قوانين العمال . غير أن هنرى فورد الثانى ، وهو رئيس شركة فورد ، يشغل وضـعا خاصا ، لأنه من مديرى الشركات القلائل الذين ورثوا وظائفهم الحالية (وهذا أمر غير عادى فى الوقت الحاضر ، حيث يندر وجود الشركات التابعة لأسرة معينة) . ومع ذلك فانه قضى بضعة أعـوام فى جامعة ييل Yale . وكذلك حـال فرانك ابرامز Frank Whittemore Abrams الذى تخرج فى جامعة سيراكيوز سنة ١٩١٢ وبدأ حياته كمهندس ، وهو الآن رئيس مجلس ادارة أكبر الشركات الأمريكية اطلاقا من حيث رأس المال ألا وهى شركة ستاندارد أويل فى نيوجرسى . كما ان مدير الشركة نفسها واسمه أوجين هولمان

Eugene Holman يحمل درجة ماجستير العلوم من جامعة تكساس ، وبدأ حياته جيولوجيا .

ويلاحظ أيضا أن ارفنج أولدز Irving S. Olds الذى كان حتى عهد قريب رئيس مجلس ادارة شركة الولايات المتحدة للصلب ، تخرج فى جامعة ييل سنة ١٩٠٧ ومن مدرسة الحقوق فى جامعة هارفارد فى سنة ١٩١٠ ومارس المحاماة فى بدء حياته . وعندما تنحى رئيس الشركة الأمريكية للتليفون والتلغراف ، والترجيفورد Walter S. Gifford ، وكان خريج هارفارد سنة ١٩٠٥ ومن المتخصصين فى الاحصاء (ثم أصبح فيما بعد سفيرا للولايات المتحـدة فى لندن) حل محله فى رياسة تلك الشركة المهندس لروى ولسن Leroy Wilson وهو خريج معهد روز Rose للهندسة فى سنة ١٩٢٢ . وعقب وفاة هذا الأخير ، حل محله مهنـدس كهربائى يدعى كليو كريج Cleo F. Craig خريج جامعة ميســورى سنة ١٩١٣ .

ومن الشخصيات البارزة بين مديرى شركات السيارات بول هوفمان Paul Hoffman مدير شركة ستوديبيكر Studebaker ، وقد أسند اليه بعد الحرب الأخيرة عمـل من أكبر الأعمال السياسية والاقتصادية فى العصر الحديث ، ألا وهو ادارة مشروع مارشال — وبعد ذلك أصبح يشغل مركز رئيس مؤسسة فورد . واذا أشرنا الى أمثال هذه المؤسسة نذكر على سبيل المثال أن دفرو جو زيفس Devereux C. Josephs كان حتى سنة ١٩٤٨ رئيسا لمؤسسة كارنجى التى تتصل اتصالا وثيقا بالأساتذة الجامعيين ، ثم شغل مركز رئيس شركة نيويورك للتأمين على الحياة ، وكان رئيس مجلس ادارتها فى ذلك الوقت جورج هاريسون George Leslie Harrison من الذين مارسوا المحاماة ، وكان فى وقت ما محافظا لبنك فيدرال ريزرف Federal Reserve فى نيويورك .

ولا شك أن هؤلاء الرجال يوضحون اتجاها كبيرا ظهرت آثاره فى مختلف طبقات الموظفين فى الشركات ، وهو اتجاه يقصر التقـدم فى

الشركات الكبيرة على الأفراد الذين يسهل عليهم العمل فى الحكومة أو فى الأعمال الحرة ، مما يوسع مداركهم الفنية وتجاربهم العلمية ، ويعدهم لتحمل المسئوليات الضخمة ، سواء أكانت فنية أم ادارية ، وهذا مما تتطلب الصناعة الحديثة مواجهته ومعالجته ، فكأن الشركات التى ظهرت من الطراز الجديد ، أصبحت تتطلب مديرين من طراز جديد أيضا .

ويجمل بنا أن نشير الى ناحية من نواحى الحياة الأمريكية التى تثير دهشة الأوربيين على الدوام ، وان كانت أمرا عاديا فى الولايات المتحدة ألا وهى كثرة المؤسسات والجمعيات الخاصة — سواء اشتمل نشاطها على البلاد كلها أم على ولاية معينة أو منطقة محلية صغيرة — وتعنى هذه المؤسسات ببحث المسائل التى تعود بالفائدة على المجتمع والسعى الى تحقيق ما يمكن تحقيقه منها . وكثيرا ما يقوم رجال الأعمال بدور ايجابى ورئيسى فى تلك المؤسسات .

ولقدأشارت مجلةفورتشون Fortune فى عددها « الولايات المتحدة أو الثورة الدائمة » الى هذه الحقيقة وأبرزت أهميتها وعنيت ببحث احدى هذه المؤسسات فى مدينة معينة وهى مدينة سيدار رابيدز Cedar Rapids بولاية أيوا Iowa ، ففى هذه المدينة يقوم كيث دان Keith Dunn الوكيل الادارى لشركة Century Engineering برياسة اجتماع وليمة الغداء التى تعقدها الغرفة التجارية لتلك المدينة ، على اعتبار كونه رئيسا لتلك الغرفة ، ثم ينتقل بعد ذلك فورا لحضور اجتماع صندوق الادخار الخاص بالمدينة ، بينما يشتغل فان بختن شافر Van Bechten Shaffer مدير مصرف .Guaranty Bank and Trust Co برياسة اللجنة التنظيمية للغرفة التجارية وبأعمال السكرتارية لكلية Coe وبرياسة المؤسسة الأهلية للمدينة ورياسة مجلسها المحلى للصحة ، وبعضوية مجلس الصحة فى ولاية أيوا Iowa ، ويعمل فى الوقت نفسه على جمع التبرعات لمستشفى سانت لوك St. Luke والفرقة

الموسيقية المحلية،ولمسرح الممثلين غير المحترفين فى المدينة — وبذا يصرف نحو ثلث وقته فى خدمة المجتمع المحلى الذى يعيش فيه . ومن الأمـور العادية فى الوقت الحاضر ، أن نجد كبار رجال الأعمال أعضاء فى اللجان المشرفة على المستشفيات والمدارس والكليات والجمعيات الخـيرية ، بينما تعمل زوجاتهم بنشاط فى أندية السيدات والجمعيات التى تربط المعلمين بأولياء أمور الطلاب . وهناك فضلا عن ذلك مؤسسات ظهرت فى الأزمنة الأخيرة ويلعب كبار رجال الأعمال دورا كبيرا فى نشاطها ، مما حدى برئيس تحرير صحيفة كريستيان سيانس مونيتور Christian Science Monitor بأن يصفه « بأنه نوع من العمـل الجماعى الحر الذى يفوق فى قوته وبعد أثره أى نوع من أنواع النشاط الجمـاعى القائم على مبادىء ماركس » .

ولنذكر على سبيل المثال ، مثلين من أمثلة كثيرة لتوضيح ذلك ، فهناك لجنة التقدم الاقتصادى ، وهى مؤسسة تبحث الشئون الاقتصادية وتقترح الحلول السياسية التى تتفق مع هذه الأبحاث ، ولكنها لا تحاول أن تثير اهتمام مديرى الشركات بهذه المسائل فحسب ، بل تسعى أيضا الى توسيع النظرة الى المسائل الاقتصادية ، ولذا يدخل فى زمرة لجانها وهيئات البحث فيها ، خليط من مديرى الشركات واساتذة الاقتصاد الجامعيين ، بدرجة تثير دهشة أولئك الذين كانوا يسيطرون على الحياة الاقتصادية فيما مضى . وهناك أيضا مجلس الاعلان ، الذى وصفه أحد الكتاب بأنه « هيئة متطوعة تتألف من الرجال الفنيين الذين يتبرعون للبلاد بما لديهم من صور وتصميمات ومهارة فنية كبيرة ، لكى تستخدم فى الدعاية العـامة لتحسين المدارس وزيادة الأمن فى الطرق ، ومنـع انتشار الحرائق ، وترويج أسهم الحكومة وسنداتها ، ومكافحة السل وغيره من الأمراض » . واذا استمع الانسان الى برنامج الاذاعة الذى تدفع نفقاته شركة تجارية ، وتشير فيه مثلا الى أهمية العمل على النهوض بالمدارس الأمريكية ، واذا عرفنا أن تلك الاذاعة قد أعدت ونشرت مجانا

بوساطة مجلس الاعلان ، وانها أضيفت الى برنامج اذاعى تكلف مبالغ طائلة ، لاعتقاد المشرفين عليه أن فى اضافته ما يشجع الجمهور على الاستماع الى برنامجهم ، فان الانسان يشعر بما يشعر به عندما يستمع الى اذاعة خاصة بمعالجة مرض التهاب المفاصل مثلا ، وذلك فى برنامج خاص بشركة متروبوليتان Metropolitan للتأمين على الحياة ، اذ يتساءل الانسان : « لعل هذه طريقة طيبة للدعاية التجارية ، ولكن أين يقوم الحد الفاصل بين العمل المفيد للتجارة والصناعة ، والعمل الذى يستهدف خدمة الصالح العام ؟ » الحق أن العملين يتداخلان تداخلا كبيرا فى هذه الأيام .

غير ان هذا ليس تداخلا عاديا ، فان هناك محاولة مستمرة لزيادة ارتباط المصالح الخاصة بالصالح العام ، فقد ظهرت فى الوقت الحاضر رغبة شديدة فى ربط بعض العلوم المختلفة ببعضها ،وفى ربط العلوم البحتة وعلوم الاجتماع بالصناعة والتجارة، والبحث فى العلاقات بين جميع العوامل التى تؤثر فى المجتمع ، وهذه الرغبة آخذة فى الانتشار من غير شك ، اذ أصبح من الأساليب المحببة فى الوقت الحاضر ، عقد المؤتمرات التى يشترك فيها الممثلون لوجوه النشاط المتباين فى المجتمع الأمريكى لتبادل الرأى فيما بينهم ، أملا فى الوصول الى حل مشترك لمشاكل المجتمع . ومن أمثلة هذه المؤتمرات ذلك المؤتمر الذى دعا اليه مجلس الاعلان لبحث خير الوسائل لتفهيم العالم الخارجى بعض نواحى الحياة الأمريكية التى تعتبر غير مفهومة على وجهها الصحيح ، وقد عقد ذلك المؤتمر بفندق والدورف استوريا Waldorf-Astoria بنيويورك فى ١٦ أبريل سنة ١٩٥١ واشتملت هيئة المتكلمين فى هذا المؤتمر على مؤلف ورئيس لتحرير احدى المجلات وخبير فى احدى محطات الاذاعة الأجنبية ورئيس تحرير احدى الجرائد وأستاذ جامعى وعميد لاحدى الكليات ورئيس لاحدى المؤسسات وأحد أقطاب الصناعة وأحد كبار رجال السياسة الذى شغل فى وقت ما منصبا كبيرا فى الشركات . وكانت أحاديث أولئك الرجال

مفيدة وقيمة ،ولكن كان أهم من ذلك أنه فى منتصف القرن العشرين ، كان من المهم أن يجتمع هؤلاء الأفراد للتحدث عن أمريكا ووسائل تقريبها لأذهان العالم الخارجى ، وهذا مثل للطريقة التى تحمل رجال الأعمال وغيرهم على السعى المستمر لزيادة التقارب فيما بينهم ، أملا فى التفاهم على خير الوسائل لخدمة الصالح العام .

وهناك اتجاه آخر فى الصناعة الأمريكية يسير نحو احلال ادارة الجماعة محل ادارة الفرد . ومن الجائز أن الدكتاتور المسيطر على الصناعة لم يلق حتفه بعد ، غير انه من المؤكد أن دكتاتورية أمثال جورج وشنجطن هيل George Washington Hill رئيس شركة التبغ الأمريكية آخذة فى التناقص السريع .

وتختلف ادارة شركة ستاندارد أويل New Jersey و Standard Oil عن ادارة غيرها من الشركات الكبرى فى أن أعضاء مجلس ادارتها يعملون طول الوقت كبقية موظفى الشركة فى مقابل أجر معلوم ، ويعقدون جلسة مرة فى الأسبوع ، بينما تنعقد اللجنة التنفيذية المؤلفة من خمسة أعضاء مرة كل يوم ، وهذا مثل طيب لاتجاه الصناعة الأمريكية نحو ادارة الشركات بواسطة مجموعة صغيرة ومتعاونة من الأفراد . وقد وصف أحد الكتاب فى مجلة هاربر كيف يعمل أولئك الرجال المشرفون على ادارة الشركات الكبرى بالوصف الآتى : « لاشك أن مجلس الادارة يشغل من ادارة الشركة مركز القلب من الجسم ، فقراراته هى قرارات الهيئة ويشترط فيها أن تكون بالاجماع ، فاذا لم يتيسر ذلك بسبب الاختلاف الشديد فى وجهات النظر مما يصعب التغلب عليه بوسائل الاقناع العادية ، يؤجل البت فى الموضوع ويطلب تقديم بيانات جديدة خاصة به . أما رئيس الشركة ورئيس مجلس الادارة نفسه ، فانهما يشتركان فى المناقشة على قدم المساواة مع بقية الأعضاء . ولا يبعد أن يتأثر الأعضاء تأثرا غير عادى بما يدلى به مدير الشركة أو رئيس مجلس ادارتها من آراء ، فانهم بشر على كل حال ، ولكن ذلك لا يعنى أن الرئيس أو المدير يسيطر

سيطرة فعلية على المجلس ويوجه قراراته » .

وللانسان أن يتساءل هنا عن موقف مديرى الشركات فى الوقت الحاضر من المسائل المتعلقة بالصالح العام ، وقبل الاجابة على ذلك ، يجب أن نسير بحذر ، وأن نذكر على الدوام انه من الخطأ تصديق ما نستمع اليه من تأكيد وجود النيات الحسنة ، فقد لا يكون ذلك متفقا مع الواقع ، ومع ذلك فمن المؤكد أن الأزمة الاقتصادية الكبرى قد أحدثت تغيرا كبيرا فى عقلية المشرفين على الشركات الأمريكية الكبرى ، فانهم ما زالوا يذكرون امتعاض الرأى العام منهم وسخطه على تصرفاتهم لأنها سببت وقوع تلك الأزمة ، واذا كان بعض المسنين منهم لا يخفون امتعاضهم الشديد من تدخل رجال الحكومة بواشنطن ، واذا كان أغلبهم شديدى السخط ، بين آونة وأخرى ، بسبب كثرة القيود الحكومية المفروضة عليهم والأعمال الكتابية الهائلة التى يستلزمها ذلك ، فان الجانب الأكبر من الجيل الحديث من بين مديرى الشركات يشعرون باشمئزاز حقيقى من أساليب أسلافهم بعد الحرب العالمية الأولى ، ولذا يصممون على ألا يغفلوا أو يعارضوا حقائق الحياة السياسية والاجتماعية فى الوقت الحاضر كما فعل أسلافهم ، لأنهم يؤمنون بالمبدأ القائل « بأنه لا يمكن لأية سياسة تجارية أن تعود بالفائدة على أصحابها الا اذا كانت تعود بالفائدة على المجتمع أيضا » .

ولا شك فى أن الحرب الأخيرة كانت ذات أثر فى احداث ذلك التغير ، لما تسببت فيه من اختلاط رجال الأعمال برجال الحكومة وزعماء العمال وعلماء الطبيعة والمتخصصين فى العلوم الاجتماعية وغيرهم من الفنيين ، وذلك أثناء القيام بتنفيذ كثير من الأعمال الحكومية ، ولذا تعودوا على تقدير بعضهم البعض وعلى تفهم وجهات نظرهم المختلفة . ولا أقصد من كل ذلك أن مديرى الأعمال الأمريكيين قد تحولوا الى ملائكة أو أصبحوا مثالا للكمال ، بل أفضل الوصف الذى وصفهم به رالف كخلان Ralph Coghlan المحرر فى جريدة بوست دسباتش

Post Despatch بمدينة سان لويس St. Louis اذ قال : « عندما كنت صبيا ناشئا ، كنت كثيرا ما أسمع كلمات المادية والقسوة والجمود كأوصاف للشركات الكبرى ، ولكنى الآن قد شاهدت تغيرا ملحوظا ، ولا أدرى اذا كانت الشركات قد زادت من تقديرها للاعتبارات الانسانية ولكنها من غير شك قد زادت فى ذكائها وفى فهمها لواجباتها » . وقد جاء هذا الوصف عقب حضوره مؤتمر كورنتج Corning فى سنة ١٩٥١ ، وكان موضوع المؤتمر « الحياة وسط المدينة الصناعية » واستغرقت اجتماعاته يومين ، واشترك فيها عدد من رجال الأعمال وعلماء الاجتماع وغيرهم من العلماء والباحثين ، وكذلك الصحفيون ومندوبو الحكومة ، كما كانت الهيئة الداعية للمؤتمر هى شركة كورننج Corning للزجاج وهى من أكبر الشركات الأمريكية .

— ٤ —

وليست الشركات الأمريكية فى الوقت الحاضر — كبيرها وصغيرها على السواء — مجرد وحدات اقتصادية بل هى وحدات سياسية أيضا ، بمعنى أن الذين يعملون فيها أكثر شعورا أثناء ساعات عملهم بخضوعهم لادارة الشركة من شعورهم بالخضوع لرجال الحكومة ، فالرئيس سواء أكان مدير الشركة أم مدير الفرع أم كبير الملاحظين فيه أم رئيس العمال ، يعتبر هو السلطة التنفيذية التى يخضع لها موظفوه أكثر من خضوعهم لحاكم الولاية أو محافظ المدينة . كما ان اللوائح المنظمة للعمل فى الشركة — وهى تكوّن فى مجموعها القانون العام الذى يخضع له الجميع — تؤثر مباشرة فى حياة العمال والموظفين وفى مصائرهم أكثر مما تؤثر فيها لوائح البلديات أو قوانين الولايات أو تشريعات الدولة ، ذلك لأن تلك اللوائح تحدد حقوق العامل فى عمله وما يملك التصرف فيه ، كما انها تحدد مبلغ رضاء العامل عن عمله ، وسواء أكانت أنظمة العمل وقواعده من وضع الادارة وحدها أم كانت ثمرة التعاقد بين الادارة والنقابات ،

فانها تنظم حياة العمال، كما تنظم عن طريق غير مباشر حياة أسرهم أيضا .

وكذلك تعتبر الشركات وحـدات اجتماعية أيضا اذ تتألف منها جماعة خاصة ، فالفتاة التى تنتقل من احدى مدن ولاية أوهايو لتعمل فى فيلادلفيا تشعر شعورا قويا بأنها قد تلقى بين زملائها الموظفين والعمال وأصدقائهم ، الرجل الذى سوف تتزوجه ، وهى تزامل فى فترة الغداء الفتيات اللائى يشتغلن معها فى قسم معين بالمصنع ، ولذا تتعرف تدريجا على مجتمع جديد وتندمج فيه .

ولا شك أن المجتمع الذى تخلقه كل شركة يتوقف فى مداه وأهميته على عوامل متعددة — كدرجة الانسجام الاجتماعى بين الموظفين والعمال ومكانة الشركة بالنسبة للمدينة التى تقوم بها ، فقد تكون من الضخامة بحيث تسيطر على المدينة ، أو قد تكون شركة صغيرة ضمن شركات أخرى مماثلة لها — وكذلك يتوقف على ما اذا كانت غالبية عمال الليل يقطنون أو لا يقطنون فى ضواحى مختلفة ، وما اذا كان هناك توجيه من ادارة الشركة لتشجيع الاختلاط أو عدم تشجيعه بين مختلف فئات الموظفين والعمال . وعلى كل فان الحياة الاجتماعية فى الشركات تلعب دورا أكثر أهمية فى المجتمع الأمريكى مما يستخلصه الانسان من قراءة الروايات أو مشاهدتها ، فان تلك الروايات فى الغالب من وضع أفراد لم يعملوا فى الشركات ولم يتعرفوا بأنفسهم على الحياة فيها ، أو أفراد اشتغلوا فيها ولكنهم لم يندمجوا فى حياتها بسبب ما يتصفون به من نزعة فردية قوية ، ولعل الشعور العام بأهميـة الدور الذى تلعبه الشركات فى الحيـاة الاجتماعية ، هو الذى يسبب الى حد ما نزوح السكان الى المدن ، لأن الناس يشعرون شعورا غامضا بأن المدن توفر لهم فرصا للحياة الاجتماعية عن طريق العمل فى المصانع ، أكثر مما يتاح لهم فى المجتمعات الصغيرة . هذا فضلا عن أن الاتصالات الاجتماعية ليست مقصورة على أوقات العمل ، بل انها أوسع مدى وأكثر تنوعا منها فى مدينة تسيطر عليهـا شركة واحدة .

وكثيرا ما تتخذ الأساليب الاجتماعية فى الشركات أوضاعا غريبة ، فقد نشرت مجلة فورتشون Fortune فى أواخر سنة ١٩٥١ مقالتين عما تشعر به زوجات مديرى الأعمال فى بعض الشركات من ضغط شديد عليهن ، لكى يخضعن لنظام معين للمعيشة يتفق مع ما يليق بزوجات المديرين . وقد كشفت هاتان المقالتان عن ان اختيار مديرى الشركات أو ترقيتهم الى هذه المناصب يستلزم تثبت المسئولين من ان زوجاتهم يصلحن للاندماج فى المجتمع الذى تتألف منه الشركة . وكذلك كشفت المقالتان بطريقة غير مباشرة عما يؤدى اليه هذا النظام من تشجيع التكلف فى المعاملات وخلق الفوارق بين الناس والترفع بين الطبقات ، وهذا كله يتعارض مع فكرة العمل الجماعى بين الزملاء ، ويجعل الأهداف الاجتماعية للشركة أسطورة من الأساطير .

غير أن التعليقات التى أثارتها هاتان المقالتان ، أوضحت أن هناك عددا من الشركات التى لا تعرف ولا توافق على مثل هذا الأسلوب الذى يقضى على شعور الناس بالفردية والاستقلال ، ومع ذلك فان هيئة الادارة فى كل شركة وهيئة نقابة العمال ، يعملان كل فى دائرته لخدمة أغراضهما الخاصة عن طريق زيادة شعور أعضائهما بتعارض مصالحهم لمصالح الآخرين .

وعلى هذا تكون الحفلة السنوية التى يقيمها فرع من فروع الشركة لدعم الحياة الاجتماعية بين أفراده ، نوعا من أنواع الترفيه الذى تنشده المجتمعات الأخرى وان كانت لا توفق الى تحقيقه ، فان هذه الحفلة تتيح الفرصة لتوثيق التعارف بين الموظفين فى مختلف درجاتهم ، بحيث يستطيع أصغرهم أن يعبر عن رأيه بصراحة أمام أكبرهم فى كل ما يروق له انتقاده من أعمال الشركة وأنظمتها ، على ألا يكون لذلك أى تأثير فى علاقة العمل التى تربط الأفراد بعضهم ببعض .

وتلعب نقابات العمال فى هذا المجتمع الذى تخلقه الشركات دورا غريبا ، فانها بطبيعتها تفصل بين العمال وأصحاب الأعمال وتقف فى

وجه الادارة وفى وجه الشركة بل وفى وجه الصناعة كلها ، كأنها نوع من أنواع المعارضة البرلمانية الدائمة ، ولكنها معارضة لن تتولى الحكم فى يوم من الأيام ، ولن تشرف على تنفيذ سياستها بنفسها ، ولذا كان الزعيم العمالى فى مركز شاذ ، فانه لايستطيع بنفسه ان ينفذ أحدا من التغيرات التى يدعو اليها ، وهو مضطر بحكم وظيفته الى أن يبالغ فى وصف الشكايات وأن يغالى فى نشر روح السخط وعدم الثقة ، وأن يحافظ على الدوام على التهديد بالاضراب ، وهو اضراب قد يؤدى الى شـل كثير من الصناعات التى لا شأن له بها ، فضلا عن الشركة أو الصناعة التى يحتدم اختلافه معها . ولا يمارى أحد فى أن حق الاضراب من الحقوق الأساسية التى تضمن حرية العامل فى مجتمع صناعى ، وان نقابات العمال والقادة الذين وجهوا سياستها ، قد أفادوا المجتمع فائدة كبرى ، ونجحوا فى رفع المستوى العام للمعيشة ، وان التشريعات التى ساعدوا على استصدارها لتنظيم الصناعة (فيما عدا التشريعات المغالية فى السخاء التى ينعم بها العمال فى بعض الشركات) قد جعلت ظروف المعيشة أكرم للانسان مما كان يمكن أن تصل اليه لولا هذه الجهود . كما أنه لا يمكن انكار أن النقابات قد ساعدت على زيادة شعور العمال بحقوقهم وجرأتهم فى مطالبتهم بتلك الحقوق ، وبخاصة عندما يواجه ممثلوهم رجال الادارة بين الحين والحين للحصول على نصيب أوفر من الأجور . ومع ذلك فان من متناقضات الحياة الصناعية فى الولايات المتحدة أن تخلق هذه الثغرة الكبيرة فى المجتمع الأمريكى ، وتزيد اتساعا وعمقا فى نفس الوقت الذى يتجه فيه المجتمع كله نحو الاتحاد ونحو تكوين مستوى عام للحياة .

ومما يستحق الذكر أن هناك كثيرا من نقابات العمال التى تهيمن عليها ادارات رشيدة وحازمة ، ولذا كانت العلاقات بين أصحاب المصانع والنقابات متأثرة بالأناة والاستعداد الطيب للتفاهم . على ان الاضرابات تشبه حوادث الطائرات من حيث كونها من الأنباء التى تثير اهتمـام الجمهور ، أما الاتفاقات الموفقة فانها لا تلفت النظر اليها كمئات الآلاف

من الطائرات التى تصل سالمة الى أهدافها . وقد أشارت تقارير الهيئات البريطانية التى زارت أمريكا لدراسة وسائل الانتاج فيها الى مظاهر الوفاق الذى يسود العلاقات بين ادارات المصانع ونقابات العمال والى تعاونهما لما فيه مصلحة الصناعة ، ومن أسباب ذلك ان الأفراد الذين يحسنون التفكير سرعان ما يقدرون ان من مصلحة العمل ومن مصلحتهم أنفسهم ألا تؤدى العلاقات بينهم الى التصادم ، وان كانت تلك العلاقات متداخلة بعضها فى بعض .

ولقد تغيرت طبيعة الاضراب نفسه فى السنوات الأخيرة نتيجة للشعور بالحقيقة الآنفة الذكر ، ولذا كان الفارق بينها وبين الاضرابات فيما مضى كبيرا ، واذا حدثت اضرابات فى الوقت الحاضر ، وكانت متصفة بالمرارة والعنف ، فان ذلك يكون على سبيل الاستثناء .

وقد ظهرت أخيرا أدلة على تطور العلاقات بين العمال وأصحاب الأعمال ، مما ينبىء — رغم قلتها — بأن تلك العلاقات مقبلة على عهد جديد ، ومن هذه الأدلة ربط الأجور بمقدار الانتاج ، ومنها نظام المكافآت الذى يؤكد بدوره العناية بزيادة الانتاج ، ومنها تزايد عدد الشركات التى تتبع نظام اقتسام الأرباح مع العمال ، مما أدى الى نتائج تلفت النظر فى بعض الأحيان . وهناك كذلك اهتمام بالغ من جانب ادارة الشركات بوسائل توثيق الاتصال بالعمال والجمهور ، كما أن هناك دراسات مستمرة لبحث حالة العمال ومبلغ رضاهم عن أعمالهم ، ولعلنا مقبلون على عهد تتطور فيه طبيعة نقابات العمال من أداة للضغط على الادارة وتجسيم الفوارق بين العمال وأصحاب الأعمال الى أداة تصبح أقل اهتماما بكل ذلك وأكثر ميلا الى التعاون مع الادارة المشرفة على الصناعة الأمريكية ، نظرا لأن الوضع الحالى للنقابات يتعارض مع المصلحة المستنيرة للصناعة ، كما انه لا يتفق مع ظروف هذا العصر .

الفصل السابع عشر

روح العصر

امتاز المغفور له لورانس لويل (A. Lawrence Lowell) رئيس جامعة هارفارد بمقدرته الفائقة على الخطابة المرتجلة ، فقد كان يذهب الى المآدب الرسمية للعشاء وليس معه مذكرات ، ويستمع الى ثلاثة من الخطباء ، ثم ينهض للكلام فيعلق تعليقا مناسبا على ما سبق له استماعه ، ثم يبدأ فى القاء خطاب ممتع يدهش له السامعون ، لبلاغته وعمق معانيه . ومن الأسباب التى مكنته من ذلك ، أنه كان يحفظ عن ظهر قلب عددا من الخطب المناسبة ، وكان يدخل عليها من التعديل ما يتفق مع الظروف. وكانت الخطبة المحببة اليه ، تشير الى الفارق بين مدنيتين قديمتين ، صادفت كل منهما نجاحا ورخاء عظيما ، ألا وهما مدنية اليونان ومدنية قرطاجنة ، فكان يشير الى أن احداهما ما زالت تعيش فى ذاكرة الناس وتؤثر فى حياتهم اليومية ، أما الأخرى فانها لم تترك من بعدها أثرا من الآثار ، ذلك لأن مدنية قرطاجنة — على عكس مدنية اليونان — كانت مدنية تجارية بحتة ، لاتقيم وزنا كبيرا للعلم أو الفن أو الفلسفة ، فكان لويل Lowell يتساءل : « هل قدر للولايات المتحدة أن تكون مثل قرطاجنة ؟ » ثم يبدأ فى شرح مستفيض للأهمية البالغة والدائمة للجامعات فى حياة الدولة .

ولا شك أن هناك كثيرا من الناس فى الوقت الحاضر ، كما كانوا فى كل مراحل التاريخ الأمريكى ، يرون شبها كبيرا بين الولايات المتحدة وبين قرطاجنة ، وهناك من يثبت لك أننا فى نصف قرن ، رغم انتشار

الحياة الطيبة بين السكان ، كنا نسير فى الاتجاه الذى سارت فيه قرطاجنة، فقد أنتجنا ثقافة عامة ، ليس فيها متسع كبير للديانة أو الفلسفة ، وقتلنا الفنون بسبب شهوة الترفيه عن الجماهير ، وأضعفنا من شأن الحرية ، نظرا لضغط الرأى العام الذى لايشجع الآراء الفردية ، ولذا كانت الحياة الروحية فى ضعف متزايد . وهناك الكثيرون من شباب الأمريكيين وشيوخهم ، الذين يقررون أن التقدم فى الميادين الروحية والعقلية آخذ فى التعثر بمرور السنوات ، وأن غزواتنا الاقتصادية والصناعية عقيمة وقليلة القيمة ، اذ أنها لم تثمر شيئا فى ايجاد الهدوء الروحى فى النفوس .

ويستطيع الانسان من غير كبير عناء ، أن يستبعد بداهة بعض الاتهامات الموجهة الى الثقافة الأمريكية فى الوقت الحاضر ، ومن أمثلة ذلك الحنين الى الماضى الذى يجعل البعض عندما يقارنون الحاضر بالماضى انما يفكرون فى شبابهم الذى قضوه فى ظروف هنيئة وسط جماعة أقل تشعبا واختلاطا منها فى الوقت الحاضر . والواقع أن كثيرا من الناس سواء أكانوا فى داخل أمريكا أم فى خارجها ، يجدون مشقة كبيرة فى فهم الحقيقة الواقعة وهى أن أول مميز للحياة الأمريكية الحاضرة ، هو توسيع رقعة الفرص أمام الناس ، وليس من النتائج الأولى لذلك التوسيع أن تخفت الأصوات ويتوافر الاحترام للعادات الجديدة التى لم يألفها الناس بعد .

ولذا يجمل بنا أن نبدأ باعطاء الكلمة لرجل لا يخشى عليه من الوقوع فى مثل تلك الزلات ، وهو مع ذلك ينظر نظرة واقعية لما تم فى هذه البلاد خلال النصف الماضى من هذا القرن ، وهذا الرجل هو بروس بليفن Bruce Bliven الذى كتب فى مقدمة كتابه القرن العشرين غير المحدود Twentieth Century Unlimited : « فى بداية سنة ١٩٥٠ نشر كثير من الصحف والمجلات مقالات فياضة عن السنوات التى مضت منذ سنة ١٩٠٠ ، وكانت محلاة بالكثير من الصور عن ملابس الناس الغريبة فى عهد الرئيس ماكينلى Mc Kinley وعن

مواكب الدراجات ، والمغنين من ذوى الشوارب الضخمة الذين كانوا يطربون الزبائن فى محال الحلاقة ، وعن السيارات الأولى التى كانت تسير فى الطرق غارقة فى الأوحال ، ولكن الكتاب جميعا فيما أعلم ، أهملوا الاشارة الى حقيقة ذات مغزى كبير فى رأيى وهى ما حدث من تغير خلال نصف القرن الماضى فى مشاعر الناس ووجهات نظرهم ، فقد تحول الشعور بالتفاؤل الشديد الى شعور لا يبعد كثيرا عن اليأس المطلق

« فمنذ نصف قرن كان الناس جميعا وبخاصة القاطنين منهم فى الولايات المتحدة ، يؤمنون بنظرية أننا نعيش فى خير عالم ، وأن الأمور فى تحسن مطرد ، كأن الخالق سبحانه وتعالى لايعنى الا بسعادة الانسانية ورخائها ورفع شأنها على الدوام ، وان كانت حكمته فوق ادراك البشر».

ثم استمر مستر بليفن يقول : « اننا اليوم قد نقضنا هذا الايمان اذ نخشى الموت من الحرب ومن القنابل الذرية كمانخشى تزايد الوحشية ، وانحطاط العلاقات بين أجزاء الجنس البشرى »

فهل يفهم من ذلك أننا قد أصبحنا شعبا لا دين له ولا هدف له فى الحيـــاة ؟

ان الاحصاءات الخاصة بعدد المترددين على الكنائس لا تساعدنا كثيرا على الاجابة عن هذا السؤال ، فانها تدل على تزايد ذلك العــدد بنسبة تشبه نسبة تزايد السكان ، ولكن هذه الاحصاءات تثير الشك فى قيمتها ، بسبب ميل رجال الكنائس الطبيعى الى اعتبار عدد كبير من الأفراد ضمن المشتركين فى الكنيسة مع أنهم لايذهبون اليها الا فى الأفراح والمآتم . وليس هناك ما يدلنا على أن من قاموا بجمع هذه الاحصاءات كانوا أكثر دقة من ذى قبل . غير أنى أشعر شــعورا قويا بأن الناس ، وبخاصة الأثرياء منهم ، أخذوا فى الانصراف عن الكنائس وعن اقامة الشعائر الدينية فيها فى الثلاثين أو الأربعين سنة الماضية ، (فيما عدا الكاثوليك لأنهم خاضعون لتعاليم دينية شديدة) . ولقد شاهدت كذلك خلال زياراتى لبعض الأغنياء فى عطلة نهاية الأسبوع ، على مدى عشرات

من السنين ، أن المضيف كان يقلل تدريجا من سؤال ضيوفه فى مساء كل سبت عما اذا كانوا يرغبون فى الذهاب الى الكنيسة فى صباح اليوم التالى . ولم تأت سنة ١٩٢٠ وما بعدها الا وأصبح مفهوما أن أحدا منهم لا يذهب الى الكنيسة .

ومن مشاهداتى أيضا ، أنه خلال الثلاثين أو الأربعين سنة الأولى من هذا القرن ، أخذ الناس ينصرفون عن الديانة وعن الشعائر الدينية التى أقيمت الكنائس من أجلها . فقد توهم بعض الناس أن تقدم العلوم وبخاصة فيما يتعلق بنظرية التطور ، كان مما لايتفق مع تعاليم الدين المسيحى ، بينما كان البعض الآخر يضيق ذرعا بديانة تبالغ فى أهمية الابتعاد عماتعتبره من الرذائل ، كتعاطى الخمور والتدخين والميسر ولعب الجولف فى أيام الآحاد ، ولا تقيم وزنا كبيرا لمبادىء الأخاء الانسانى . ولقد حاولت الكثير من الكنائس أن تواجههذا الانتقاد بأن تجعل من نفسها مؤسسات متعددة النشاط ، فتعنى بانشاء المدارس ومنظمات للشباب وأمور الرياضة والتمثيل ، ولكن القليل منها من استطاع الاحتفاظ بكل المصلين صباح أيام الأحد ، كذلك كان بعض الناس ينتقد رجال الكنيسة لمبالغتهم فى احترام الأغنياء من المواطنين ، رغم ما يعرف عنهم من قلة نصيبهم من الفضائل الاجتماعية ، وكان القساوسة يتهمون بأنهم يعيشون بمعزل عن مشاكل الحياة العملية،بينما كان البعض يشعر شعورا مبهما بأن الكنائس تمثل أسلوبا عتيقا من أساليب الحياة والتفكير ، وأن الرجل العصرى لا يستطيع أن يخضع لمؤثراتها . ونظرا لتناقص الضغط الاجتماعى على الناس لكى يقبلوا على زيارة الكنائس ونشر رسالتها ، كان من الطبيعى أن يزيد عدد الذين يفضلون فى صباح أيام الأحد الرحلات بالسيارات عن الذهاب الى الكنيسة ، أو يقومون بزيارة الأندية الريفية أو السواحل أو تناول الأفطار المتأخر فى منازلهم .

وسواء أكان صحيحا أن الناس أخذوا فى الانصراف عن الديانة التقليدية أم لم ينصرفوا عنها ، فمن الواضح أنه منذ بداية الحرب العالمية

الثانية ظهر رد فعل لتلك الحركة عند ما بدأ كثير من الرجال والنساء يشعرون بشيء من القلق بسبب ضعف العقائد الدينية فى أوقات الشدة والاضطراب ، وأصبحوا يتوقون الى التمسك بعقيدة ما لكى ينعموا بنصيب من الاطمئنان والهدوء الروحى . ومما يدل على زيادة التعطش للأديان أن بعض الكتب الخاصة بها لقيت أعظم جانب من الرواج ، ومن أمثلتها « الرداء » The Robe و « الكردينال » The Cardinal و « هدوء النفس » Peace of Mind و « الجبل ذو الطبقات السبع » Seven Story Mountain ، وقد نتج عن ذلك أن عاد بعض الأفراد الى الكنائس — أو دخلوها لأول مرة — وظهرت ظاهرة غريبة فى بعض الأسرات ، ذلك أن الوالدين اللذين هجرا الكنيسة بسبب سخطهما على أساليبها العتيقة ، وجدا أبناءهما فى شبه ثورة على ما كانوا يعتبرونه أسلوب الحياة الوثنية التى كان يتبعها الوالدان . ولقد نجحت الكنيسة الكاثوليكية فى كسب الكثيرين من المرتدين اليها ، وكان أغلبهم من الشباب الثائر على وثنية الآباء ، كما اكتسبت الى جانبهم عددا كبيرا ممن اعتنقوا الشيوعية فى الماضى ثم انصرفوا عن قيودها الصارمة ليعتنقوا ديانة ذات قيود واضحة . ولا يستطيع أحد أن يجزم بأن عدد العائدين الى الديانة فى منتصف القرن الحالى يتعادل أو لايتعادل مع عددالمنصرفين عنها ، غير أنه مما لاشك فيه أن هناك نوعا من القلق والاضطراب فى مشاعر الناس واتجاهاتهم الدينية .

ولقد أدى الانصراف عن الكنيسة الى أن كثيرا من الأسرات بدأت تشعر بأن أطفالها محرومون من وجود المهذب الذى يرشدهم الى الخير ، ويوقظ فيهم الضمير ، وقد نجح بعض الآباء والأمهات فى أن يشغلوا ذلك الفراغ بأنفسهم ، على حين أخفق غيرهم فى ذلك ، ثم بدأوا ينزعجون لأن أبناءهم كانوا يجهلون بعض المقتبسات الشهيرة من التوراة ، كما كانوا يفتقرون الى مبادىء خلقية واضحة ، ومن الطبيعى أن أولئك الآباء بحثوا عن هيئة يمكنهم اعتبارها مسئولة عن هذا الانحطاط ، فاتجه انتقادهم

الى معاهدة التعليم ، وأخذوا يطالبون بضرورة اهتمام تلك المعاهدة ،الى جانب واجباتها الأخرى ، بشئون التهذيب الخلقى . وعلى الرغم من أن الأولاد الفاسدين يوجدون فى كل البلاد وفى جميع العصور ، الا أن ما حل بتلك الأسرات يسهل وصفه بأنه انحطاط خلقى خطير ، وان انتشار المفاسد المتعلقة بلعبة كرة السلة ولعبة كرة القدم ، والأعمال الاجرامية التى يرتكبها القاصرون من الفتيان والفتيات ، والفساد المتغلغل فى مصالح الحكومة فى واشنطن ، يمكن اعتبارها أدلة على تغلغل الانحطاط الخلقى فى المجتمع الأمريكى .

وفى رأيى أن هذا الاستنتاج لا يقوم على أساس سليم ، فمن المعروف أن عددا غير قليل من المسنين فى كل عهد ، يظهرون تخوفهم من انحلال الأخلاق فى الجيل الجديد ، ويجزمون بأن المجتمع سائر الى الدمار . فاذا كان صحيحا أن احجام الوالدين عن ردع الأطفال وزجرهم ، قد أضعف النزعة الأخلاقية فى شباب الوقت الحاضر ، فليس هناك أى دليل على أن المبادىء الأخلاقية التى يستمسك بها ذلك الشباب ، أضعف اليوم مما كانت عليه عند أسلافهم . أما الذين بلغوا سن الرشد فى الوقت الحاضر ، فمن الواضح أن ضعف استمساك بعضهم بالتعاليم الدينية قد تركهم فى حيرة ، لعدم وجود المبادىء الأخرى التى يمكن الاستمساك بها . ومع ذلك فانى كلما استعرضت فى ذاكرتى الأفراد العديدين الذين عرفتهم خلال زمن طويل ، لا أجد أى أثر لضعف الوازع الخلقى أو الضمير الحى ، ولا شك أن الكثير منهم يعمل اليوم ما كان أجدادهم يستقبحونه ويرونه غير لائق ، ولكنهم مع ذلك لا يرتكبون كثيرا من الأعمال الرذيلة أو الدنيئة ، هذا فضلا عن التغير الواضح فى وجهة نظر الكثير من الناس نحو المجتمع ، فقد أصبحوا أكثر اهتماما بشئون غيرهم وعناية بمساعدتهم مما كانوا فى أى وقت مضى .

ولا مراء فى أنه ما زال بين النساء والرجال من يعتقدون بأنهم من طراز ممتاز ، وأن غالبية مواطنيهم لا تحظى بشأن كبير فى تقديرهم ،ولكن

كبرياءهم فى الوقت الحاضر أقل اعتدادا بنفسها وأكثر تحديا للرأى العام مما كانت عليه فيما مضى عندما كانت الطبقة الارستقراطية أمرا مسلما بوجوده .

وعندما يرى الانسان الأماكن التى كانت مخصصة لاقامة الخدم فى القصور القديمة ، أو فى المساكن الخاصة بالأغنياء حوالى سنة ١٩٢٠ ، ينتابه الألم والأسى لحقارتها وضيقها ، ولذا يتساءل كيف بلغ عدم اكتراث المثقفين من الرجال والنساء هذا الحد ، حتى كانوا يهملون شأن من يقومون بخدمتهم ، ولا يعيرون وزنا لمن يسهرون على راحتهم ويقيمون تحت كنفهم .

ومن الأدلة على تغير وجهة نظر الناس نحو المجتمع ، ظهور فكرة الدخل القومى وطريقة قياس توزيع هذا الدخل ، وفكرة الاقتصاد القومى على أساس أنه حقيقة تتأثر بالنشاط الاقتصادى لكل فرد من الأفراد ، والاهتمام المتزايد باستعراض الحالة الاجتماعية لفريق أو آخر من المجتمع الأمريكى ، نظرا للاعتقاد بأن مصير بقية المجتمع يرتبط بمصيرهم .

والواقع أن كل هذه الآراء والاتجاهات الجديدة ، وليدة النصف الأول من هذا القرن ، كما أن مبدأ تكافؤ الفرص التعليمية لم يلق قبولا عاما كما يلقاه فى الوقت الحاضر ، وقد سبق أن أوضحنا فى هذا الكتاب كيف تحول الرأى العام فى السنوات الأخيرة تحولا واضحا بالنسبة الى أقل الجماعات حظا من السعادة ، ونقصد بذلك الزنوج ، فان هذا التحول كان لايقل فى الجنوب عنه فى بقية أنحاء البلاد ، كما ظهرت أيضا فكرة مسئولية مديرى الأعمال الرئيسية أمام الرأى العام ، وأصبحت من المبادىء المسلم بصحتها . ومن الظواهر التى تلفت النظر أيضا ، كثرة ما ينفقه الأفراد من وقت لخدمة المجتمع خدمة شاملة لمختلف نواحى النشاط — فمن معاونة الكنيسة فى أداء رسالتها ومساعدة المستشفيات القائمة على التبرعات ، الى الجمعيات التى تربط بين المعلمين وأولياء أمور الطلاب ، وجمعيات الكشافة والصليب الأحمر واتحاد الناخبات

والفرق الموسيقية المحلية ، والجمعيات التى تدعو الى حكومة عالمية ، وجمعية المحاربين القدماء الأمريكية ، وجمعية الروتارى ... الخ (وقد علمت أن عدد المشتغلين بجمع التبرعات لمساعدة الكنيسة فى بعض المجتمعات ، يفوق عدد الذين يقيمون الصلوات فى الكنائس) . وبالجملة فان شعورنا بالمسئولية نحو المجتمع قد زاد زيادة واضحة .

ولقد كان من الطبيعى أن يلقى هذا التغير كثيرا من المقاومة بين آونة وأخرى ، لأن المذهب الديمقراطى يتطلب من الانسان كثيرا من التسامح وسعة الصدر ، ولذا نجد أحيانا حملة كبيرة منظمة ضد اليهود فى مجتمعات كانت تعتبر نفسها متجانسة متحدة ، ولكنها تشعر الآن بعوامل التفرقة تدب بينها ، كما نجد شعورا قويا ضد الزنوج يغزو بعض المدن الصناعية ، التى كانت فيما مضى لا يقطنها الا أقلية ضئيلة من الزنوج . وهنا يجدر بنا أن نشير اشارة عابرة الى مسلك القوات الأمريكية فى الخارج ، اذ يخيل الينا أن تلك القوات — لأسباب متعددة يصعب تحديدها ، وفى طليعتها من غير شك كثرة العناصر المهاجرة التى تتكلم لغات مختلفة ويتألف منها المجتمع الأمريكى — كانت تشعر شعورا خفيا كما يشعر بقية أفراد الشعب ، بأن مبدأ الكرامة الانسانية لا يتعدى السواحل الأمريكية ، وأن الرجل الذى يثور اذا تعرض أصغر جندى فى الجيش الأمريكى للمهانة ، يسمح لنفسه مع ذلك أن يكون فظا غليظ القلب فى معاملته لأبناء الشعوب الأخرى ، دون أن يتعرض لانتقاد مواطنيه . وقد يحدث ذلك فى نفس الوقت الذى يقرر فيه نوابه فى مجلس الكونجرس ، اعتمادات تقدر بالملايين لمساعدة نفس تلك الشعوب ، التى ينظر هو اليها بعين الاحتقار .

وعلى الرغم من كل هذه العوامل غير المشجعة ، فلا يخالجنى شك فى أن الولايات المتحدة تتجه اتجاها متزايدا نحو « تطبيق المساواة ... المساواة الروحية » بين الناس . ويخيل الى أن المتكلمين فى الندوة التى عقدت بفندق والدروف Waldorf فى أبريل سنة ١٩٥١ ، كانوا

يتلاعبون بالألفاظ عندما قرروا أن ذلك الشعور المتزايد بالمساواة وتوافق المصلحة بين المواطنين ، انما يعزى الى الديانة ، كما أنى أتشكك فى صحة ما ذكره أحد المتكلمين فى تلك الندوة عندما قال : « اننا ننقص من تراثنا الروحى ونعيش على ما ادخره منه أجدادنا الأقدمون » . ومهما تكن الحال ، فمن المؤكد أن الشعب الأمريكى قد يكون أقل تمسكا بالعقائد والشعائر الدينية من ذى قبل ، ولكنه على الأقل أكثر اهتماما بحالة المواطنين ورعاية لمصالحهم مما كان عليه من قبل .

— ٢ —

والآن يجب علينا أن نواجه مسألة أخرى يخشى أن تكون الاجابة عليها متشعبة ومتعارضة بسبب اختلاف وجهات النظر فيها ألا وهى : هل أصبح التفوق مهددا فى كيانه بسبب قيام المستوى الأمريكى العام والثقافة الأمريكية العامة التى أشرنا اليها فى الفصل الخامس عشر ؟ وهل أصبحت أمريكا تقنع بمستوى عادى للتعليم وللثقافة والتفكير ، بحيث لا يتسع فيها المجال للامتياز فى هذه الميادين ؟

فأما اتهام أمريكا بأنها تسير فعلا فى ذلك الاتجاه فانه يكاد يصم الآذان ، اذ نرى مفكرا كبيرا مثل الشاعر ت . س . اليوت T.S. Eliot يقول : « نستطيع أن نقرر عن ثقة أن عصرنا هذا هو عصر اضمحلال ، وأن مستوى الثقافة فيه أقل منه منذ خمسين سنة ، وأن أدلة هذا الاضمحلال واضحة فى كل ميدان من ميادين النشاط الانسانى » . واذا قيل ان هذا لا يخرج عن كونه اتهاما عاما لا يشمل أية اشارة الى الولايات المتحدة ، فمن المعروف أن المستر اليوت قد قدم الأدلة الكثيرة على أنه غير راض عن اتجاه المجتمع الأمريكى نحو المساواة ، وأنه يفضل « المجتمع المتدرج » الذى « توجد فيه طبقة دنيا » .

ويمكن للانسان أن يجمع تلالا من أقوال الناقدين لنزعة المجتمع الأمريكى نحو المساواة ، وهى فى مجموعها تقرر أن الرجل المبدع المبتكر —

سواء أكان كاتبا أم رساما أم موسيقيا أم فيلسوفا أم من رواد الحياة الفكرية أو الدينية .. الخ — يواجه ما سمى « بمرض العصر الحاضر » ، وهو المرض الذى يرجع فى نظر البعض الى « القضاء على الآله القديم وعجز العلم والمادة عن ايجاد آله جديد يقبله الناس وترتضيه عقولهم » . وهكذا أصبح الرجل المبتكر يواجه مجتمعا يمنح أعلى الجوائز الأدبية لواضعى الروايات المثيرة للغرائز الجنسية ، مجتمعا يشهد هبوط مستوى المسرح فى طريق برودواى ، متأثرا بتزايد مصروفات الاخراج وبمنافسة السينما ، بعد أن شهد ذلك المسرح لفترة قصيرة انتعاشا كبيرا عقب الحرب العالمية الأولى، مجتمعا أخذت فيه السينما نفسها تتأثر بمنافسة التلفزيون، بعد أن عاشت جيلا تغدق الخيرات على من كانت لهم مقدرة على اجتذاب الملايين ، وتهمل اهمالا شديدا أولئك الذين لا تقبل الجماهير على مشاهدة انتاجهم ، وكذلك أصبحت التلفزيون نفسها ميدانا فسيحا لابراز مواهب المهرجين الهزليين . ولهذا أقفرت السوق من الانتاج الأدبى البحت ، وأصبح الشعراء لا يجدون من يستمع الى أشعارهم . ويستطيع الانسان أن يجمل كل ذلك فى عبارة واحدة ، وهى أن المنطق المتدفق للانتاج الكبير ، قد أفاد المجتمع فوائد مادية عظيمة ، بتوفير ما يحتاج اليه من سلع جيدة كالسيارات وجوارب النيلون ، ولكنه أدى الى هبوط واضح فى كل ما يتعلق بالمتاع الفكرى .

وهذا من غير شك اتهام بالغ الخطورة ، ولكننا قبل أن ننتهى الى رأى فيه ، يجب أن نستعرض بعض الحقائق الهامة .

ذلك أن الأدباء والمجددين فى الأدب الأمريكى لم يشعروا بشىء من الابتئاس فى السنوات السابقة للحرب العالمية الأولى ، بل انهم على العكس من ذلك ، كانوا يشعرون بثقة وانتعاش لا يعرفان حدا ، ففى شيكاغو كان أمثال لندسى Lindsay و لى ماسترز Lee Masters, وأندرسون Anderson ولاردنر Lardner وسندبرج Sandburg يجددون فى الأدب بثقة وحماسة. وفى نيويورك كان المتحررون « البوهيميون » من أدباء وفنانى قرية

جرينتش Greenwich (أحد أحياء نيويورك) يتحمسون فى مناصرتهم لكل ما هو مخالف وجديد ، كالشعر غير المقفى والتصوير والرسم من الطراز الحديث ، كما كانوا يناصرون حق النساء فى الانتخاب ويشيدون بمزايا الاشتراكية والشيوعية (شيوعية مثالية وبريئة بعكس النظام الذى ابتدعته موسكو فيما بعد) . فعندما نادى سيتجلتز Stieglitz بضرورة تشجيع الفن الحديث ، وعندما قام استعراض « أرمورى » Armory فى سنة ١٩١٣ ، وعندما دافع ماكس ايستمان Max Eastman وجون ريد John Reed عن حقوق العمال ، وعندما تكلم دل Hoyd Dell عن تحرر الأدب ، كانوا جميعا ينظرون الى عالم جديد واسع الأمل ، مما سوف يتحقق معه النجاح المؤكد للآراء الغريبة التى كان ينادى بها أمثالهم ممن يتزعمون الحركة الفكرية الجديدة .

غير أن الحرب العالمية الأولى خيبت كثيرا من الآمال، وبددت التفاؤل بقرب تحقيق السعادة الكاملة . ولذا تغير شعور الأدباء والفنانين ، وأصبح الروائيون يتحدثون عن الجيل الضائع، ويركزون اهتمامهم بابراز حقارة الحياة وقسوتها ، وكان اليأس طابع كتاباتهم ، وظهر منكن Mencken فى طليعة الساخرين من تبذل الحياة الأمريكية وغلوها فى التأثر بالعواطف، ولم يكن نقده لهذا المجتمع نقد المتحمس الغاضب ، بل نقد الساخر اليائس من الاصلاح . وأخذ سنكلير لويس Sinclair Lewis يهزأ بالمدينة الأمريكية الصغيرة وأسلوب الحياة فيها ، كما عنى سكوت فيتزجيرالد Scott Fitzgerald بابراز حقارة أولئك الأدعياء الذين كانوا يلبون الدعوات لحضور حفلات الأغنياء المترفين ، ثم ينصرفون عنهم عندما يدبر الحظ . ولقد رحل كثير من المجددين وأشياعهم الى باريس وهم يشعرون «بأن المستقبل أمر لا قيمة له» ، كما أن الشخصيات فى رواية «الشمس تشرق أيضا » من تأليف همنجواى Hemingway كانوا يعيشون ويعملون على اعتبار أن هذه العبارة حقيقة مسلم بصحتها . غير أن الحياة فى عالم من غير أمل لا تستتبع اهمال شئون الفن، وهو الأمر الوحيد الذى أصبح

يستحق الابقاء عليه ، والعمل على ابعاده عن مؤثرات السياسة والمال ، وبخاصة اذا كان ذلك الفن من الصعوبة بحيث لا يفهمه رجال السياسة والمال ، ولهذا ظهرت نعرة جديدة كانت غير معروفة قبل الحرب ، وهى أن التفوق فى الفنون والآداب ، كان يستلزم اليأس من الحياة الأمريكية ومن الحياة البشرية بوجه عام ، ومن مستقبل العالم كله ، كما يفترض عجز الغالبية العظمى من القراء عن فهم الانتاج الأدبى الرفيع ، وتذوق حلاوته وطلاوته .

وقد استقرت هذه النزعة وطال أمدها لمدة فاقت كل ما كان مقدرا لها،ففى العقد الرابع من هذا القرن ، اشتدساعدها بقوة عاطفية جديدة ، بسبب انهيار النظام الاقتصادى وكثرة الحديث عن الثورة (وفق ما كان يتوهمه الكثيرون فى ذلك العهد) ولذا اتجه الكتاب الى مهاجمة قسوة الرأسمالية وأخذوا على أنفسهم أن يدافعوا ويكافحوا لنصرة العمال المضطهدين ، ومن هنا انصرفوا من اليأس الى الكفاح ، وأغرقت المكتبات بسيل من الروايات عن الطبقات الدنيا ، وكان كتابها لا يعرفون الحياة الحقيقية لعمال المصانع الا فى أضيق الحدود . غير أن أغلب الكتاب والناقدين الذين امتازوا بحرارة دفاعهم عن الرجل العادى ، كانوا متأثرين بالعقيدة القديمة بأنه يجب على الكاتب الرفيع أن يكتب بأسلوب لا يفهمه الا الرجل غير العادى . وقد بدا هذا التناقض واضحا ومسليا عندما كان الكتاب وأشياعهم يعودون من الاجتماعات التى تعقد للدفاع عن مصالح العمال العاطلين وضحايا السماسرة من غير ذوى الضمائر ، ليتابعوا دراسة مؤلفات هنرى جيمز Henry James الذى كان لا يعرف شيئا عن السماسرة ، ومؤلفات اليوت الذى كان من غير شك لا يعطف كثيرا على العاطلين .

وفى خلال الحرب العالمية الثانية ، تحولت الرغبة فى الدفاع عن العمال الى رغبة فى الدفاع عن مصالح الجندى الأمريكى ، حتى لا يخضع لتعسف كبار الضباط ، كما تحولت الرغبة السابقة فى اظهار العالم بمظهر الكآبة واليأس ، الى رغبة فى اظهار وحشية الانسان وقت الحرب (حتى

اذا كان ذلك الانسان هو ذلك الجندى الأمريكى نفسه الذى يحاول الكاتب أن يستدر عطف القارىء عليه) . وكذلك تطور الاعتقاد بأن العمل الممتاز لا يمكن أن يحظى بتقدير كل الناس، الى تشاؤم يشمل كل مستقبل الثقافة فى العالم ويكاد يرحب بهزيمة كل ما هو ممتاز ورفيع .

ولقد كتب و . هـ . أودين W. H. Audne فى سنة ١٩٤٨ : « لا شك أن الأحياء من مؤلفى الروايات الأمريكيين يشعرون بالكثير من الحرج (وهذا ما أرجوه على الأقل) عندما يقال لهم انهم أنتجوا فى فترة ما بين الحربين الأدب الوحيد الذى يحمل مغزى قيما ، ذلك لأنى بعد عودتى من أوربا ، كان أول ماصدمنى وأشد ما ترك فى نفسى أثرا باقيا ، هو الشعور بأن الأدب الذى ظهر فى أمريكا أخيرا يفوق كل ما عداه من أدب فى أى زمان ومكان،من حيث تثبيطه للهمم واشاعته لليأس فى النفوس . وانه ليدهشنى على الدوام كيف أن دولة عرفت فى العالم أجمع بشدة تفاؤل سكانها وميلهم الى الاجتماع والمخالطة وتمتعهم بحرية لا مثيل لها فى بقية العالم ، ومع ذلك تصورها أقلام أكثر أبنائها شعورا دقيقا واحساسا مرهفا بأنها جماعة من العاجزين الذين لا حيلة لهم ومن الأفراد الذين فقدوا موطنهم أو الذين لا يتحلون بخلق كريم . ففى روايات متعددة يصطدم الانسان بالأبطال الذين لا أصل ولا خلاق لهم ، والذين يستسلمون على الدوام للاغراء دون أدنى مقاومة ، وبالأبطال الذين قد ينجحون فى الحياة ، ولكنهم يظهرون كمن ينعم بالحظ السعيد من غير مجهود خاص وليس لهم من فضيلة كبرى غير الصبر على احتمال المكاره والآلام » .

فهل يعزى ذلك الى أن مؤلفى الروايات ينهجون على طراز من التأليف كان له ما يبرره فيما مضى ، ولو أنه أصبح لا يتفق مع الأحوال الحاضرة ؟ ان هبوط المبيعات فى الروايات فى السنوات الأخيرة يعلل « بأن الكتاب المعاصرين ، يشعرون باليأس أكثر مما يشعر به القراء » ولذا أصبح القراء أسبق منهم وأكثر فهما لروح العصر . ولا شك أن استمرار جهابذة الكتاب فى اعتقادهم بأن الكتابة القيمة لابد أن تكون كتابة صعبة معقدة ، حملهم

على أن يهملوا فن الكتابة التى يفهمها الكثير من القراء ، وجلهم من غير الأجلاف كما يتصورون ، كما أن عدوى الشعور بالهزيمة بين أدباء الوقت الحاضر تحمل الانسان على التحفظ بعض الشىء فى قبول الآراء المتشائمة التى كثيرا ما يدلون بها بالنسبة الى الحالة الراهنة للثقافة الأمريكية .

فعلينا اذاً أن نحلل هذه الآراء ، وننظر الى ما ورائها من بواعث ودوافع متباينة .

— ٣ —

لا ينتظر من مثلى ، وقد اشتغل بتحرير احـدى المجلات سنوات عديدة ، وشاهد أن مكافأة المحررين لم تزد عما كانت عليه منـذ عشر سنوات ، بسبب اضطرار الناشرين الى زيادة أجور مختلف طبقات العمال زيادة عظيمة لا يصعب معهـا السـخاء فى تقـدير رجال الأدب فى الوقت نفسه ، كما لا ينتظر من رجل بذل جهدا كبيرا فى خدمة ما يسمى بالصحافة الممتازة ، أن يتهاون فيما يتعلق بشأن الهيئات القائمة بخدمة الأدب ، وهو يعلم صعوبة الكفاح الذى قام به الأدباء بسبب رغبة الناشرين فى اصدار نوع من المجلات يقبل على قراءتها الملايين ، ورغبة أصحاب الاعلانات فى أن يصلوا الى هؤلاء الملايين . فمما لا شك فيه أن النجاح العظيم الذى صادفته المجلات ذات التوزيع الكبير ، وظهور المجلات التى يشترك فى تحريرها عدد كبير من المحررين ، قد خلق أمام الصحفى الحر مصاعب جمة ، وبخاصة اذا كانت تنقصه موهبة الكتابة بأسلوب محبب للجماهير ، أو كان يرفض الاسترسال فى الموضوعات التى لا طائل تحتها أو لا يستطيع القيام بذلك بنجاح ورشاقة ، فان ذلك الصحفى لن يتمتع بالعيش الرغيد اذا لم يكن لديه مورد محقق من موارد الايراد الخاص . ومع ذلك فان مثل ذلك الصحفى لا ينعم فى أى عصر من العصور بالرخاء المالى . ولا شك أن من أسباب تناقص الاقبال على المجلات الرفيعة فى ثقافتها ، أنها أصبحت لا تحتكر هـذا اللون من الثقافة ، ففى عشرات

السنوات الأخيرة ، كانت المجلات العظيمة الرواج تفسح المجــال بين صفحاتها للأبحاث الثقافية القيمة . وتبع ذلك أن عدد الكتاب الموهوبين الذين يحصلون على دخل كبير عن طريق الكتابة فى المجلات الواسعة الانتشار دون أن يفقدوا شيئا من مكانتهم بين المفكرين والكتاب،هوعدد يفوق كثيرا ما يتصوره الانسان لأول وهلة . ولهذا كان الوضع بالنسبة الى الكتابة الأدبية وضعا متغيرا وفقا للظروف .

وكذا يقال بالنسبة الى الكتب ، فان الطلب على المؤلفات الجديدة ، أى تلك التى ينشرها الناشرون بالأسعار الجارية وتطبع لأول مرة وتتداولها محلات بيع الكتب ، قد زاد نوعا ما بالنسبة الى ما كان عليه قبل الحرب. غير أن ارتفاع الأسعار الناتج عن زيادة أجور العمال ، كان من العوامل المثبطة للشراء.ولا شك أن نصيب أقلية صغيرة من الكتاب الناجحين من مجموع ايراد المؤلفين آخذ فى الازدياد ، ولكن الصعوبة تتزايد أيضا فى سبيل نشر المؤلفات التى لا ينتظر أن يباع منها أكثر من بضعة آلاف نسخة (وهذا يشمل كل انتاج الشعراء) ولذا لا تجد الناشرين الذين يقبلون على نشرها . ومع ذلك فالحالة هنا أيضا ليست مظلمة كما يبدو لأول وهــلة .

وهناك أيضا موضوع اعادة طبع ونشر المؤلفات المجلدة بالورق،والتى يتراوح ثمن النسخة منها بين ٢٥ و ٣٥ سنتا فى محال بيع الجرائد السيارة أو محال الأدوية ، ويبلغ ما يباع منها أرقاما خيالية ، فقد كان رقم المباع منها سنة ١٩٥٠ لا يقل عن ٢١٤٫٠٠٠٫٠٠٠ نسخة ، أما فى سنة ١٩٥١ فقد قفز الرقم الى ٢٣١٫٠٠٠٫٠٠٠ نسخة .

ومن المسلم به أن نحو ثلثى هذه الكتب المجلدة بالورق لا يدل كثيرا على سمو فى ذوق الجمهور العام ، اذ لا يخرج عن كونه روايات أدبية أو بوليسية من النوع الرخيص (نظرا لأن الناشرين قد تعلموا بالتجربة أنهم يستطيعون ، على حد قول أحد الناقدين ، أن يبيعوا أى كتاب تظهر على غلافه صورة متعلقة بالمرأة المستهترة،أو بالاجرام،أو بهما

معـا) . ومع ذلك فان الاطلاع على رقم المبيعات فى يناير سنة ١٩٥٢ لبعض المؤلفات ذات الغلاف من الورق ، لايخلو من مغزى واضح،ومثال ذلك رواية مسرحية من تأليف تنى سى وليامز Tennessee Williams بعنوان «عربة ترام تدعى الرغبة» فقد بيع منها أكثر من نصف مليون ، كما بيع أكثر من ثلاثة أرباع مليون نسخة من كتاب جورج أورول George Orwell وعنوانه «١٩٨٤»، وأكثر من مليون وربع مليون نسخة من كتاب نورمان مايلر Norman Mailer وعنوانه « العرايا والأموات » ، وأربعمائة ألف نسخة من كتاب روث بنـدكت Ruth Benedict وعنوانه « نماذج من الثقافة » . ومما يلفت النظر أن مؤلفا لا شك فى مكانته العريقة — وهو ترجمة « الأوديسيا » (وعلى غلافه صورة رمزية مبهمة) كان عدد ما بيع منه ٣٥٠٫٠٠٠ نسخة . وعلينـا أن نذكر أن هـذه المبيعـات هى عـلاوة عـلى ما تقـوم ببيعـه نـوادى الكتب ومحـال بيـع الكتب العـادية ، وذلك فى بـلاد عـرف شـعبها بنهمـه فى قـراءة الصـحف والمجـلات ، وقد يكون صحيحا أن الكسب المالى الذى يحصل عليه المؤلف من هذه الطبعات الرخيصة ليس كبيرا ، اذ يقل دخله من مليون نسخة عن دخله من ٢٠٫٠٠٠ نسخة تباع بالأسعار العادية . الا أن هناك ظاهرة تلفت النظر وهى أن السوق الأمريكية متسعة جدا للمؤلفات القيمة اذا كان مستواها وسعرها فى متناول الجمهور .

وعلينا الآن أن ننظر الى الطلب على المنتجات الفنية نفسها،فالواقع أن الرسام يواجه فى الوقت الحاضر صعوبتين كبيرتين ، أولاهما أن انتاجه يعرض على الجمهور بأسعار مرتفعة (اذا وجد من يستطيع أن يعرض عليه سعرا على الاطلاق) لأنه لا يبيع ما ينتجه بنفسه الا لأحد هواة الصور الفنية أو المعاهد التى تعنى باقتنائها ، كما أنه لا يستطيع بطبيعة الحال أن يبيع الآلاف من ذلك الانتاج فى وقت واحد أو يجد الهواة الذين ينعمون بدخل وفير ، أما الصعوبة الثانية ، فهى أن الممتازين من صـغار الرسامين قد اتجهوا فى الوقت الحاضر نحو الرسوم الرمزية التى لا يكاد

يفهمها من يطمع فى اقتنائها أكثر من فهمه للشعر المعاصر . ومع ذلك فهناك اهتمام بالغ بالفن من جانب الجمهور بدليل أن فوربز واطسن Forbes Watson قرر أن المباع من الصور خلال العقد الخامس من هذا القرن ، يفوق كل ما بيع منها طوال مراحل تاريخ الولايات المتحدة ، وأنه فى خلال سنة ١٩٤٨ ، كان هناك مائة معرض من الفن الأمريكى فى المتاحف الأمريكية وبلغ عدد المشاهدين لمعروضاتها فى تلك السنة نيفا وخمسين مليون نسمة. وعلينا أيضا أن نأخذ فى الاعتبار الزيادة الكبيرة فى عدد المتاحف المحلية وعناية الجامعات والكليات بالاستزادة من اهتمام الناس بشئون الفن وزيادة مبيعات الصور المنقولة عن صور أصلية ، سواء أكانت تباع فى شكل مجلدات أم فى أشكال أخرى . هذا فضلا عن الزيادة الكبيرة فى عدد هواة التصوير بالألوان الذين يشبعون هوايتهم فى عطلة الأسبوع ، وقد قدر أن أقل عدد لمن يمارسون هواية التصوير فى الولايات المتحدة فى الوقت الحاضر هو حوالى ٣٠٠٫٠٠٠ ، كما أن وزارة التجارة أوضحت أن قيمة ما بيع من معدات الرسم والتصوير بلغ ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار سنة ١٩٣٩ ثم قفز الى ٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ سنة ١٩٤٩ .

والآن دعنا ننتقل الى الموسيقى ، وهنا تصادفنا ظاهرة عجيبة ، ففى سنة ١٩٠٠ كان هناك عدد قليل من الفرق الموسيقية السيمفونية فى كل أنحاء البلاد ، أما فى مايو سنة ١٩٥١ فكان عدد « المجموعات السيمفونية » لا يقل عن ٦٥٩ — منها ٣٢ فرقة محترفة و ٣٤٣ فرقة شعبية و ٢٣١ فرقة بالكليات وبعض فرق الهواة فى جهات مختلفة . وهناك ١٥٠ مدينة أمريكية تقيم بانتظام حفلات موسيقية سنوية ، كما أن الحفلات الموسيقية الصيفية تجتذب اليها عددا من المستمعين كان لا يمكن تخيله منذ ثلاثين سنة . وقد كتب سيسل سميث Cecil Smith بهذه المناسبة : « ان الدول الأوربية المتعطشة للدولار تعنى باقامة المهرجانات الموسيقية فى كثير منها ، رغبة فى أن تجتذب اليها السائح الأمريكى الذى قد يتردد فى السفر الى أوربا اذا كان سوف يحرم من الموسيقى أثناء غيبته ، ولذا لا يكون الغرض من

مهرجانات أدنبره واستراسبورج وامستردام وفلورنسا أن تعطى السائح الأمريكى ما لا يستمع اليه من الموسيقى فى بلاده ، بل تستهدف منافسة المهرجانات التى تقيمها المدن الأمريكية الكبرى نفسها » .

ولا شك أن الفضل الأول فى هذه الحالة العجيبة يرجع الى الراديو ، فقد أذيعت أول حفلة سيمفونية على شبكة المحطة اللاسلكية فى الولايات المتحدة فى سنة ١٩٢٦ ، كما أذيعت أول حفلة منها على نفقة احدى الشركات الاعلانية سنة ١٩٢٩ ، وبدىء فى اذاعة الأوبرا من مسرح متروبوليتان Metropolitan فى سنة ١٩٣١ ، وتعاقد توسكانينى Toscanini على قيادة الفرقة الموسيقية التابعة لشركة N. B. C. الاذاعية فى سنة ١٩٣٧ ، كما تبين فى سنة ١٩٣٨ أن الساعة المخصصة لنقد وفهم الموسيقى كانت تصل الى أسماع ٧٫٠٠٠٫٠٠٠ طفل فى ٧٠٫٠٠٠ مدرسة كل أسبوع . وقد اتضح أن برنامج فورد فى مساء الأحد المخصص لاذاعة موسيقى الفرقة السيمفونية بمدينة ديترويت كان يشغل المرتبة الخامسة بين برامج الاذاعة المحببة الى الجمهور . غير أن اذاعة الموسيقى الكلاسيكية بدأت تتضاءل فى أهميتها منذ أخذ التلفزيون يتغلب على الراديو فى كل الميادين. وحتى قبل ذلك ظهرت وسيلة أخرى للاستماع الى الموسيقى واحتلت مكانا بارزا فى اقبال الشعب عليها ، ألا وهى الفونوغراف ، ففى العقد الثالث من هذا القرن ، كانت صناعة اسطوانات الفونوغراف مهددة بالقضاء عليها بسبب ظهور الراديو وانتشاره ، ولكنها ما لبثت أن أخذت فى النهوض ثانية ، لأن الأفراد الذين بدأوا يتذوقون الموسيقى ، أصبحوا يرغبون فى الاستماع اليها فى أى وقت يريدون ، مما أدى الى تشجيع اقتناء الاسطوانات وبخاصة بعد ذيوع موسيقى الجاز وشدة الاقبال عليها . والواقع أن المتحمسين لهذا النوع من الموسيقى ، شعروا بأن عليهم أن يجمعوا التسجيلات الموسيقية القديمة لكى يتابعوها ويتفهموها على حقيقتها. فلما جاءت فترة الحرب العالمية الثانية وما بعدها ، أصبح الشباب من الفتية والفتيات يستملح الجلوس على الأرض واحتساء البيرة والاستماع الى

الموسيقى المسجلة على الاسطوانات، بعد أن كان أمثالهم فيما مضى يفضلون الذهاب الى المراقص العامة . وكذلك أخذ عدد من الذين لا يعرفون الكثير عن الأدب والفنون ، يظهرون مقدرة عجيبة فى التعرف على المقطوعات السيمفونية الشهيرة بمجرد الاستماع الى نغماتها الأولى ، ويباهون باتساع معلوماتهم الخاصة عما أنتجه بعض الموسيقيين المعاصرين لباخ Bach ، وعن استطاعتهم الادلاء برأى فيما يتعلق بالمزايا الفنية للتسجيلات التى قامت بها فرق موسيقية مختلفة . وقد قدرت مجلة بلبورد Billbord أن عدد مابيع من اسطوانات الموسيقى فى سنة ١٩٥١ كان حوالى ١٩٠ مليونا، أى أكثر من اسطوانة واحدة لكل رجل وامرأة وطفل فى الولايات المتحدة — وأن نصيب ما بيع من الاسطوانات التى تسجل الموسيقى الكلاسيكية كان يتراوح بين ١٠٪ و ١٥٪ من ذلك المجموع ، أى ما يعادل قرابة ٢٠ أو ٣٠ مليونا من الاسطوانات. ويستدل على ذلك من أنه خلال الثلاثة الأشهر الأولى لظهور الاسطوانات التى سجلت موسيقى لندوفسكا Landovska على البيانو القديم، وهى تعزف تقسيمات جولدبرج Goldberg بلغ عدد ما بيع من هذه الاسطوانات عشرين ألفا . وقد أبلغنى أحد المعنيين بدراسة الثقافة الأمريكية ، أن من أهم ما لفت نظره أثناء انتقالاته المتعددة من مكان الى آخر ، أنه يسمع فى كل مكان من يقول: «ان مدنيتنا غريبة بعض الشىء، لأن أهم ما يشغل بالنا ويثير اهتمامنا لا يتعلق بالتجارة أو الصناعة أو المال، بل يتعلق بنجاح فرقتنا الموسيقية السيمفونية أو فرقتنا الرباعية للموسيقى الوترية..الخ » .

والحق ان حالة الفنون فى الولايات المتحدة يكتنفها الكثير من الغموض . فبينما نجد اقبالا غير عادى على الموسيقى ، نرى تزايد الاقبال أيضا على رقصة الباليه سواء أكانت من الطراز القديم أم الجديد . وبينما يتعرض المسرح التمثيلى فى شارع برودواى لكثير من الكساد والاعراض نجد المسارح المحلية وفرق التمثيل بالكليات تنعم بانتعاش وتوفيق ، وبينما نجد دور السينما مكتظة بالملايين منذ سنوات (ومعرضة للانتقاد

المستمر من جانب النقاد المتحذلقين) نجدها تفقد جانبا متزايدا من روادها للتلفزيون ، مع أن هذه الأخيرة ما زالت فى مراحلها الأولى . وكذلك نجد فن البناء وقد أقلع عن نزعته الأولى القائمة على مجرد اقتباس أساليب البناء الأوربية القديمة ، وأخذ يخرج أبنية ممتازة لبيوت الصناعة ، وأنواعا متعددة للمساكن الخاصة وهى جديدة فى طرازها وأسلوبها ، غير أننا نجد المساكن فى ضواحى المدن الكبرى مثل نيويورك وشيكاغو لا تظهر عليها أية مسحة للفن المعمارى ، رغم أن هذه الضواحى هى التى يعبرها كل مسافر بالسيارة بين قلب المدينة والمطار . ونجد أيضا طرقا بديعة للسيارات (وان كانت تدعو الى الملل) ، كما نجد عددا كبيرا من الطرق الأخرى التى تشمل الكثير مما لا يسر منظره (كالجراجات ومساكن السياح ومحطات البنزين واللوحات الخاصة بالاعلان وأمكنة بيع السيارات المستعملة أو بيع كل ما هو قديم من الأدوات والملابس ، ثم المزيد من اللوحات الخاصه بالاعلان) ، وهى كلها من الأمور التى تجعل الطرق الممتازة كأنها وسيلة للخلاص مما لا يسر منظره .

ويغلب على الظن أن هـذه المتناقضات التى يشاهدها الانسان فى الولايات المتحدة ترجع الى أن هذه الدولة العظيمة ما زالت تقوم بتجربة كبرى لم يسبق لها مثيل ، فقد نجحت فى رفع مستوى المعيشة لعدد كبير من الناس كان محدودا فى ثقافته ، وجاهلا بكل ما يتعلق بالفن أو غير مقدر لقيمته . وهو مع ذلك يستطيع اقتناء كل ما تقدمه الصناعة له من أدوات التسلية أو توسيع المدارك مثل الراديو والتلفزيون . ولهذا لا يكون من الانصاف أن نقارن هؤلاء بنظائرهم فى الدول الأخرى ، حيث الأفراد الذين يعادلونهم فى مستوى المعيشة يفوقونهم بمراحل فى ثقافتهم العامة وفى تذوقهم للفنون والآداب . والواقع أن الأمريكيين لا يكونون طبقة ممتازة ، فهم من الشعب ولم يسبق للعالم أن عرف حالة تشبه الحالة التى بدءوا منها أو وصلوا اليها أو يتجهون نحوها .

ولا شك أن الأفراد الذين يتمنون أن تقتدى الولايات المتحـدة

باليونان بدلا من أن تقتدى بقرطاجنة ، ينبغى عليهم أن يخلقوا ألوانا من الأدب والفن مما يساعد على تنمية الشعور الدقيق والاحساس المرهف ، الى جانب ما يعرفه الشعب من أساليب التسلية التى تتوافر لديه فى الوقت الحاضر ، ولكن العقبات التى تقف دون ذلك عقبات اقتصادية قبل أن تكون عقبات فنية ، ولا يستطيع أحد أن يتنبأ بما اذا كان من الميسور التغلب على هذه العقبات أم لا ، ومع ذلك فمن الواضح أن أمريكا قد أصبحت رغم ما تلقاه من نقد مستمر من جانب الغلاة فى الفن والأدب ، ميدانا لأحسن ما يشهده العالم من تأليف . كما أن معاهدها وجامعاتها أصبحت تقود الثقافة العالمية ، ولا تتبع الجامعات الأخرى كما كانت تفعل فيما مضى ، وتجتذب اليها عددا كبيرا من الطلاب من مختلف الأقطار . ونظرا الى أن عبء مسئولية تزعم الثقافة العالمية قد أصبح واقعا على الولايات المتحدة رغم أنفها ، فيجمل بنا أن نذكر هذا العدد الغفير من محبى الموسيقى الذى ظهر فى الأزمنة الأخيرة ، وهذه النتيجة المشجعة هى ثمرة تحسن الحالة الاقتصادية مما عاد بالغنم على احدى نواحى الفن الرفيع ، ولعل هذه المعجزة تكون ذات أثر فى نواحى الفنون الأخرى ، وعندئذ قد يتبين أن المستوى العام للثقافة الأمريكية ليس عدوا للتفوق والامتياز ، بل انه خير وسيلة لتحقيقه .

ولقد أشار الشاعر والت ويتمان Walt Whitman الى احتمال قيام الولايات المتحدة بدور الزعامة الفنية فى العالم عندما وصف بخياله الشاعرى مهاجرة آلهة الفن من اليونان القديمة الى العالم الجديد ، فقال ما معناه: « ان تلك الآلهة لم تشعر بشىء من الذعر بسبب ضوضاء الآلات وصفير القطارات ، ولم تبتئس بمنظر المصانع وما تحتوى عليه من مختلف المعدات ، بل انها واجهت كل ذلك بابتسامة تنم عن العزيمة الصادقة فى البقاء والاستقرار ، ولذا أقامت بيننا رغم ما أحاط بها من آلات ومعدات».

— ٤ —

ومع ذلك فان هناك موضوعا آخر تجب علينا مواجهته .

انني اذ كنت أقلب بعض أوراقي القـديمة ، وجدت صورة من خطاب كنت قد ألقيته على الطلاب فى نهاية العام الدراسى لأحد المعاهد ، وكان عنوان الخطاب « فى وقت التخوف » ووجدتنى قد أشرت فى ذلك الخطاب الى أن الكثير من الناس قد تملكه « شعور بالقضاء المحتوم ، وبأن المصائب والفواجع آتية لا ريب فيها » . وقد لاحظت بعد اعـادة قراءة ذلك الخطاب أن ما جاء فيه ينطبق على الحالة كما نجدها اليوم ، ولكن تاريخ الخطاب كان يونيو سنة ١٩٣٨ — أى قبـل اختراع القنبلة الذرية وظهور الحرب الباردة ، بل وقبل قيام الحرب العالمية الثانية.

غير أن شعور كثير من الأمريكيين بالتخوف من المستقبل واليأس من أى اصلاح ، كان قائما قبل ذلك بوقت طويل ، وهو شعور بأن هناك قوى هائلة لا سلطان للمرء عليها تدفع بالانسانية الى الفواجع التى تقف بانتظارها ، وانه ليس فى مقدور أحد أن يحول دون ذلك ، ويغلب على الظن أن هذه الحالة النفسية المؤسفة ، كانت تعزى الى تعـذر تحقيق الانسجام بين عواطف الناس وظروف معيشتهم فى مجتمع معقد ، يتوقف فيه مصير المزارع فى أقاصى الريف أو صاحب المتجر الصغير فى احدى المدن ، على ما قد يحدث من انهيار فى بورصة نيويورك ، أو على قرار تتخذه الحكومة فى واشنطون ، أو على قيام الحرب فى كوريا . غير أن من أهم العوامل التى سببت انتشار الشعور بالخوف من المستقبل قيام الحرب العالمية الأولى فيما بين سنتى ١٩١٤ و ١٩١٨ ، فقد ثبت أن حادثة وقعت فى مدينة سراجيفو Sarajevo (وهى مدينـة لم يسـمع عنهـا أحـد من قبل) تستطيع أن تقلب حياة الأمريكيين رأسا على عقب ، وبعد ذلك جاءت الأزمة الاقتصادية العظمى التى أصابت حيـاة الأمريكيين فى الصميم وأطاحت بكل مجهودهم ومدخراتهم ، وجاء بعد ذلك تزايد نفوذ هتلر وقيام الحرب العالمية الثانية، مما دفع بالشباب الأمريكى الى الجحيم فى أماكن لم تكن أسماؤها معروفة منذ عام واحد ، وبعد ذلك ظهر شبح خطر روسيا الشيوعية وهو خطر لا يفهم الكثيرون كنهه أو أهدافه، ولكنه

يشعرهم باحتمال قيام حرب جديدة فى أى وقت ، تكون مصحوبة بويلات القنبلة الذرية . وفضلا عن ذلك فقد شهدت هذه السنوات الأخيرة قلقا متزايدا بين الناس بسبب الاجراءات الاستثنائية التى اتخذتها الحكومة بين آونة وأخرى،ومن أمثلة ذلك التجنيد الاجبارى،فانه بالطريقة التى ينفذ بها فى منتصف القرن الحالى ، يقنع عددا كبيرا من الشباب الأمريكى بأن مبدأ حرية الفرد وهم وعبث .

ولا شك أن جميع الناس قد تملكهم الشعور فى بعض الأوقات بأنهم فى مخالب الحوادث الضخمة ، وأنهم لا يملكون من أمرهم شيئا أكثر مما يملك المسافر فى طائرة تندفع بسرعة فائقة فى وسط الضباب وهو مقيد بالمقعد الذى يجلس فيه ، فرجل الأعمال اذ يضع مشروع ميزانيته عن العـام القادم يوقع عقـدا لأجل طويل ، والشاب والفتـاة اللذان يتعاقدان على الزواج ، وطالب العلم الذى يتردد بين الذهاب الى كلية الحقوق أو غيرها — كل هؤلاء يشعرون بأن أى قرار يصلون اليه ، يحمل بين طياته شرطا مستترا ، ألا وهو « الرجاء فى ألا ينقلب العالم الى جحيم » . واذا قام أحد بما حاولت القيام به فى هذا الكتاب من حيث اقامة الدليل على أن الولايات المتحدة فى نصف القرن الأخير قد نجحت بوجه عام فى زيادة رفاهية أبنائها وسعادتهم ، فانه يكاد يسمع الاعتراضات الصاخبة: « كيف تدعى ذلك ، مع أن كل ما نجحت فيه الولايات المتحدة ، هو أن تنتقل من عصر نعم فيه الناس بالاستقرار والطمأنينة ، الى عصر ملىء بالأزمات والمتاعب المزمنة ؟ » . ولا مراء فى أن التخوف من المستقبل أصبح يلوّن كل حياتنا وبخاصة فى هذه السنوات الأخيرة .

ولقد قلت فى ذلك الخطاب الذى ألقيته فى سنة ١٩٣٨ اننا نعيش فى عصر من الذعر ومن الآراء السـخيفة التى تولدت عن ذلك الذعـر ، وأوضحت أن الناس فى مثل تلك الأوقات يحاولون أن يركزوا سخطهم وأن يصبوا جام غضبهم على ضحية بريئة يوجهون اليها كل لوم واتهام بسبب ما يحيط بهم من ظروف القلق والاضطراب ، وهذا هو ما حدث

بالفعل منذ أن تبين لغالبية الأمريكيين ما تضمره الحكومة السوفيتية من نوايا عدوانية ، وكان ذلك حوالى سنة ١٩٤٦ و ١٩٤٧ ، فاننا أخذنا فى البحث عن الضحايا الأمريكية البريئة التى يمكن أن يوجه اليها كل لوم على المأزق الذى وقعنا فيه ، أملا فى أن يساعد الكشف عنهم ومعاقبتهم على اعادة شيء من الاستقرار الى نفوسنا . ولقد طال أمد ذلك البحث عن الضحايا وأحاطت به كثير من عوامل التجنى على الحقيقة والاندفاع فى طريق العواطف الجامحة ، حتى انه كان سببا فى نشر المخاوف والشكوك فى أوسع نطاق ، وجعل الأمريكيين يتساءلون فى الوقت الحاضر ، عما اذا كان فى مقدورهم تحت ضغط هذه الظروف القاسية ، أن يحتفظوا بالحرية وهى أعز تراث لديهم .

وقد لا يكون هذا التساؤل مقصورا على الوقت الحالى فحسب ، فان الكفاح ضد الشيوعية المنظمة ، قد يطول عشرة أو عشرين أو ثلاثين عاما ، هذا اذا لم يتسبب فى اندلاع حرب عالمية ثالثة.وهناك من يعتقد أن غالبية الأمريكيين فى الوقت الحاضر ، لن تشهد نهاية ذلك الصراع فى البقية من حياتهم ، ومعنى ذلك استمرار القلق وتوتر الأعصاب وترقب المفاجآت وما يتبع ذلك من الآراء الفاسدة والاجراءات الشاذة التى تنتج عن التوتر وعدم الاستقرار .

ولقد اتخذ البحث عن الضحايا البريئة فى الولايات المتحدةفى السنوات الأخيرة لونا خاصا،بسبب الظروف الشاذة التى أحاطت بتاريخ تكوين الحزب الشيوعى فى أمريكا ، ففى خلال سنوات الأزمة الاقتصادية ، اجتذبت الشيوعية عددا من المواطنين من الرجال والنساء الذين امتازوا بطيبة القلب والعناية الشديدة بالمصلحة العامة ، اذ تبين لهم أن الحزب الشيوعى لم يخرج عن كونه هيئة تبحث عن علاج جوهرى لكثير من المتاعب التى كانت تعانيها البلاد . ولم يكترث أولئك المواطنون اذ ذاك بأن ذلك الحزب كان على صلات بروسيا،لأن تلك الدولة كانت فى نظرهم الاقليم الوحيد الذى عرف كيف يتخلص من الأزمات الاقتصادية . هذا

فضلا عن أن الحكومة السوفيتية كانت الى أغسطس سنة ١٩٣٩ لا تقل عن الدول الديمقراطية فى معارضتها لهتلر . واذا كان الحزب الشيوعى يجنح الى السرية فى أعماله ، ويتطلب من أعضائه اصطناع التمويه الدائم واخفاء حقيقة أهدافهم ، فقد كان الناس يحسنون الظن بكل ذلك ، على اعتبار أنه من مستلزمات هيئة واقعية مكافحة . ومع هذا فلم يكن عدد المعتنقين للشيوعية كبيرا ، ولكنهم كانوا يشغلون مراكز على جانب عظيم من الأهمية ، لأن أغلبهم كان من المتعلمين الذين يستطيعون — اذا اقتضت الحال — أن يشتغلوا امراكز واسعة النفوذ ، سواء فى الحكومة أم فى المؤسسات الرئيسية ، أو كانوا من زعماء العمال الذين يستطيعون السيطرة على النقابات .

ولقد كتبت بهذه المناسبة فى كتابى وعنوانه «منذ الأمس» الذى ظهر فى سنة ١٩٤٠ ما يأتى : « الوقع أن الشباب الثائر قد اعتنق الشيوعية أو أخذ فى تحبيذها لأنه رآها النهاية الطبيعية لروح اليأس التى تغلبت عليه ، فقد بدا له أن النظام القائم كان يسير سيرا متعثرا ، وعندما أخذ فى البحث عن وسائل العلاج ، اتضح له أن الحلول النصفية لن تكفى لاصلاح الحالة فى أمريكا . وعندئذ انتقل تفكيره الى ضرورة الاتجاه الى الثورة للتخلص من كل العقبات التى تعترض سبيل الاصلاح ، ولما وصل الى هذه المرحلة من التفكير ، وجد كارل ماركس بانتظاره وهو يدعوه الى الثقة والايمان بمبادئه ، ووجد الحزب الشيوعى يتعهد له بالقضاء المبرم على كل ما كان بغيضا وكريها فى الحياة الأمريكية . ولذا وصل ذلك الشباب الى نهاية الطريق والى الغاية التى ما بعدها غاية ، وشعر بالكثير من الراحة عندما أصبحت الرأسمالية فى نظره هى أس الفساد ومصدر البلاء » .

ونظرا الى أن الحزب الشيوعى كان يفرض السرية البالغة على أعضائه وكان يشبه المؤامرة من حيث نظامه وتكوينه ، فان مهمة البحث فى المصالح الحكومية والمنظمات الكبرى عن أولئك الذين يمكن الاعتماد عليهم فى

توجيه السياسة العامة أو نقابات العمال كان عسيرا ، وقد تبع ذلك أن عددا كبيرا من الأفراد المشهورين بنزاهتهم وصادق وطنيتهم أصبحوا محل شبهة لأنهم كانوا يشتغلون فى المنظمات أو النقابات المتسمة بالشيوعية . ومما زاد فى صعوبة الموقف أن الشيوعيين كانوا ملزمين باخفاء اتصالاتهم الحزبية ، ولذا كان من الطبيعى أن تنتقل الشبهة الى المواطنين الأبرياء خوفا من أنهم يعملون كغيرهم على اخفاء حقيقة اتصالاتهم بالشيوعية . ولقد كان المهيمنون على سياسة أمريكا الخارجية محل شبهة أيضا ، لأنهم لم يوفقوا فى منع تزايد قوة روسيا الشيوعية وسيطرتها ، أو انتصار الشيوعيين فى الصين واستيلائهم على أزمة الأمور فيها ، مما جعل الناس يتساءلون عما اذا كان تدهور مركز أمريكا الدولى وتزايد مصاعب الموقف السياسى فى الوقت الحاضر يعزى الى رجال السياسة الأمريكية . وقد انتشرت موجة التشكك حتى شملت جميع المؤسسات المشهورة بنزعتها نحو الاصلاح أو التحرر فى الرأى ، بعد ما عرف عن ميل الكثيرين من الذين يعطفون على الشيوعية أو يعتنقون مذهبها الى الانضمام الى تلك المؤسسات . ولذا أصبح كل فرد متحرر فى تفكيره ومعروف بآرائه التى لا يفهمها الكثير ممن حوله من الناس ، عرضة لأن يتهم بأنه شيوعى أو من الموالين للشيوعية . وأصبح جو الحياة الأمريكية مسمما بالريب والشكوك ، مما أتاح الفرصة للمغالين فى تحمسهم (وكان أشدهم غلوا أولئك الأفراد الذين جنحوا الى الشيوعية قبيل الحرب العالمية الثانية ، ثم أصبحوا يكفرون عن سيئاتهم بمهاجمتها فى الوقت الحاضر) وكذا سمح للسياسيين الواسعى الأطماع أن يسرفوا فى اتهام كثير من المواطنين بالخيانة ، ويصموهم بوصمة يصعب عليهم الخلاص منها طوال حياتهم . ومن هذا يتبين أن تسلسل الحوادث الذى بدأ بما عرف عن الشيوعيين من نظام سرى دقيق ، قد وصل الى مدى بعيد حقا .

غير أن النتائج المترتبة على ذلك قد بلغت حدا كان لا يخطر على بال

أحد ، فان التحقيقات التى قامت بها عدة لجان برلمانية ، والاختبارات التى تعرّض لها موظفو الحكومة للتعرف على درجة ولائهم ، والمسرحية الغريبة التى مثل دور البطولة فيها ألجير هيس Alger Hiss والحملات العنيفة لتى تزعمها السناتور ماكارثى McCarthy ، والاتهامات التى وجهت الى كثير من المشتغلين بالتمثيل أو اخراج الأفلام أو بالتعليم فى المدارس والجامعات ، كل ذلك قد حمل عددا كبيرا من المواطنين النافعين والمنتجين على أن يفزعوا فيتبعوا النظام التقليدى الجديد الذى أصبح المجتمع يفرضه على أعمال الناس وآرائهم . وهذا بدوره جعل المغامرة واعتناق الآراء الاصلاحية أو الانشائية من الأمور التى يجب التخلى عنها فى مختلف نواحى الحياة الأمريكية ، نتيجة لانتشار الذعر والتشكك بين الناس .

وقد تبين من الضجة الكبيرة التى نشأت عن اقالة الجنرال ماك آرثر McArthur فى ربيع سنة ١٩٥١ ، أن متاعب الحيـاة فى الوقت الحاضر وما تحدثه من شعور باليأس من أى اصلاح ، هى السبب الحقيقى لهذه النزعة الجامحة نحو البحث عن الضحايا الأبرياء . ذلك لأن المناقشة الشعبية الكبرى التى سببتها اقالة ذلك القائد ، وكثرة ما ألقى فيها من خطب مؤيدة ومعارضة ، وطول جلسات اللجنة البرلمانية المشتركة التى قامت بمناقشة الموظفين فى افاضة كبيرة — كل ذلك كان مصحوباً بسيل من الخطابات البالغة فى شدتها ، والتى وجهت الى رؤساء تحرير الصحف والمعلقين فى الاذاعة الذين عرفوا بعدم ميلهم للقائد ، فكانت أشبه ببئر من السموم تفجرت وسالت . وعندئذ تبين للانسان أن عددا كبيرا من الناس كان يضيق ذرعا بمتاعب الحياة الدولية بوجه عام ، وبالحرب الكورية بوجه خاص ، مما اضطرهم الى أن يتهجموا على بعض الناس للتخلص مما فى صدورهم من غضب وسخط . ولهذا أصبحنا نواجه سؤالا رئيسيا وهو : « كيف نستطيع المحافظة على الثقة المتبادلة وعلى

الحرية التى تسبب انتعاش الفكر والتعبير ، فى دولة تحتمل ما تحتمله الولايات المتحدة من مسئوليات فادحة وغير محددة ، ولا تشعر بالطمأنينة رغم كونها مدججة بالسلاح » .

الحق أن الشعب الأمريكى شعب يميل الى الصراحة والبساطة والبعد عن التكلف ، غير أنه لم يسبق له أن تعرض لما يتعرض له اليوم من مجهود مضن متصل ، ولذا كانما يتحلى به من صبر وشجاعة ومرح ، يمر بامتحان قاس فى الوقت الحاضر ، وهذه من غير شك هى من أهم المشاكل التى تواجه الشعب الأمريكى اليوم .

الفصل الثامن عشر

والآن ماذا لدينـــا ؟

- ١ -

كتب رئيس تحرير مجلة « هذا الأسبوع » — وهى مجلة توزع مع صحف يوم الأحد على أكثر من ٠٠٠ر٠٠٠ر١٠ قارىء — كتب يوم ٤ مارس سنة ١٩٥١ مقالا بعنوان « مطلوب ... اسم جديد للرأسمالية » (وقد أعيد طبع هذا المقال فى مجلة « المختار Readers Digest ») وقد بدأ الكاتب مقاله باقامة الدليل على أن كلمة « رأسمالية » أصبحت لا تصلح كوصف للنظام الأمريكى الحالى ، لأن معناها فى نظر كثير من الناس وبخاصة فى خارج أمريكا ، يشير الى الحالة الاقتصادية البدائية التى كانت قائمة فى القرن التاسع عشر . وهنا تساءل الكاتب : « كيف يتأتى لنا وصف هذا النظام — فهو نظام بعيد عن الكمال ، ولكنه فى تحسن مستمر ، بل وقادر على الاستزادة من ذلك التحسن على الدوام — نظام يساعد الناس على أن يسيروا الى الأمام سويا وأن يعملوا سويا وأن يشتغلوا بالبناء سويا ، فيتزايد انتاجهم على الدوام ، ويتقاسمون سويا ثمرة هذا الانتاج المتزايد ؟ » . ثم استعرض الكاتب بعض الاقتراحات الخاصة بالاسم الجديد المطلوب ، منها «الرأسمالية الجديدة» و « الرأسمالية الديمقراطية» ، و«الديمقراطية الاقتصادية» و«الديمقراطية الصناعية » و « نظام التوزيع العادل » و « نظام المبادلة العادلة » و « نظام الانتاج العادل » . ثم تساءل عما اذا كان هناك ما هو أصلح من هذه الأسماء . وهنا طلب من القراء أن يكتبوا اقتراحاتهم على بطاقة مطبوعة فى نفس ذلك العدد من المجلة ، وأن يبعثوا بها اليه .

ولقد وردت اليه ١٥٠٠٠ بطاقة تحمل اقتراحات القراء ، مما حدا بالكاتب الى أن يقول : « انى طوال خبرتى الصحفية لم ألمس عصبا حساسا كما لمست فى هذه المرة » . والواقع أن ذلك كان عملا صحفيا موفقا ، ولكنه ان دل على شىء فعلى قوة شعور الناس فى الولايات المتحدة بأنهم يعيشون وسط نظام اقتصادى يسير بنجاح لا بأس به ، ويتحرك دولاب العمل فيه بأقصى سرعة ، ولكن الأسماء القديمة أصبحت لا تنطبق عليه .

وفى رأيى أن من الأسباب التى حملت كثيرين من الأمريكيين على أن يشعروا بذلك الشعور ، أن الولايات المتحدة لم تحاول أن تخلق نظاما معينا ، وانما نجحت فى اصلاح نظام قديم وفى تعديله واعادة بناء كل جزء من أجزائه ، رغبة منها فى أن يكون أقدر على القيام بمهمته ، وهذا ما سبق أن أوضحته فى الفصل الخاص بثورة الضمير الأمريكى .

ولقد بينت فى بقية فصول هذا الكتاب كيف تم هذا الاصلاح الجزئى فى مختلف مراحله ، ففى القرن التاسع عشر كانت حكومة الولايات المتحدة مزيجا من حكومة الاتحاد وحكومات الولايات والحكومات المحلية — وكانت حكومة الاتحاد أصغر هذه العناصر وأضيقها نفوذا — مما ترك المسائل الاقتصادية تتطور كيفما تريد ، وقد سمحت هذه الحكومات المتعددة لرجال الأعمال بأن يكوّنوا الشركات الضخمة التى كانت تتمتع بحقوق واضحة ومزايا محددة ، مما شجع عددا من الأفراد على انشاء المؤسسات الصناعية والتجارية ، وهى المؤسسات التى امتازت بحيويتها واستعدادها للتغير والتطور ، غير أن كل ذلك أثمر عن بعض النتائج غير المنظورة ، ومن أمثلتها أن أصبح العامل تحت رحمة صاحب العمل ، وصار دخله خاضعا للقانون الحديدى للأجور ، وصحب ذلك أن استحوذ أصحاب الأعمال على الجانب الأكبر من ثمرات الانتاج وأرباحه ، كما نمت قوة رجال المال اذ كانوا بحكم سيطرتهم على الأموال

المتداولة يتحكمون فى أصحاب الأعمال . ونتج عن كل هذا أن أمريكا فى بداية هذا القرن كانت مهددة بأن تصبح دولة يزيد فيها ثراء أصحاب الملايين ويقل فيها دخل بقية الشعب ، دولة يمسك بخناقها عدد قليل من رجال المال الذين يسيطرون على كيانها الاقتصادى بقدر سيطرتهم على كيانها السياسى .

ولقد أدت تلك الحالة الى استثارة الروح الديمقراطية فى البلاد ، وتنبه الشعب الى ضرورة تحقيق العدالة والمساواة . ولذا أقبل الناس على تغيير تلك الأوضاع لا عن طريق الثورة ، بل عن طريق تجارب متتالية لاصلاح النظام القائم ، فلما جاءت الأزمة الاقتصادية الكبرى وتعرض ذلك النظام للتوقف عن العمل ، دخلت عملية الاصلاح واعادة البناء فى مرحلة حاسمة . ولا مراء فى أن بعض الأخطاء قد ارتكبت فى تلك المرحلة، ولكن مبدأ الابتعاد عن الانقلاب والقيام باصلاحات تجريبية ، ظل مسيطرا على هذا العهد . وبقيت فى النفوس بعض الشكوك فيما اذا كانت هذه الاصلاحات كافية فى حد ذاتها لمعالجة الموقف وتعديل ما فسد من أمره ، حتى جاءت الحرب العالمية الثانية ، وعندئذ تبين أن الأداة الاقتصادية الأمريكية قادرة على العمل ، فى نظام وسرعة ودقة ، متى وجهت توجيها حازما من الحكومة . وبعد انتهاء الحرب خف تدخل الحكومة الاتحادية فى واشنطون ، ومع ذلك ظلت الأداة الاقتصادية تسير على أحسن وجه ، فما الذى حدث حتى أمكن الوصول الى هذه النتيجة الطيبة ؟ اننا اذا أردنا الاجابة عن ذلك فى ايجاز نستطيع أن نقول ان أمريكا قد تمكنت من الغاء القانون الحديدى للأجور بما أدخلته من تعديلات تفصيلية كثيرة على النظام الاقتصادى ، كقوانين الضرائب وقوانين تحديد النهاية الصغرى للأجور ، والاعانات والضمانات والتعديلات التى تمت فى مناسبات عديدة . هذا فضلا عن تزايد ضغط نقابات العمال وتغير وجهة نظر المشرفين على ادارة الأعمال فى كثير من المسائل . وقد نتج عن كل ذلك أن أعيد توزيع الدخول بطريقة آلية ،

فانتقلت الثروة من الأغنياء الى من كانوا دونهم ، ولم يؤد ذلك الى توقف الآلة الانتاجية بل كان على العكس من أسـباب زيادة قوتها . فكأن الولايات المتحدة قد اكتشفت ميدانا جديدا لتجول فيه وتصـول ، ألا وهو ميدان القوة الشرائية للطبقات الفقيرة .

وهذا فى رأيى هو « لب الكشف الأمريكى العظيم » وقد نتج عنه ضمنا أن زيادة الخيرات للجماهير المحرومة من النعم أدت الى تحسن حالها ، وتحولها تدريجا الى طبقة من المواطنين تشعر بحقوقها وواجباتها وتحسن تقدير مسئولياتها .

– ٢ –

ولقد أصبحت الحكومة المركزية فى الوقت الحاضر على جانب كبير من الضخامة واتساع النفوذ ، وهى ما زالت تسير فى طريقها نحو التوسع كأن هذا أمر مقرر لا مفر منه . ولا يرجع ذلك الى مجرد ضرورات الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة التى أعقبتها فحسب ، بل يرجع أيضا الى تزايد اعتماد الأمريكيين بعضهم على بعض ، نظرا للتضخم المطرد فى عدد المقيمين منهم فى المدن ، وما تبع ذلك من تعقد المؤسسات والمنظمات التى لاغنى عنها فى حياتهم . هذا فضلا عن أن الحكومة مضطرة الى التدخل فى أمور لا تعد ولا تحصى ، وكلها تتصل بمسائل المال والأعمال ، بغية مراقبتها وتنظيمها . ذلك لأن الحكومة أصبحت تحتمل مسـئوليتين عظيمتين على أثر التجارب الشديدة التى مرت بها البلاد خلال الأزمة الاقتصادية الكبرى ، والمسئولية الأولى هى مساعدة الأفـراد الذين يعجزون عن الصمود فى وجه المتاعب الاقتصادية المحيطة بهم — فاذا أخفقت المساعدة عن طريق الأقرباء والأصدقاء أو عن طريق الاعانات المحلية التى تقدمها المدينة أو الولاية ، فلا مفر من الالتجاء الى مساعدة الحكومة الفدرائية . أما المسئولية الثانية ، فهى الاشراف على النظام الاقتصادى كله حتى لايرتبك أو يتعطل فى أية مرحلة من مراحله .

وعلى هذا تحتفظ الحكومة ببعض السلطات المعينة لتوجيه الاقتصاد

القومى فى مجموعه ، وقد تتوسع فى هذه السلطات فى أوقات الأزمات كما حدث فى مستهل الحرب الكورية ، ولكن الحكومة لا تحاول أن تتدخل فى أعمال الأفراد الاقتصادية ، نظرا لقوة اعتقاد الأمريكيين بأن الأفراد أقدر على حسن ادارة تلك الأعمال من الحكومة (هذا فيما عدا بعض الحالات الخاصة ، وفى طليعتها الصناعات المرتبطة بالقوة الذرية ، فانها لأسباب تتصل بالأمن العام تشبه جزيرة من الأنظمة الاشتراكية فى وسط بحر من الأنظمة التى يشرف عليها الأفراد دون غيرهم) .

وكذلك يلاحظ أن الحكومة الفدرائية لاتتدخل فيما يتعلق باختصاص حكومات الولايات أو الحكومات المحلية ، رغم أنها تمنح الاعانات المالية لجميع تلك الحكومات لكى تمكنها من القيام بكثير من الأعمال التى لايمكن القيام بها لولا هذه الاعانات . ومن هـذا يتبين أن سلطات الحكومة الفدرائية موزعة توزيعا واسعا يشمل كل أنحاء البلاد .

وفضلا عن ذلك ، فهناك عدد كبير جدا من المنظمات والمؤسسات والجمعيات التى يقوم العمل فيها على أساس التبرع ويستهدف الى خدمة الصالح العام فى مختلف النواحى . ولا يقتصر الأمـر على الجامعات والمدارس والكنائس والمستشفيات والمتاحف والمكتبات العامة ومنظمات الخدمة الاجتماعية ، وكل هذه فى مجموعها كثيرة ومتنوعة الى أقصى حد، بل ان هناك فوق ذلك جمعيات لخدمة وحماية كل شىء يستطيع العقل أن يتصوره — فسواء أكانت هناك رغبة فى اطعام فقراء الأطفال فى أوربا أو حماية البط البرى أو تدعيم التنظيم الادارى داخل المدن والولايات أو المطالبة بزيادة الحرية للشركات أو العمل على توسيع الخدمات التى تؤديها الكنائس للمجتمع ، أو تشجيع الأولاد على الانضمام الى الكشافة، أو انقاذ ما تبقى من الأشجار الضخمة (Redwoods) فى غرب القارة ، أو أى هدف آخر من الأهداف ، فمن الميسور أن يجد الانسان مؤسسة أو مؤسسات خاصة تعمل للوصول الى تلك الأهداف . ويجب ألا ننسى بعض المؤسسات الكبرى كتلك التى تحمل أسماء كارنجى وركفلر وفورد وقد نشأت كلها بفضل سخاء بعض كبار رجال المال ونزوعهم الى المثل

العليا ، فضلا عن رغبتهم فى التهرب من دفع ضرائب التركات . كما أن هناك فوق ذلك عددا لا يحصى من المنظمات التجارية والمهنية والجمعيات التى تربط بين الخريجين أو الخريجات من مختلف الجامعات وكذلك الأندية الاجتماعية والمحافل الماسونية . والواقع أن الشعب الأمريكى يمتاز بميله الشديد الى الاشتراك فىالجمعيات والكفاح فى سبيل مختلف الأهداف وتكوين الجماعات المتطوعة للمساعدة أو الانقاذ أو الاصلاح. وليس من اليسير أن نستوضح الخطوط التى تفصل بين المنظمات الأهلية القائمة على التطوع وتلك التى تنظمهاالهيئات المالية الكبرى أوالحكومة وهذا الأمر غير مستغرب ، فكثيرا ما تكون الأموال التى تنفقها المنظمات الأهلية صادرة عن تبرعات الشركات الكبرى ، كما تكون الموارد التى تتصرف فيهاالمؤسسات الخيرية الضخمةمن تبرع احدى شركات السيارات. هذا فضلا عن أن شركات الطيران الخاصة ، تستخدم المطارات التى أنشأتها وتقوم بصيانتها الحكومة الفدرائية . كما أن الجامعات تعتمد اعتمادا كبيرا على ما يصل اليها من اعانة الحكومة وتبرعات الأفراد (فضلا عن تبرعات الحكومة الخاصة بالاتفاق على أبحاث علمية معينة). ويتبين من كل ذلك ، أن الحدود الفاصلة بين أعمال الأفراد وأعمال الحكومة مبهمة وغير واضحة المعالم .

ولكل هذه الأسباب يحق القول بأن ما تتمتع به الولايات المتحدة من قوة أدبية وعلمية كبيرة ، يرجع الى حد كبير الى وجود هذه المؤسسات الخاصة التى تعنى بخدمة المصلحة العامة بقدر ما تعنى بها الحكومة نفسها ، وتقوم بخدمات يصعب التمييز بينها وبين الخدمات التى تقوم بها الحكومة ، ولكن هذه المؤسسات تستطيع فوق هذا أن تنعم بالمرونة والتنوع فى أسلوب العمل ، أكثر مما تستطيع الحكومة . كما أنها تفسح المجال لظهور المواهب الفردية بدرجة لايتيسر ظهورها بأية وسيلة أخرى ، ولذا كان نظام المجتمع الأمريكى يتألف من مجموع ذلك الخليط العظيم من مختلف الأنظمة والمؤسسات ، وهو خليط نشأ

بطريقة غير مرسومة أو محددة ، ولعبت الصدفة دورا كبيرا فى تكوينه ، ولذا كانت قوته مستمدة فى الغالب من أن الانسان لايستطيع أن يصفه بوصف واحد محدد .

وهناك اقتراحات كثيرة لتعديل ذلك النظام المعقد الذى تسير عليه الادارة الاقتصادية القومية ، ولكن هذه الاقتراحات تثير مناقشات حادة تتعلق بمدى الحاجة اليها وبحقيقة جدواها ، فيتساءل الناس عما اذا كان الاقتراح المقدم سيؤدى الى التقليل من رغبة الناس فى العمل أو فى الادخار أو فى الاستثمار أو فى الاختراع ، وعما اذا كان سيؤدى الى زيادة النفوذ الاستبدادى للحكومة فى واشنطن ، وهل هذا الفريق من الناس أو تلك الصناعة بحاجة حقيقية الى المساعدة ، وهل الحكومة قادرة على احتمال كل تلك النفقات . ولننظر الى بعض الأمثلة التى تدل على تطاحن وجهات النظر وتعدد الآراء فى هذا الميدان .

فمنذ انتهاء الحرب الأخيرة ، ظل التضخم فى الولايات المتحدة يتزايد بطريقة مستمرة وان لم تبلغ بعد مرحلة الخطر ، وكان فى مجموعه يهدد تهديدا قويا حالة البلاد الاقتصادية ، بحيث صار الناس لايعرفون اذا كان فى مقدور أمريكا أن تحتفظ بانتاجها الحالى دون التعرض للمزيد من التضخم .

وقد بلغت الضرائب فى الولايات المتحدة حتى قبل قيام الحرب الكورية ما يقرب من نهايتها القصوى ، وهى النهاية التى لو تعدتها الحكومة فسوف يصبح العبء أكثر مما يمكن احتماله ، اذ تضعف البواعث الدافعة الى العمل والانتاج ، ويعظم التهرب من دفع الضرائب فيصبح مشكلة كبيرة مع أنه كان على الدوام من المشاكل الصغيرة ، ولا يدرى أحد ما اذا كانت المصلحة فى تخفيض الضرائب أم فى زيادة الانتاج بدرجة تسمح باحتمال الضرائب المرتفعة .

واذا عمدت روسيا الشيوعية الى تغيير سياستها بطريقة مقنعة بحيث تشجع أمريكا على تخفيف ما تنفقه على التسلح ، فلا يستطيع

الانسان أن يتنبأ عما اذا كان فى مقدور البلاد أن تنهض بالصناعات القائمة على الانتاج المحلى بدرجة تكفى للوقاية من خطر الانكماش الاقتصادى

واذا قامت حرب عالمية جديدة ، فلنا أن نتساءل عما اذا كانت الديون الأهلية سوف تبلغ أرقاما خيالية قد تزعزع الثقة بمركز الحكومة المالى .

وعلى كل حال ، فلا يعرف أحد ما اذا كانت الأعباء المالية الكثيرة التى أصبحت الحكومة ترزح تحت أثقالها — بعد أن أضافت الى سلطاتها الأولى ، كثيرا من السلطات التى كانت مركزة فى حى المال فى وول ستريت — سببا فى ظهور نوع جديد من أنواع الذعر والانهيار المالى فى المستقبل ، وهو الذعر الذى قد ينشأ عن عجز رجال المال فى الحكومة، بدلا من رجال المال فى المصارف ، عن المحافظة على قيمة ما تعهدوا بالمحافظة عليه .

ويضاف الى ما سبق ، أن أحدا لا يعرف على وجه التحديد المدى الذى تنقلب عنده سياسة الاعانة لمن خانه الحظ من الرجال والنساء ، الى سياسة مفسدة للأخلاق ، لأنها تشجع بعض الناس على أن يعيشوا على حساب الدولة بدلا من أن يعملوا لأنفسهم ، ويعتقد بعض الناس أن الولايات المتحدة قد جاوزت هذا المدى ، بينما يعتقد البعض الآخر أنها لم تصل اليه بعد .

ولكل هذه الأسباب ، كان من الخير أن يتعرض كل اقتراح لتعديل النظام القائم فى الولايات المتحدة للكثير من المناقشة الطويلة المسهبة .

ولعل العنف الذى يصحب معاركنا السياسية ، والخلافات الشديدة التى تظهر عند مناقشة بعض مشروعات القوانين المعروضة على الكونجرس تخفى عنا حقيقة تسترعى الاهتمام : وهى أنه على الرغم من قسوة العبارات التى يستخدمها البعض فى التعبير عن وجهات نظرهم ، فانه لا يوجد الا عدد قليل جدا من الأمريكيين الذين يقترحون بطريقة جدية ادخال تعديل شامل على نظامنا الاقتصادى الذى يتطور مع الزمن . ولا شك أن هناك قدرا كبيرا من السخط على الحكومة القائمة فى واشنطن (وهى حكومة الرئيس ترومان) ، كما أن هناك عددا كبيرا من الناس الذين

يرغبون فى الحد من سلطة الحكومة الفدرائية والغاء كثير من القوانين القائمة وتقليل عدد موظفى الحكومة ، وتخفيض الاعانات الاجتماعية ، وهناك آخرون ممن يرون أن من المصلحة أن تعمل الحكومة على توسيع أعمالها والاستزادة من سلطاتها ، كأن تقوم بتنظيم برنامج ضخم للضمان الصحى ، ومع ذلك فان الغالبية العظمى من الأمريكيين متفقة على أن الحكومة يجب أن تحتفظ باشرافها العام على حسن سير شئون الاقتصاد القومى ، وعلى أن تحتمل مسئولية تقديم المساعدات الاجتماعية كلما اقتضت الحال ، وأن تهيمن وتنظم الشئون الاقتصادية الى حد ما ، وأن تدفع الاعانات وتقدم الضمانات لبعض الجماعات الى حد ما أيضا — ولكن على الحكومة أن تجعل تدخلها فى أضيق الحدود ، وأن تترك الجانب الأكبر من الأعمال الاقتصادية تحت ادارة الأفراد . ولا شك أن اختلاف الرأى الشديد يكاد ينحصر فى مقدار ما تحتمله البلاد من تدخل الحكومة فى مختلف النواحى ، ولكن الرأى متفق فيما يتعلق بكثير من الأمور الهامة ، ومن هذه الأمور أن يظل اشراف الأفراد كاملا على أعمالهم الخاصه .

ويعزى ذلك الى ذيوع الاعتقاد بأن الاقتصاد الأمريكى قد أثبت مقدرته على التقدم وعلى مواجهة كل الاحتمالات تحت ادارة الفرد ، كما أن مديرى الأعمال الخاصة قادرون على رعاية المصلحة العامة بقدر ما تستطيع الحكومة نفسها لو أصبحت مسئولة عن تلك الأعمال، وأنهم فوق ذلك يتمتعون بالكفاية والمرونة وروح المغامرة ، وهى الصفات التى لايمكن للحكومة أن تحتفظ بها لو أشرفت بنفسها على الأعمال الاقتصادية — هذا فضلا عن عدم وجود خطر التحكم والاستبداد الذى قد يصبح جسيما لو تملكت الحكومة الأعمال الاقتصادية .

وبالجملة فان هناك تفاهما ضمنيا بين الغالبية العظمى من الأمريكيين بأن الولايات المتحدة لا تتطور نحو الاشتراكية وانما تمر الى جانبها وتتجه الى ما بعدها .

- ٣ -

ان التفاهم الضمنى الذى أشرت اليه فى العبارة السابقة يشير الى أن الأمريكين عندما يفكرون ويتباحثون ، ما زالوا ضحية فكرة قديمة ، أثبتت الحوادث أنها وهم من الأوهام . وهذه الفكرة هى أن العالم يتجه نحو النظام الاشتراكى بطريقة لايمكن الوقوف فى سبيلها ، وأن الأفراد الذين يرغبون فى زيادة نصيب الحكومة من النشاط ، يلقبون بالأحرار (اذا كانوا يعبرون عن آرائهم بطريقة مهذبة) وبالراديكاليين (اذا كانوا يتهجمون على غيرهم) . أما الأفراد الذين يرغبون فى الابقاء على النظام الفردى فى الصناعة ، فيلقبون بالمحافظين (اذا كانوا مهذبين) وبالرجعيين (اذا كانوا متهجمين) .

ولعل الحوادث التاريخية تسوّغ الى حد كبير هذه الصورة القائمة فى الأذهان عن تطور الحالة الاقتصادية والسياسية ، ففى خلال القرن الماضى ، كانت أهم التغييرات السياسية تتجه الى توسيع نشاط الحكومة فيما كان يسمى بالمصلحة العامة ، وكان الأفراد الذين يقاومون هـذا الاتجاه ويحاولون عدم تحقيقه ، يعرفون حقا باسم المحافظين ، وفى مقابل ذلك ، كان الأفراد الذين يرغبون فى أن تتوسع الحكومة فى تدخلها حتى تمتلك وتدير أهم الصناعات الكبرى — وهم الاشتراكيون — يعرفون حقا باسم الراديكاليين . أما أولئك الذين طالبـوا بأن تتملك الحكومة وتدير كل شيء ، وذلك عن طريق الثورة الدامية اذا اقتضت الحال — أى الشيوعيون — فكانوا يعرفون باسم الراديكاليين المتطرفين . غير أن الولايات المتحدة قد أثبتت بطريقة عملية أن النظام الذى يسير على خير وجه ، ويجمع بين دفتيه المزايا الفعلية للمسئولية الحكومية ولنشاط الأفراد ، ويتحاشى فى الوقت نفسه كل العيوب فى الحالتين ، هو النظام الذى يجعل تدخل الحكومة محدودا ويسمح بنصيب كبير من الحرية للصناعات والشركات الخاصة . ذلك لأن هذا النظام يبرز ميزة كبرى ، ألا وهى توزيع سلطة اصدار القرارات وما يصحبها من نفوذ

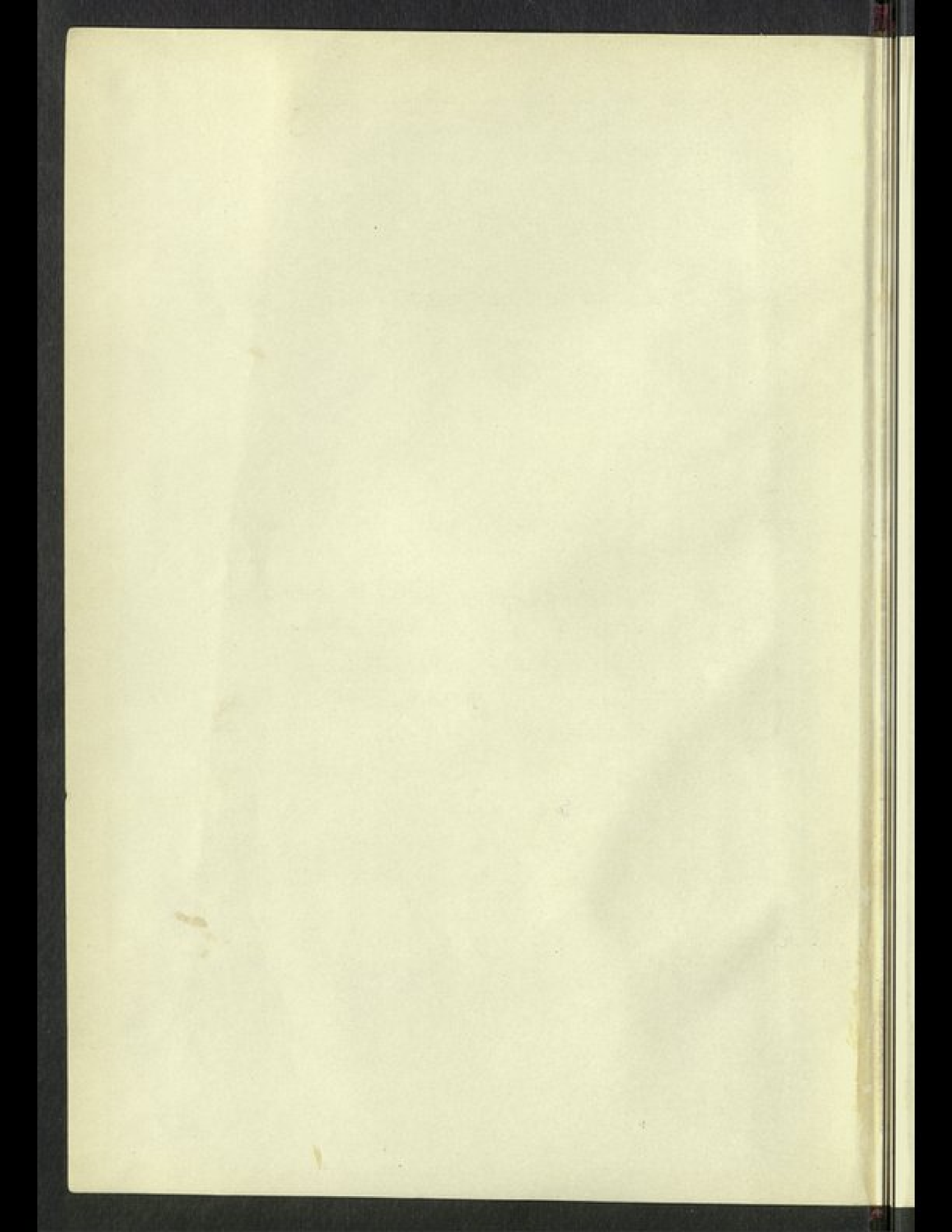
وفرص كبيرة فى أوسع نطاق . ومن هذا يتبين أن اتجاه التقـدم أصبح اليوم غير ما كان يتوهمه البعض فيما مضى .

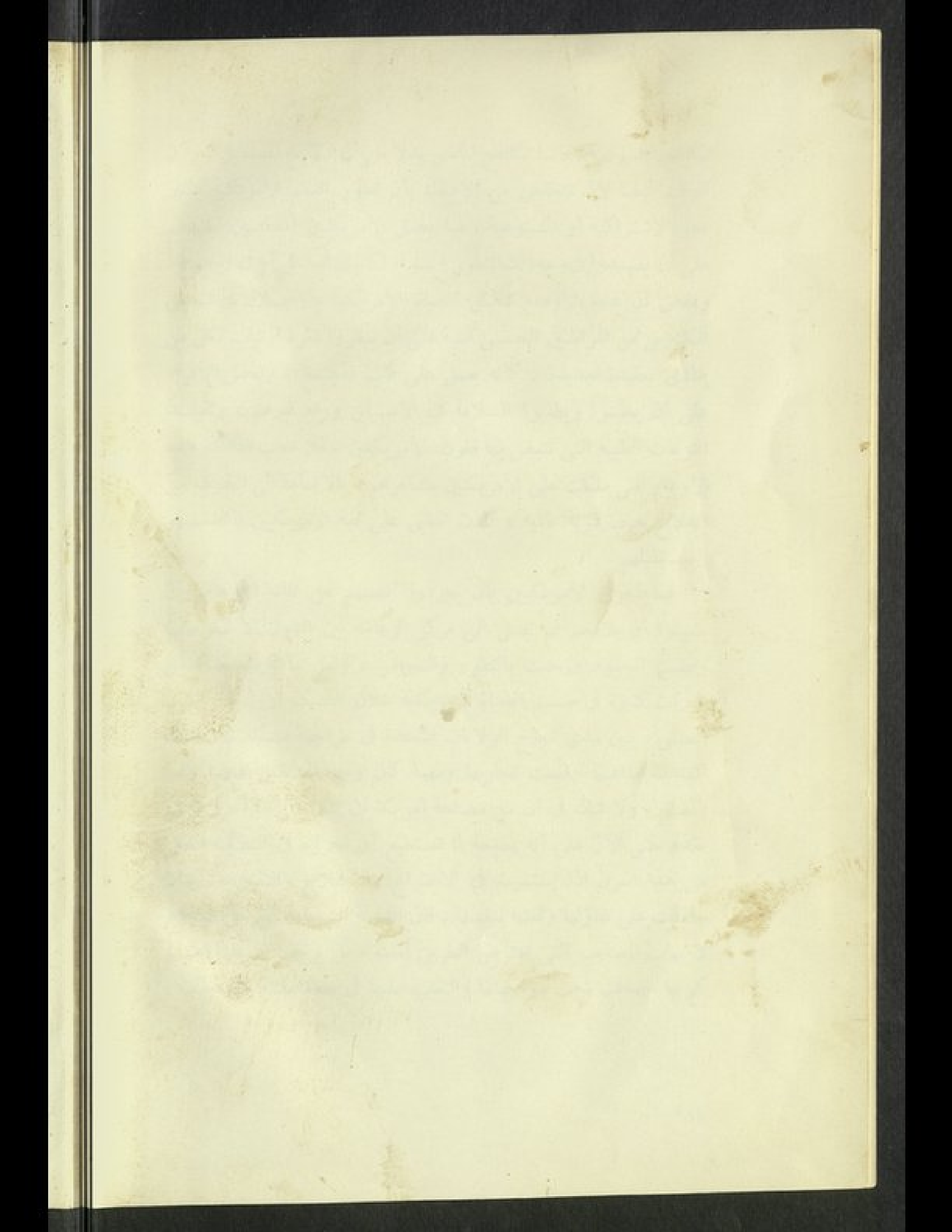
ومع ذلك فما زال الوهم قائما عند غالبية الأمريكيين بأن العالم يتطور نحو الاشتراكية أو نحو الشيوعية ، وعلى الرغم من أن انتاج الولايات المتحـدة وثروتها ومستوى معيشة سكانها مما تثير دهشة العالم واعجابه ، وأنها قادرة على أن تقدم الخدمات الفنية والمساعدات المادية الملموسة لكثير من الدول ، التى لا تستطيع روسيا أن تقدم لها مساعدة من أى نوع — مع أن روسيا لا تنفك عن المباهاة بما تنعم به من رخاء وثروة — وعلى الرغم أخيرا من أن النظام الاقتصادى الأمريكى أصبح بعد ما وصل اليه من تطور ، من أشد القوى الثورية فى العالم أجمع ، فان هذا الوهم قد تأصل فى نفوس الأمريكيين الى درجة جعلتهم يتجهون بسليقتهم ، عند مواجهة المشاكل الدولية ، الى التحالف مع الدول المحافظة أو الرجعية ، وبذا يظهرون أمام العالم كأنهم يرغبون فى القضاء على آمال الانسانية ومنع وصولها الى حيـاة أفضل . اذ أنهم يعارضون كل تغيير وينظرون الى روسيا السوفيتية على أنها وحلفاءها ومن يسيرون فى ركابهم ، يمثلون فى مجموعهم سياسـة الراديكالية ، ويقفون من المسائل الدولية موقفا قد تنزلق اليه الولايات المتحدة اذا لم تصمد فى معارضتها لكل تغيير — هذا مع أن روسيا السـوفيتية قد قضت على الهدف الأول للشيوعية ، وهو تحسين حالة الجماهير الشعبية ، وحولته الى هدف التوسع والسيطرة بأبشع الأساليب وأشدها قسوة ، بحيث أصبحت هذه الدولة لاتخرج عن كونها نظاما استبداديا من الطراز الذى كان معروفا فى العصور الوسطى ، وجاء هذا النظام نتيجة محاولة ثورية للتخلص من المشاكل التى تخلفت عن القرن التاسع عشر — وهى المشاكل التى تخلصت منها الولايات المتحدة منذ زمن طويل .

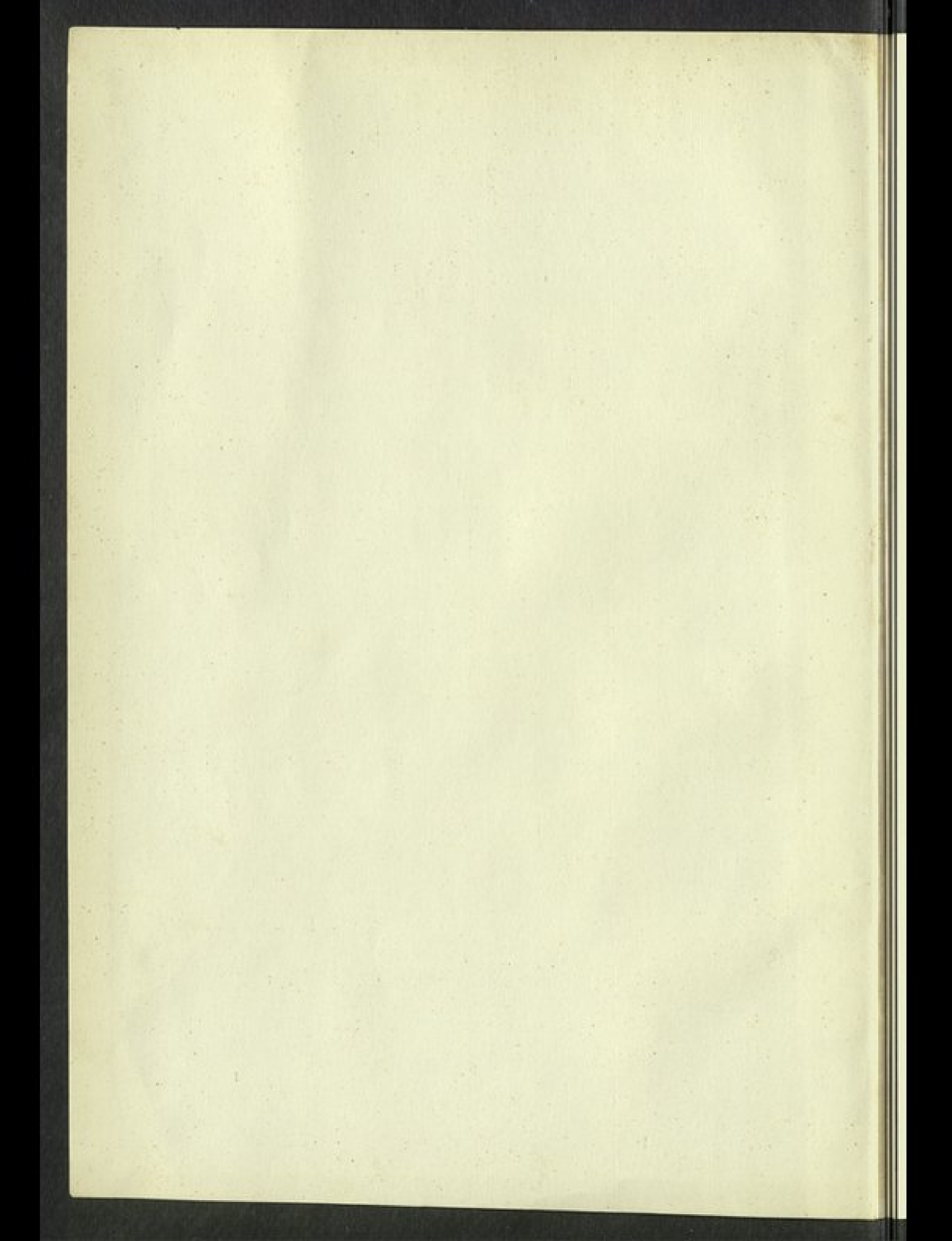
وقد آن الوقت لأن تجرد الولايات المتحدة نفسها من هذا الوهم العالق بنفسها بالنسبة الى روسيا ، وآن الوقت الذى تتبين فيه أنها اذ

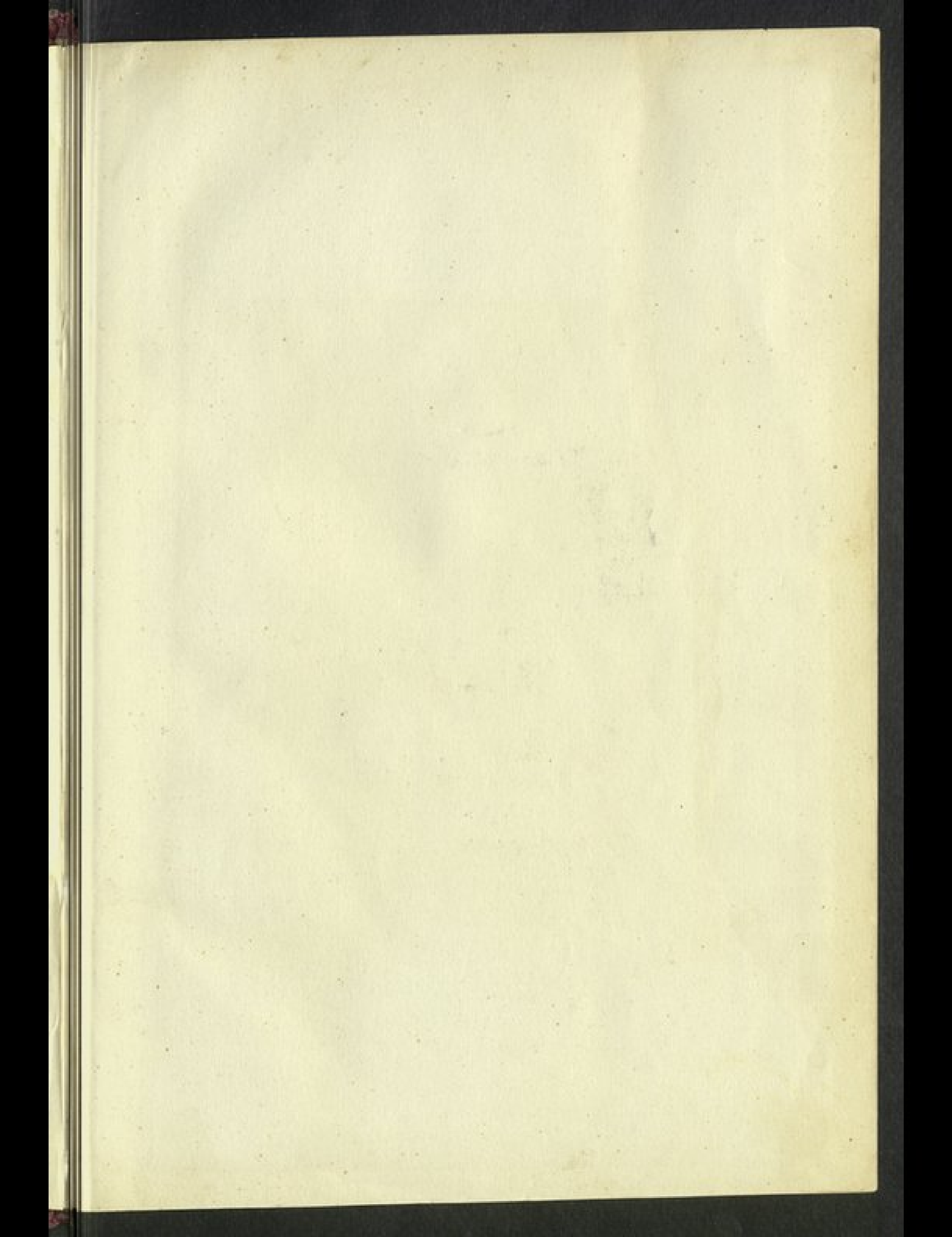
تكافح الشيوعية ، فانما تكافح الماضى بدلا من أن تكافح المستقبل ، وآن الوقت أيضا لأن تتخلص من الاعتقاد بأن تطور النظم الأمريكية يسير نحو الاشتراكية أو الشيوعية ، مما يحمل الأمريكيين المخلصين لبلادهم على أن يصمدوا فى وجه ذلك التطور ، سواء أكان فى الداخل أم فى الخارج . والحق أن هذه الأوهام تكبّل الحياة الأمريكية بالأغلال ، فتحمل الكثيرين من المواطنين الحسنى النية على أن ينظروا نظرة ارتياب لكل من ينادى بعقيدة جديدة ، كأنه يعمل على قلب المجتمع ، وتحمل الأفراد على أن يجبنوا ويطلبوا السلامة فى الانسياق وراء غيرهم ، وتقيد النزعات الطيبة التى تنبض بها قلوب الأمريكيين . فلا عجب اذا أن هذه الأوهام التى ملكت على الأمريكيين مشاعرهم ، بالاضافة الى الخوف من اندلاع حرب ذرية عالمية ، كادت تقضى على ثقة الأمريكيين بأنفسهم وبمستقبلهم .

فما أحرى الأمريكيين بأن يجردوا أنفسهم من تلك الأوهام وأن يتبينوا أن بلادهم لم تصل الى مركز الزعامة بين الدول الا لكونها رفضت الجمود ورحبت بالتطور والنهوض ، ولعل ما أوضحناه من تغيرات كثيرة فى صميم الحياة الأمريكية خلال النصف الأول من القرن الحالى ، يبين مدى نجاح الولايات المتحدة فى مواجهة مشكلاتها ، مهما اشتدت متاعبها وقست تجاربها ومهما كان وجه المستقبل مبهما وغير واضح . ولا شك فى أن من مصلحة أمريكا أن تنظر الى ما أحرزت من تقدم حتى الآن على أنه مقدمة لما تستطيع أن تحرزه فى النصف الثانى من هذا القرن اذا استمرت فى الاختراع والاصلاح والتغيير — واذا حافظت على تفاؤلها وثقتها بنفسها ، فان الدولة الشجاعة كالرجل الشجاع لا يهاب المصاعب التى تعترض الطريق أمامه ، بل يرحب بها على اعتبار كونها مصاعب تجب مواجهتها والتغلب عليها فى حياة مليئة بالمفاجآت .

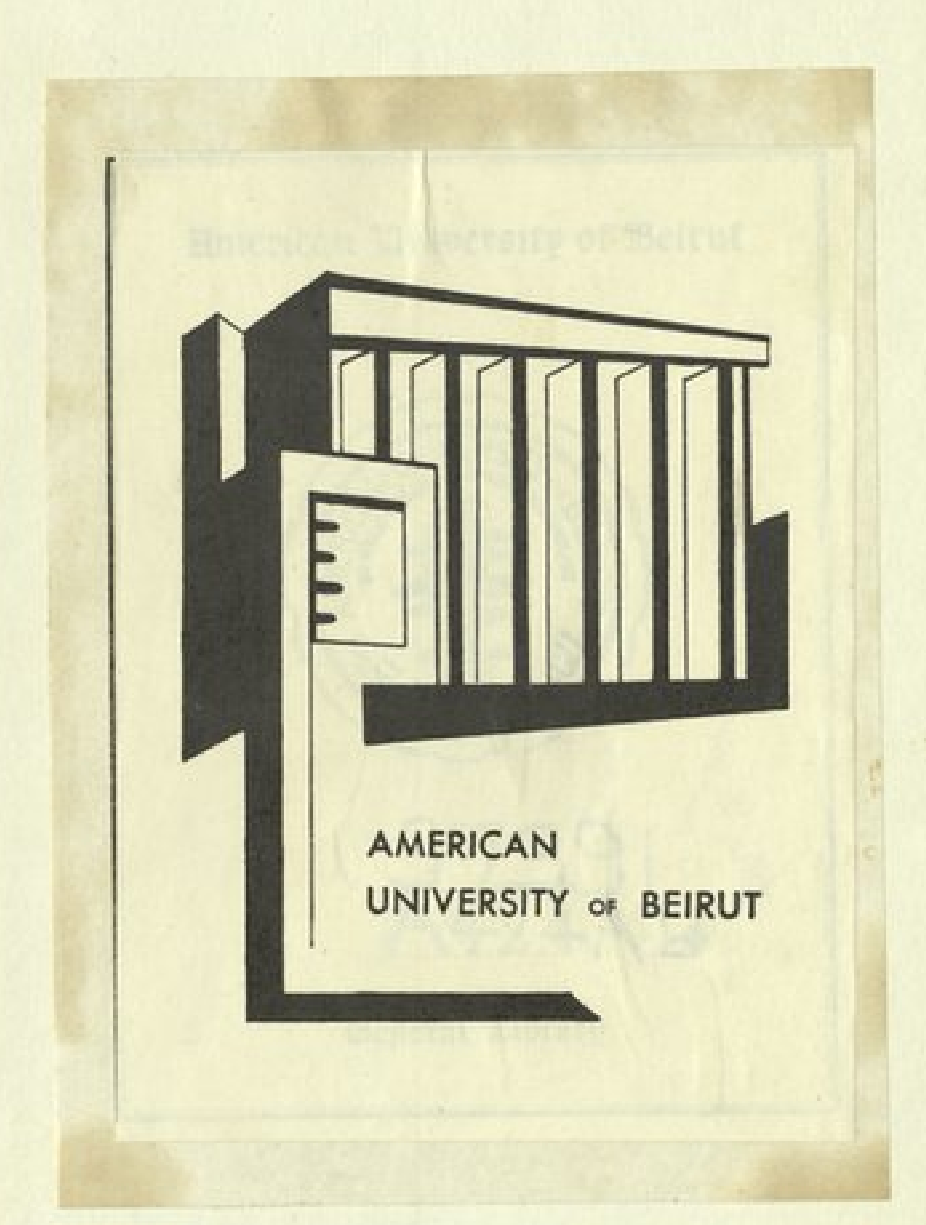









البيه ،عبد المنعم
التطور الكبير
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES


AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

